دار الفكر اللبناني

موسوعات الوافي بالمعلومات

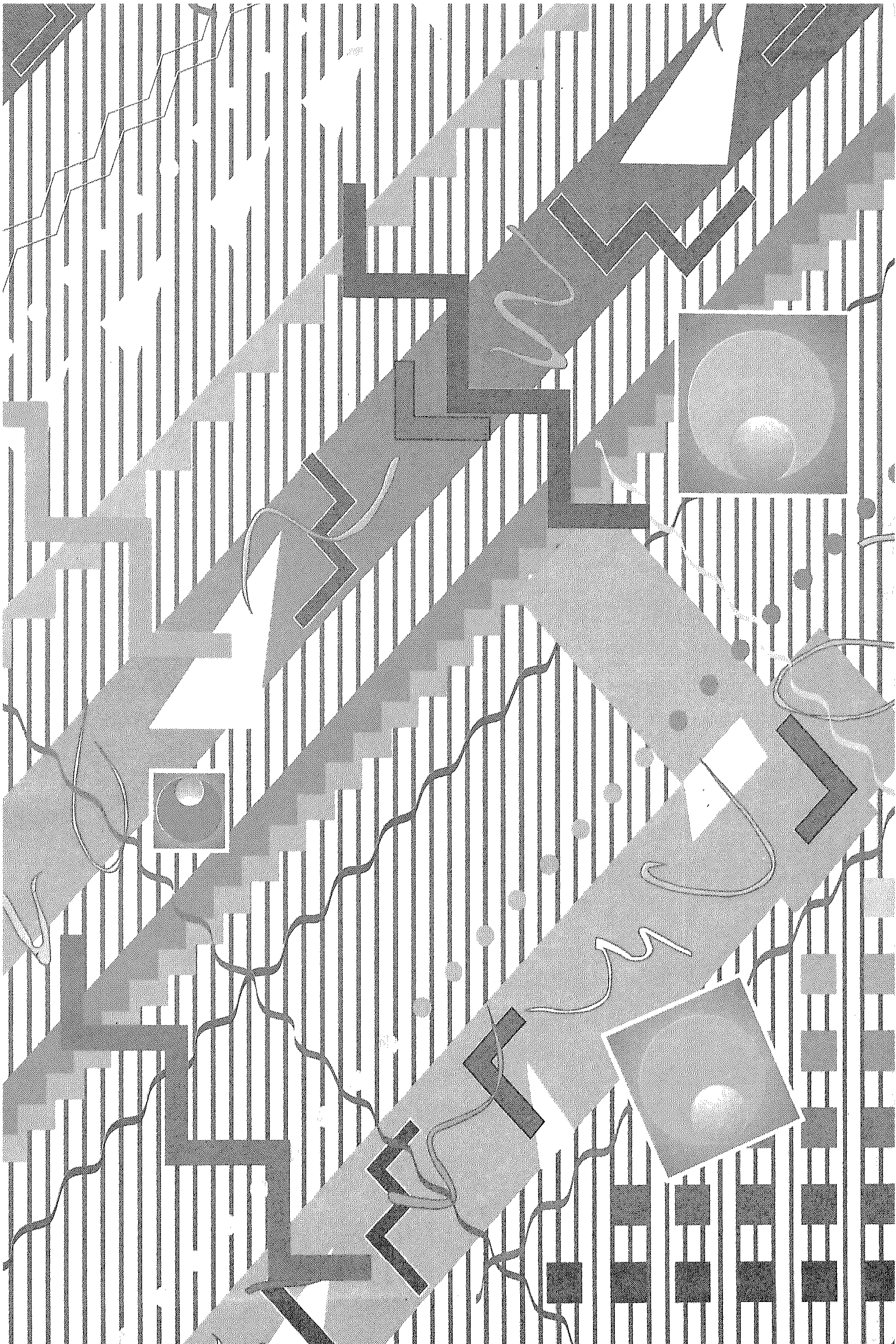
موسوعة

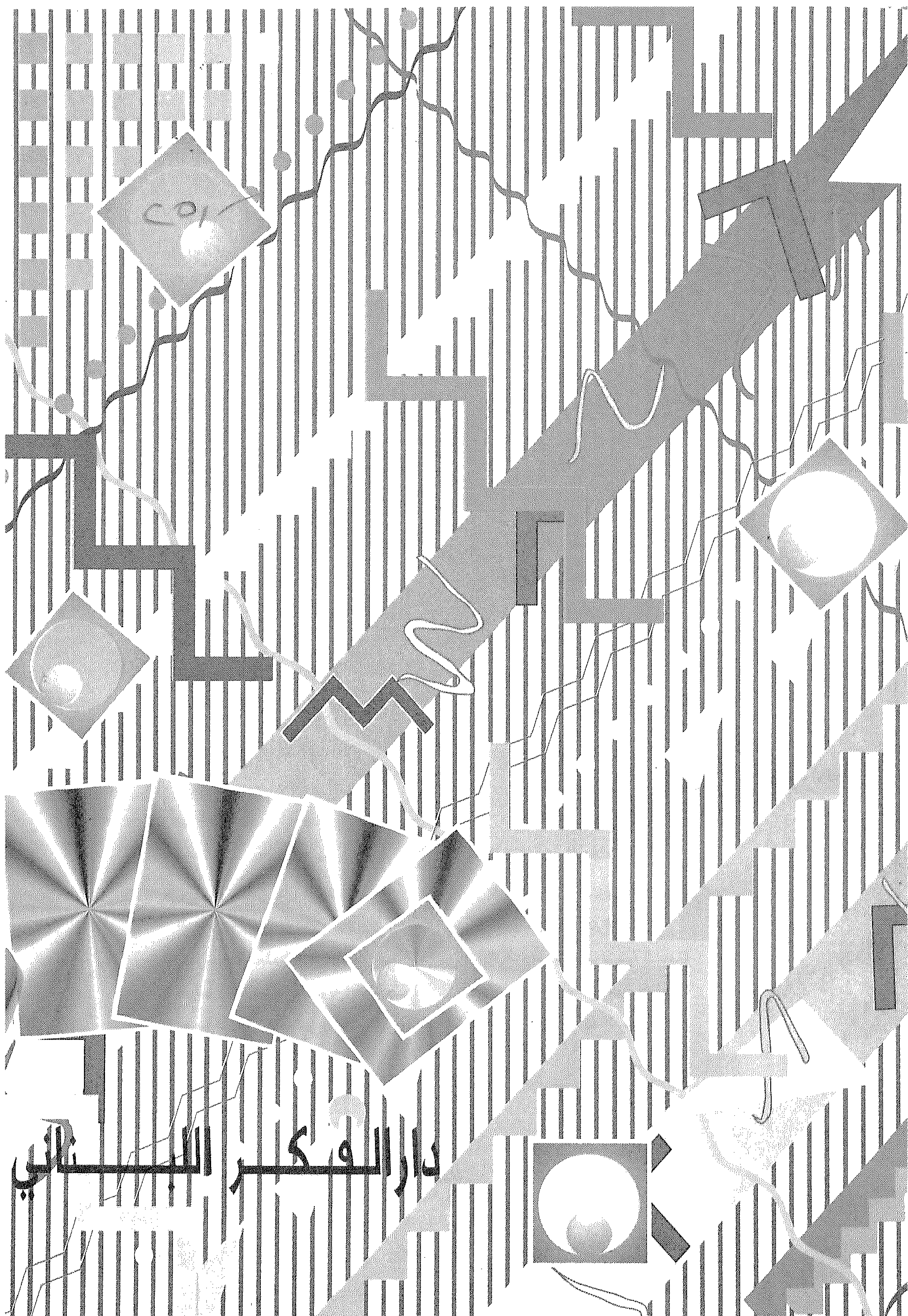
الأديان السماوية والوضعية

(٦)

الديانة المسيحية






دار الفكر اللبناني

موسوعات

الوافي بالمعلومات ١٩٩٥ - ١٩٩٦

* * * * *

الموسوعة العلمية الملونة

* موسوعة الثقافة العامة (ألف معلومة في كافة المجالات)
* موسوعة عالم الحيوان
* موسوعة عالم النبات
* موسوعة الفلك، الكون، البيئة والتلوث
* موسوعة جسم الإنسان
* موسوعة الطبيعة
* موسوعة العلوم
* موسوعة الجغرافيا
* موسوعة التاريخ
* موسوعة العباقرة والمشاهير

الموسوعات الأخرى

* موسوعة التعايش، اللغة، الجنس لدى الحيوانات
* الموسوعة العلمية
* موسوعة الأديان السماوية والوضعية
* موسوعة الأسماء العربية ومعانيها
* موسوعة الإملاء العربي
* موسوعة الحب والجمال والغزل
* موسوعة الاختراعات
* الموسوعة الموسيقية الشاملة
* موسوعة الشفاء دون دواء
* موسوعة الطب الشعبي


دار الفكر اللبناني
للطباعة والنشر والتوزيع

كورنيش بشارة الخوري - بناية تمارا
ص. ب : ٤٦٩٩ أو ١٤/٥٤٩٠
تلفون : ٦٤٤٤١٦ - ٦٣١٠٠٢ - ٦٣١٧٦٠
فاكس : ٦٣٠٧٥٧ - بيروت ، لبنان

الطبعة الأولى ١٩٩٥

موسوعة الأديان
السماوية والوضعية

الديانة المسيحية

تأليف: نهى نجار

دار الفكر اللبناني
بيروت

الاهداء

إلى من غرس في قلبي روح الإيمان بالله
إلى روح والدي الخالدة
إلى والدتي الحبيبة
أهدي هذا الكتاب
وفاءً وإخلاصاً

المقدمة

قيل «بقدر ما نُحْسِنُ فهم إيمان الآخر، نجيد فهم إيماننا» ـ وقيل أيضاً «الناس أعداء ما جهلوا» ـ فهل من سبيل إلى العيش بسلام مع الآخرين، وهل من مجال للتعاطف والتآخي، دون المعرفة المتبادلة؟

كُتب لِمجتمعات اليوم ـ وقد أضحى عالمنا نظير قرية صغيرة، أُلجِئ أهلُها إلى التنقُّل والارتحال، وإلى التعارف والاحترام المتبادَلين، على اختلاف جذورهم ولغاتهم ودياناتهم ـ كُتب لها أن تتعارف لتتآلف فتتحابب، فيكون لها الازدهار والبقاء.

إن موضوع هذا الكتاب الذي نتقدم به إلى القرّاء العرب هو بحث تمهيدي نوجز فيه العقيدة المسيحية في مختلف جوانبها وتعاليمها، بأسلوب موضوعي صرف. وما نودّ أن نوضحه بادىء ذي بدء، هو أننا لا نحاول في الصفحات الآتية هَدْيَ أحد ولا اقناع أيّ كان بأن المسيحية هي على حق، وأنّ أيّ ديانة أخرى هي على ضلال، ولا نبتغي الخوض في أيّ جدال، الغاية من هذا الكتاب هي عرض موضوعي لما نؤمن به نحن المسيحيين، وإيضاح الأسباب التي تدفعنا إلى التمسُك بهذا الإيمان، والطرق التي يدعونا الإيمان إلى سلوكها.

بيد أنه ينبغي الإقرار منذ البداية بأنني مسيحية مؤمنة، وبالتالي أؤمن بما يعلّمه المعتقد المسيحي، وكل إنسان مؤمن حقّ، مسيحياً كان أو مسلماً، يؤمن بأن دينه يأتيه الجواب الشامل عن القضايا الهامة في الحياة البشرية: من أين

جئنا؟ إلى أين نذهب؟ وكيف يجب أن نعيش على وجه الأرض؟

إن الوحي في اعتقاد المسيحيين كشفٌ عن الله في غَيْبِهِ الباطن ـ بمعنى أنه دعوة من الله للناس جميعاً إلى أن يشاركوه في حياته بوساطة المسيح، الذي اتحد فيه اللاهوت بالناسوت ـ في حين أن الوحي الإسلامي مثلاً، يقوم أساساً على تعاليم تتعلق بتوحيد الله في ذاته وصفاته، وعلى عقائد تحثّ الناس جميعاً على أن يتقيّدوا في حياتهم، بشرع ينظّمها ويجعل الله راضياً عنها، لأنها تكون حينئذ تحقيقاً لمشيئة الله تعالى المتفرّد بالألوهية. لكنه يمكننا في كلا الحالتين أن نعرّف مضمون الوحي الإسلامي ومضمون الوحي المسيحي، بأن كلاًّ منهما، في جوّه الفكري الخاص، عقيدة أو موقف إيماني قائم على التصديق الثابت بمجموعة من العقائد تحدّد للإنسان، مهما يكن دينه، علاقاته بالله، تحديداً شاملاً.

في ضوء هذا المنهج، مضينا بوضع هذا الكتاب، وهو عمل اقتباس مرتكز على المراجع الأصيلة المذكورة آنفاً. وقد أردناه تفسيراً موجزاً وواضحاً لأصول العقيدة المسيحية، حسب تصميم «قانون الإيمان» فعالجنا على التوالي:

١ ـ الكتاب المقدس والوحي والإلهام.

٢ ـ أصول العقيدة المسيحية

٣ ـ الاخلاق المسيحية والحياة الرهبانية.

٤ ـ الجماعة المسيحية وتطوّرها عبر التاريخ.

وقد صيغت لغة هذا الكتاب بعيدة عن لغة الاختصاص المفرط، قريبةً من متناول القارىء العربي، مسلماً كان أم مسيحياً، راجين أن تساهم هذه الأبحاث في تقريب القلوب من باب تقريب الأذهان، وما «الفضل إلاّ من عند الله».

على أنيّ لم أتفرد بهذا العمل انفراداً تاماً ـ بل كنت متضامنة مع أخِصّائيّين كبار في «علم اللاهوت» «والدين المقارَن». علاوةً على ذلك، فإني اعتبر من عظيم نِعَمِ الله عليّ أنيّ، طوال عقود منصرمة، عشت بين المسلمين، وأُتيح لي

دراسة «تاريخ الفكر العربي» «وعلم الكلام» على يدّ علاّمة مشاهير جعلوا شعارهم الجديد: «الناس أصدقاء ما علموا».

وكل ما أتمنّى هو أن يبدو هذا العمل محاولة صادقة مخلصة في التفاهم الودّي القائم على تبادل فكري أصيل، تتخلّله المحبة وتحييه. يذكر فيه المسيحي وصيّة دينه الأولى، وهي حبّ الله فوق كل شيء وحبّ الإنسان، أيًّا كان، على أنه أخوه في الله. ويذكر فيه المسلم بدوره ما ورد في كتابه من «إن الله خلق الناس من ذكر وأنثى، وجعلهم شعوباً وقبائل ليتعارفوا، وجعل أكرمهم عند الله أتقاهم».

حبذا لو ظلّت أفكارنا تتلاقى على التعاون والتعارف وما التوفيق إلاّ بالله.

نهى النجار
(١٤ أيلول ١٩٩٤)

الباب الأول
الكتاب المقدس: الإلهام والوحي

الفصل الأول

١ ـ ما هو الكتاب المقدس

نؤمن كمسيحيين بأن الكتاب المقدس هو كلمة الله المقدسة، كتبها رجال من عند الله، محمولون بإلهام من الروح القدس.

ولكن إيماننا هذا لا يعني أن الروح القدس قد محا الشخصية البشرية محواً تاماً، وإلاّ لما قيل «كتبها رجال الله»[١].

ولقد استمرت كتابة الكتاب المقدس قروناً طويلة، ودعا الروح القدس شخصيّات كثيرة، من بلاد عديدة، وتيّارات متباينة لكتابته.

كتب في ثلاث لغات: العبرية خاصة، والآرامية واليونانية في العهد القديم، واليونانية في العهد الجديد.

يقسم الكتاب المقدس المسيحي إلى قسمين متباينين في الحجم: العهد القديم والعهد الجديد. العهد القديم يكاد أن يكون مثل الكتاب المقدس اليهودي، وفيه ٤٦ سفراً، في حين أن العهد الجديد هو للمسيحيّين فقط، وفيه ٢٧ سفراً.

إذا نظر المسلم إلى الكتاب المقدس، تبيّن له أنّه يختلف جداً عن القرآن الكريم. فالقرآن كتاب واحد، نقلَهُ بلغة واحدة رجل واحد، خلال فترة واحدة

---

(١) بطرس ١ : ٢١.

من الزمن، وإنّ دامت ٢٢ عاماً. أما الكتاب المقدس، على عكس ذلك، فهو مجموعة من الكتب، (٧٣ سفراً) أُلِفّت أو جُمِعت بلغات مختلفة، طوال فترة زمنية دامت ١٥٠٠ سنة. وقام بهذه المهمّة الدقيقة عدد كبير من الكُتّاب الملهَمين، لم يحفظ لنا التاريخ أسماء الكثيرين منهم. لذا تعكس الأسفار تنوّعاً في الأساليب التاريخية، وما يُعرف بالفنون الأدبية.

وأهمّ الفنون الأدبية الواردة في الكتاب هي:

أ ـ الرواية التاريخية:

يساعدنا هذا الفن على فهم تاريخ الشعب وطريقة معيشته وتفكيره ـ طبعاً لم يبلغ هذا الفن التاريخ العلمي الموضوعي الحديث. فهو بدائي في سفر التكوين، وسياسي في سفر الملوك. وقد يغلب في بعض مقطوعاته النفَس الملحمي، بما فيه من صور تنبع من المعطيات الشعبية والروح الوطنية. وقد يأتي التاريخ كمجموعة أمثولات أخلاقية تقرّب هذا الفنّ من الفنّ التعليمي.

ب ـ القصيدة الشعرية:

يعبّر الفن الغنائي عن آمال الشعب وآلامه ومعاناته ـ ويأتي هذا التعبير بأسلوب شعري يلعب فيه الإيقاع دوراً كبيراً، يحمل القارىء على التأثّر لحزن أو لفرح أو لرجاء الكاتب والشعب الذي يمثّله ـ نجد هذا الفنّ في بعض مقاطع الأنبياء وفي سفر نشيد الأناشيد.. ويبلغ ذروته في سفر المزامير.

ج ـ التعليم الحكمي:

يقوم التعليم الحكمي بتقديم معطيات السلوك البشري بطريقة موزونة يسهل حِفْظُها، أو بإعطاء الحكم والأمثال التي تنبع من صميم الحياة والتجربة.. نجد هذا الفنّ خاصة في الكتب الحِكميَّة والأمثال.

د ـ الفنّ النبوي:

عرفت الشعوب القديمة النبيّ والرائي ـ قد يتكلّم النبيّ عن حياته وزمانه.

لكن خصائصه تتكوّن من أقوال يتلفّظ بها وأعمال يقوم بها، فيحضّ على الخير ويهدّد ويرشد ـ وإذا ما تكلّم عن المستقبل، فلا يخلو كلامه من غموض لا ينجلي إلاّ بعد أن تتحقق النبؤة ـ فعندما يتكلّم مثلاً إشعيا عن العذراء التي ستلد[1]، تبقى نبؤته غامضة إلى أن تتحقق بميلاد السيد المسيح. لذا كان هذا الفنّ قريباً من الشعر والخيال حيث تكثر الصور والرموز والتشابيه.

هـ ـ فنّ الرؤيا:

يقرب هذا الفن من النبوءة ـ وهو يبدو صعباً على مفاهيمنا الحالية. تكثر فيه الرموز والألغاز، وتتعلق أكثر مواضيعه بالأزمنة الأخيرة وعودة المسيح. مثال على ذلك رؤيا يوحنا.

و ـ فنّ الرسالة:

نجد هذا الفن في مجموعة رسائل بولس ويوحنا وبطرس ويعقوب ويهوذا ـ قد يكتب الرسول بنفسه أو بواسطة تلميذ يملي عليه أو يُفهمه ما يجب أن يكتب. يوجّه الرسول رسالته إلى كنيسة أو إلى مجموعة كنائس، أو إلى شخص فرد، يشرح فيها أهمّ العقائد والأمور الأخلاقية، ويحُضّ على الإيمان وممارسة الفضائل المسيحية.

---

(١) أشعيا ٧.

الفصل الثاني

٢ ـ الوحي والالهام في الكتاب المقدس

يقول المسيحيون بأن الكتاب المقدس كتبه الله بواسطة مؤلّفين من البشر، أي إن الله ألّف الكتاب المقدس بواسطة الهامات الروح القدس، دافعاً المؤلّفين البشر إلى الكتابة، بحيث عبّروا عن كلّ ما عناه الله دون سواه ـ إذ إن الوحي الإلهي هو الفعل الذي يكشف به الله للإنسان عن الحقائق التي تجاوز نطاق عقله.

فالله في المعتقد المسيحي هو المؤلّف الأخير للكتاب المقدس، إلاّ أنه ألّفه من خلال مؤلّف بشري كان عاملاً له تعالى. وهذا المؤلّف هو إنسان عاش في زمن معين وتأثر به، تقيّده حدود المعرفة واللغة التي تقيّد سائر البشر. وعلى وجه الإجمال، لا يقول المسيحيون بأن الله أملى الكتاب المقدس على المؤلّف البشري، بل أتاح له أن يعبّر عن الرسالة الإلهية بطرقه الخاصة وفنونه الأدبية الخاصة وأسلوبه الشخصي. وهم يميّزون بين بشارة الخلاص التي تُحمَل إلى البشرية وبين الشكل أو «الغلاف» التي تُقدَّم به هذه البشارة ـ وعليه يؤمن المسيحيون بأن تلك الرسالة هي من الله وبالتالي هي حق. أما الشكل فهو غير منوط بالله وحده، بل بعامل الله البشري أيضاً، أي بمحرّر الكتاب، وهو شأنه شأن جميع البشر، معرّض للخطأ ومحدود.

وقد يستعين المسيحيّون في دراساتهم الكتاب المقدس بالأساليب التاريخية والأدبية للوصول إلى الرسالة التي يريد الله أن ينقلها بواسطة العامل

البشري ـ وهذه الدراسات النقدية هي المحاولة والاجتهاد لانتزاع «الرسالة من الغلاف»، ولكشف ما يقوله الله في الكتاب المقدس.

في هذا الموقف من الوحي الإلهي يقوم أحد الاختلافات الأساسية بين الإسلام والمسيحية ـ ففي الإسلام، الوحي هو أمر الهي لا يتعلق فقط بالطقوس والشعائر والأوامر والنواهي، بل هو أيضاً يخلع نفسه على الوجود، فيصبغه بخصوصية معينة.

ويدعى أيضاً في الإسلام بالتنزيل، أي الهبوط من فوق إلى تحت ـ والتنزيل يُدلّ على مادة الوحي وموضوعه ـ وقد ورد في القرآن «**وما كان لبشر أن يكلمه الله إلاّ وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء، إنه عليم حكيم**﴾[1]. ﴿**وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً يهدي به من يشاء من عبادنا، وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم**»[2].

إذن، الوحي في الإسلام هو مُعطى منزّل، وهو أوّل لأنه إلهي، وفي ذلك لا يختلف هذا المفهوم في الإسلام عنه في المسيحية واليهودية. أمّا تعريف الوحي، فهو مختلف عند الديانات الثلاث. ففي الإسلام واليهودية، يُعرَّف الوحي بأنه أوامر الله ونواهيه تُوحى إلى الأنبياء بواسطة الملائكة ـ أما في المسيحية، فإن المسيح هو ابن الله، وهو الوحي المتجسّد مباشرة بين الناس دون وسيط من نبوّة أو ملائكة.

واعتبر المفسّرون المسلمون أن الوحي هو إلهام يقدّم نفسه إمّا على صورة إيحاء يثيره الله في روح إنسان ما من أجل أن يتيح له القبض على جوهر الرسالة الإلهية. وإمّا على هيئة عبارة لفظيّة متلبّسة بلغة بشرية عبر ملك أو ملائكة.

والقرآن عند المسلمين هو الذي يحمل خطاب الوحي وفيه يتضمن كل

(١) سورة الشورى، آية ٥١.
(٢) سورة الشورى، آية ٥٢.

شيء، بحيث تغدو النصوص المجموعة والمدوّنة، وهي في أساسها تلاوات شفهية، مُغلقة ونهائية بحيث لا نستطيع أن نضيف عليها شيئاً أو نحذف منها شيئاً. وبكلام آخر، لا يشير القرآن في نظر المسلمين، إلى أيّ عمل سواه، أو أي عمل يتعدّاه من أعمال الوحي الإلهي ـ فالقرآن هو وحي الله، الوحي بالذات. ورسالته، بواضح العبارة ونهائي الشكل، كاملة. والقرآن لا يبتغي الوصول بالمؤمنين إلى اختبار الوحي الإلهي في ما هو أبعد منه.

على كل حال، إن خطاب الوحي في الإسلام في أساسه، خطاب إلهي شفهي. أي إن الله كلّم الرسول بواسطة جبريل ـ أما في المسيحية فقد تجسّد الله في المسيح، ليكشف عن سرّ الله، ويعبّر على أكمل وجه، في حياته وشخصه، عمّا يريد الله أن يقوله للبشر ـ وعليه، فالمسيحيون يرون أن الكتاب المقدس يشير دوماً إلى ما هو أبعد منه ـ والذين كتبوا العهد الجديد كانوا أناساً حاولوا أن يبلّغوا معنى اختبارهم ليسوع الذي عاش وتألم ومات وأقامه الله من الأموات. وبالتالي، فهذه الشهادة البشرية هي من مقوّمات الكتب المقدسة المسيحية.

ويبدو أن مفهوم الوحي في الإسلام واليهودية متقاربان ـ ويختلفان عما هو في المسيحية.

وإذا كان الكتاب القرآن هو المتضمنّ للوحي، فإن اليهودية تعتبر التوراة هي أيضاً متضمّنة للوحي ـ أمّا المسيحية، فلا تعتبر نفسها دين كتاب، لأن المسيح هو التواصل الإلهي مع البشر ـ أما مدوّنات الأناجيل، فهي ما سمعه الحواريّون من كلام الله ـ فالمسيحية لا تكتفي بالقول إن الله يوحي إلى البشر رسالته، بل تقول أيضاً إن الله يوحي ذاته في تاريخ البشر، وأسفار الكتاب المقدس تعلن هذا الوحي الذاتي وتفسّره. الله يوحي مَن هو وأيّ إله هو ـ يوحي وصاياه الخُلقية ويوحي خاصة رغبته في الخلاص ـ فإذا بالكتاب المقدس تاريخ الله الذي يوحي ذاته مخلّصاً.

هذا وإن الإسلام والمسيحية على اتفاق عندما تعترف كل من الديانتين بأن جوهر الله خفيّ على البشر. فالله سبحانه هو من التنزه والعظمة بحيث لا يمكن

بني الإنسان فهم ذاته الداخلية ـ فهي بعيدة كل البعد عن إدراكنا ـ وجُلُّ ما نعرفه عن الله هو ما يقوله هو لنا ويُرينا إياه.

ومن ثم، فكما أن الحدث الأساسي في تاريخ البشر هو، عند اليهود، الخروج والعهد في جبل سيناء، وعند المسلمين وحيُ القرآن من خلال رسالة محمد، فإنه، في نظر المسيحيين، لمّا جعل الله رسالته الأزلية تتأنّس في الإنسان يسوع. هذا ما ندعوه التجسّد ـ ولما أقام يسوع من الموت إلى الحياة. وهذا ما ندعوه الفداء ـ سوف نرى ذلك لاحقاً ـ.

الفصل الثالث

٣ ـ العهد القديم والأسفار القانونية

الإصطلاحات والتمييز بين الأسفار:

إن كلمة «قانون» اليونانية تقابل كلمة «قاعدة» في العربية، وهي تحمل معنىً مجازياً يُراد به قاعدة للسلوك أو قاعدة للإيمان ـ فالكتاب يكون قانونياً إن اعتُرِف به كقاعدة إيمان، و«قانون» الكتب المقدسة هو مجموعة الكتب المعترف بها كقاعدة ايمان، وهي «القائمة الرسمية» التي تعدّها الكنيسة ملزمة للحياة والايمان. إذن، الأسفار القانونية هي مجموعة المؤلفات التي يُعتَرف بها كتباً مقدسة صحيحة.

فالقسم الأول من الكتاب المقدس، أي العهد القديم، مشترك بين اليهود والمسيحيين، ولكن مع بعض الفوارق. ففي أواخر القرن الأول للميلاد، لم يَعُد يهود فلسطين يعترفون رسمياً إلاّ باللائحة القصيرة التي تتضمن ٣٩ كتاباً ـ أمّا يهود الاسكندرية (La Diaspora) فيعترفون بكتب أخرى تُرجمت إلى اليونانية، أو وُضِعَت فيها.

والمسيحيون الذين كانوا يطالعون الكتاب المقدس باليونانية، تبنّوا قانون يهود الاسكندرية. غير أن القديس هيرونيمس (Jĕrome) وهو من ترجم الكتاب المقدس إلى اللاتينية في أوائل القرن الخامس، كان يميل إلى القانون العبري.

وفي أثناء الحركة التي حصلت في القرن السادس عشر، كان المصلحون (البروتستانت) أشدّ ميلاً إلى اتباع النسخة العبرية ـ فأخذوا يطبعون الكتب

المتنازَع عليها في ذيل الكتاب المقدس ويطلقون عليها صفة «المنحولة». أما باقي المسيحيين، فإنهم يلقبونها «بالقانونية الثانية» لأنها وصلت إليهم مدوّنة في اللغة اليونانية، بينما كانت الأسفار «القانونية الأولى» مدوّنة في اللغة العبريّة.

إذن، لدى الكنيسة، من العهد القديم، نسختان:

- النسخة العبرية، وتتكون من ٣٩ سفراً.
- والنسخة اليونانية، المعروفة بـ«السبعينية» (La Septante) وتتضمن ٤٦ سفراً.

أما القسم الثاني من الكتاب المقدس، وهو العهد الجديد، فلا خلاف بين المسيحيين في شأن نصه، إذ إنهم على اختلاف انتمائهم، يعترفون بصحة جميع الكتب السبعة والعشرين التي يتألف منها العهد الجديد.

العهد القديم:

يشكّل العهد القديم جزءاً من الكتاب المقدس. وهو بالتالي كلمة الله.

قال المجمع المسكوني الثاني: «تعتبر أمُّنا الكنيسة المقدسة، بفضل الايمان الذي استلمته من الرسل، إن كتب العهد القديم والعهد الجديد كلّها بجميع أجزائها مقدّسة وقانونية، لأن تلك الأسفار كُتِبت بإلهام الروح القدس... وسُلِّمت كما هي عليه إلى الكنيسة نفسها»[1]. من أجل هذا يقرأ المسيحيون أسفار العهد القديم التي من أصل يهودي قراءة مسيحية، أي على ضوء حياة المسيح وتعليمه ـ وهنا يضيف المجمع المسكوني الثاني قوله: «فالله الذي ألهم أسفار العهدين، قد رتّب الأمور بحكمته، كي يحتجب الجديدُ في القديم، ويتضح القديم في الجديد ـ فمع أن المسيح قد أسس في دمه العهد الجديد، غير أن أسفار العهد القديم كلها، وقد تبنّتها البشارة الانجيلية، تكسب كامل معناها وتظهره في العهد الجديد ـ وهي بدورها تنيره وتشرحه»[2].

(١) الوحي الإلهي ١١.
(٢) الوحي الإلهي ١٦.

يقسم العهد القديم حسب التصنيف اليهودي إلى ثلاثة أقسام ـ هي التوراة، والأنبياء وكتب الحكمة. وقد ورد لهذه الأجزاء ذكر في العهد الجديد[1] ـ ويوافق هذا التقسيم تقريباً تعاقب نشأة المجموعات الثلاث الكبرى من حيث الزمان ـ وقد استبدلته الكنيسة الكاثوليكية منذ القرن الثالث عشر بتصنيف آخر وفقاً لمحتويات الأسفار[2].

٣ ـ ١ ـ التوراة:

تتألف المجموعة الأولى، وهي التوراة، أي الشريعة، من كتاب في أسفار خمسة، سُمّيَتْ أسفار موسى، لأنها نُسِبَت إلى موسى كليم الله. وهي: سفر التكوين وسفر الخروج وسفر اللاويين أو الأحبار وسفر العدد وسفر التثنية أو تثنية الاشتراع.

٣ ـ ١ ـ ١ ـ سفر التكوين:

يروي لنا سفر التكوين، وهو أول أسفار العهد القديم، كيف نشأ العالم وكيف بدأ عمل الله في البشرية. فيه نطالع كيف خلق الله العالم من العدم، وكيف خُلِق آدم ثم وقع في الخطيئة، فحُرِم من جنة عدن، وتحتّم عليه أن يعيش في الألم والخجل والشقاق. وحاولت البشرية أن تؤلّف وحدتها. فلم تفلح. لكن الله الذي خلق الكون والإنسان، عرّف عن نفسه لآباء الشعب وحقق تجمّع البشر الحقيقي. فخلّص نوحاً من الطوفان، ودعا إبراهيم ليبارك بواسطته جميع الأمم. وخرج إبراهيم من أرض أجداده، ونزل أرض فلسطين، متنقلاً من مكان إلى مكان، ومن مقدس إلى مقدس. ونال بركات الله، وكان عربونها مولد اسماعيل وإسحق. وفي هذا السفر أيضاً روايات تتعلّق بيعقوب وعيسو، فيوسف وأخوته، وحلول الشعب العبراني في ديار مصر ـ وعليه فإن هذا السفر

---

(١) لوقا ٢٤ : ٢٧.

(٢) قد يكون التصنيف اليهودي أكثر واقعية. فهو يراعي المراحل الراهنة التي عملت على نشأة المجموعات.

يفتتح تاريخاً يستمر إلى اليوم، ويهمّ، لا الشعب اليهودي وكنيسة المسيح فقط، بل البشرية كلها أيضاً.

٣ ـ ١ ـ ٢ ـ سفر الخروج:

أما سفر الخروج، وهو السفر الثاني في التوراة، فسُمِي كذلك لأنه يروي في قسمه الأول خروج العبرانيين من مصر على يد موسى. وهو يشمل سيرة موسى الكليم، خاصة سماعَه الصوت يخاطبه في العلّيقة الملتهبة ويقلّده الرسالة والنبوة ـ ويتضمّن هذا السفر تكملة الخبر الذي بدأ في سفر التكوين. انطلق من بعد موت يوسف في مصر، ووصل بنا إلى إقامة «خيمة الاجتماع» على يد موسى في برّية سيناء.

ولكن منذ الصفحة الأولى من سفر الخروج، تبدو الحالة مختلفة عما كانت عليه في سفر التكوين. فأيام يوسف صارت بعيدة. وقام في مصر ملك لا يعرف يوسف. وبيت يعقوب تكاثروا جداً، فخاف منهم الفرعون وجعلهم عبيداً له ـ هذا الشعب سيحررّه الرب، ويُخرجه من أرض مصر، ويقوده عبر البرية إلى جبل سيناء، ويقطع معه عهداً ويعطيه الوصايا العشر، ومجموعة من الشرائع الدينية والأخلاقية والاجتماعية والعبادية.

وصف الشرّاح سفر الخروج بأنه «انجيل العهد القديم» بمعنى أنه يورد «خبراً سارّاً»، هو تدخل الله في وجود جماعة من البشر، ليلِدَهم إلى الحرية ويجمعهم في شعب مقدس. فالخلاص من عبودية مصر، والعهد في سيناء، وعطيّة الشريعة، كل هذا يشكل أحداثاً ستظل عالقة في ذاكرة الشعب، لأنها تفسّر اختيار الله لهم، والايمان التوحيدي الذي يعيشونه، والباعث الذي يدفعهم ليكونوا أمناء الله.

٣ ـ ١ ـ ٣ ـ سفر اللاويين:

سبق وقلنا إن سفر الخروج ينتهي ببناء «خيمة الموعد»، فيعترف الرب بمطابقتها لما أمر به، ويأتي فيحلّ في الغمام.

والكلمات الأولى في سفر اللاويين تعبّر، على طريقتها الخاصة، عن هذا الاعتراف، وذلك بأن الرب، بعد أن كلّم موسى في جبل سيناء خاصة، أخذ يخاطبه الآن في «خيمة الموعد»[1] ـ فسيبلّغ الرب شعبه، في هذا السفر، فرائضه وأحكامه، «لأن من حفظها يحيا بها»[2]. وبعبارة أخرى، سيُطلعهم على حسن استعمال تلك «الخيمة» لتكون في الحقيقة مكان «موعد»، إذ لا يَحسنُ أن يعترض هذا اللقاء الحيوي خطأٌ في ممارسات العبادة، أو نجاسة مادية، أو مخالفة أخلاقية. ولذلك يوصف كل شيء بدقة بالغة.

غير أن سفر اللاويين لا يتناول إلاّ بعض وجوه العبادة، فإن أردنا أن نعرف ما هي الصلوات والأناشيد التي كانت ترافق هذه الطقوس الدينية، قد يكون سفر المزامير ذاك الكتاب الذي يدلّنا عليها. ومن جهة أخرى، كان الفضل للأنبياء والحكماء في تذكير اسرائيل بأن ممارسة الطقوس الدينية لا تكفي لنيل الخلاص، وما يبتغيه سفر اللاويين من المؤمنين هو وَعْيُهم بأن الاتحاد بالله الحيّ أصدقُ ما يمتاز به الإنسان.

٣ ـ ١ ـ ٤ ـ سفر العدد:

سفر العدد هو رابع كتب موسى الخمسة، يتبع ويكمّل سفر الخروج.

موضوعه اثنان: الأول يصف شعب التوراة في مراحل مسيرته صوب الأرض المقدسة، عبر برّية سيناء، حيث يجول فيها مدة أربعين سنة. انطلاقاً من جبل حوريب المقدس، ووصولاً إلى برية موآب مقابل أريحا. والثاني هو إعطاء هذا الشعب مزيداً من الشرائع والرسوم، تكمّل الشريعة الأولى المعطاة على جبل حوريب، في سفر الخروج، وتهيّىء الشعب للدخول إلى الأرض المقدسة.

يعكس إذن هذا السفر التعليم اليهودي بعد الجلاء، حيث لم يعد بنو

---

(١) سفر اللاويين ١ : ١.

(٢) سفر اللاويين ١٨ : ٥.

اسرائيل أمة سياسية، بل جماعة مقدسة تسير إلى لقاء ربّها.

سمّي بهذا الاسم نظراً إلى الاحصاءات التي هي موضوع الفصول الأولى ـ وهو أشدّ أسفار التوراة تعقيداً.

٣ ـ ١ ـ ٥ ـ سفر تثنية الاشتراع:

خامس كتب التوراة هو تثنية الاشتراع، أي «الشريعة الثانية». ذلك بأن السفر يروي مرة ثانية الكثير من الأخبار التي جاء ذكرها في الأسفار السابقة. كما أنه يعود، فيعرض لشرائع التوراة وشعائرها، في إطار خطبة يتلوها موسى[١] على الشعب في جبل موآب الذي يقع شرقي البحر الميّت.

بَحَثَ موسى عن سيب المنفى، فوجده في خيانة الشعب لربه ـ لهذا دعا الشعب إلى تبديل حياته والعودة إلى الأمانة، كي ينعم من جديد بالبركات التي حلّت على آبائه.

وهناك آية رائعة، لا بد من ذكرها هنا، حيث تبدو لنا كمُلَخَّص لمواضيع هذا السفر الأساسية، من سرّ الله الواحد، واختيار شعب في مسيرة تاريخه المتّصلة، ومتطلّبات عملٍ يشمل جميع مستويات الحياة، ألا وهي: «الخفايا للربّ الهنا، والمُعْلَنات لنا ولبنينا للأبد، لكي نعمل بجميع كلمات هذه الشريعة»[٢].

ويقول العلماء إن هذا السفر وُضِعَ عَقِب حركة تصحيح قامت بين اليهود في زمن الملك يوشيّا والنبي إرمْيا (القرن السابع ق.م). فالشعب اليهودي كان

(١) يبدو سفر التثنية بشكل خطب يلقيها موسى على جبل موآب. إلاّ أن كاتب هذا السفر عاش مئات السنين بعد موت موسى. وقد جعل كلامه في فم موسى ليملأ المؤمنين رهبة أمام كلام الله. راجع بولس الفغالي. «القراءة المسيحية للعهد القديم»، دراسات بيبلية رقم ١٠ ـ ص ٦٣.

(٢) تثنية ٢٩ : ٢٨.

آنذاك، إلى جانب عبادته الإله الحق، منصرفاً إلى ممارسات مشوبة بالشرك راجت في الكثير من المعابد عبر البلاد ـ ممّا يفسّر تشديد تثنية الاشتراع على نبذ عبادة الأوثان بأنواعها، وعلى دعوة الشعب إلى العدول عن غيّهم والرجوع إلى خدمة الله الحق وحده.

٣ ـ ٢ ـ الأسفار النبوية:

تتألف المجموعة الثانية، في العهد القديم، وهي «الأنبياء» من سلسلتين متباينين:

٣ ـ ٢ ـ ـ١ ـ السلسلة الأولى:

تضمّ هذه السلسلة أكثر الكتب المعروفة بالتاريخية، أو بالأسفار النبوية الأولى، وهي تختلف عن الأنبياء كل الاختلاف. ومع ذلك، فالحقبة التاريخية التي تسرد هذه الأسفار حوادثها، إنما هي الحقبة التي نمت فيها الحركة النبوية بنوع خاص، والتي تمتدّ من الدخول إلى كنعان حتى جلاء بابل، وقد تكون صادرة من الحلقات الأدبية التي يجب ربطها بالنبوية.

فسفر يشوع وبعده سفر القضاة يواصلان بيُسر، بموضوعهما وانشائهما، كتب التوراة الخمسة، إلاّ أنهما يقتصران على التاريخ دون سواه. فيروي الأول عبور الأردن ووقائع الدخول إلى أرض كنعان على يد القبائل اليهودية، ويصف الآخر خضوع تلك القبائل لحكم القضاة لا سيما صموئيل وشاوُل.

ويلي ذلك تدوين أخبار مملكتي داود وسليمان، فأخبار النبيَّيْن إيليا وأليشاع، فما حدث بعد ذلك حتى جلاء اليهود إلى بابل في أواخر القرن السادس ق.م. هذا ما جاء في سفرَيْ صموئيل والملوك.

٣ ـ ٢ ـ ـ٢ ـ السلسلة الثانية:

أما السلسلة **الثانية**، فهي تضمّ كتب «كبار الأنبياء، وهم أشعيا وأرميا وحزقيال. دُعوا هكذا لأن أسفارهم كبيرة الحجم. «وصغار» الأنبياء الاثني عشر

وهم: هوشع ويوئيل وعاوس ويونان وعوبَدْيا، وميخا ونحوم وحبقوق وصفينا وحجّاي، وزكريا وملاخي ـ أسفارهم أصغر حجماً، ولكنها لا تقلّ أهمية عن الكبيرة.

والنبي ليس أوّلاً ذلك الذي يتنبأ ويخبر بالغيب ـ إنه ذلك المُخبر عن الله، المتكلّم عن الله، وباسم الله.

وقد عُرِف في العهد القديم نوعان من الأنبياء ـ بعضهم، مثل صموئيل وناتان وإيليا وأليشاع، حملوا رسالة شفهية، واجترحوا في بعض الأحيان، وبإذن الله، معجزات، على نحو ما فعل إيليا وأليشاع. وبعضهم الآخر ترك لنا أثراً مكتوباً، إذ كان لهم تلامذة أو مستمعون يحررّون بالكتابة ما يلقيه الأنبياء بالمشافهة.

٣ ـ ٢ ـ ـ٣ ـ رسالة الأنبياء:

دُعي الأنبياء في بعض الأحيان «ضمير اسرائيل» لأنهم انتقدوا بشدّة خطايا الشعب ومعاصيه، لا سيما انصرافه إلى الشرك والنِفاق في الدين. وقد وجهّوا اهتماماً خاصاً إلى ما قد نسميه اليوم «الخُلُقية الاجتماعية» ـ فراحوا يقرّعون بقساوة الاغنياء الممتنعين عن مساعدة الفقراء. ويبكّتون القُضاة الحاكِمين بالزور، المسايرين الأقوياء على حساب حقوق الضعفاء. ويعنِفّون رجال الدين العابثين بتعاليم الله في سبيل مصالحهم الخاصة. وينددّون بقساوة الذين يقهرون اليتامى والأرامل والغرباء.

وعكس مضمون النبؤات شخصية الأنبياء وتأثر بها ـ فعاموس وإرميا عنيفان ـ لذلك اتسمت تنديداتهما بالقساوة البالغة والتهديد ـ واشعيا وحزقيال كانا يُخطفان بالروح ويريان الرؤى، فينقلانها إلى الشعب رسائل أوحى بها الله.

يحدثنا اشعيا عن إله العهد الذي هو الإله القدوس والذي يطلب من شعبه القداسة. وهذا يفترض إيماناً لا يتزعزع وممارسة العدالة والمحبة. أما حزقيال فتنبأ في أرض بابل، وحدّثنا عن المسؤولية الفردية وعن مجانية الخلاص ثم عن

رجوع المنفيين إلى الأرض المقدسة ليكونوا شعب الله الجديد.

ولقد اهتم الأنبياء بالغ الاهتمام بمن عُرِفوا بـ «العناويم»، وهم جمهور الاتقياء الفقراء، المحتقرين، المستَضْعفين المظلومين في الأرض. من هؤلاء المؤمنين المتواضعين، تلك «البقية» من الشعب التي ظلّت مخلِصة لله، طائعة له في السرّاء والضرّاء، سيكوّن الله، سبحانه وتعالى، شعباً جديداً ـ هذا وقد اضطُهِدَ بعضهم، مثل أرميا، لتحدّيهم قادة الشعب الظالمين.

لقد ساهم الأنبياء في صنع التاريخ لأنه تاريخ الله، وسعوا إلى تطوير الأحداث وقلب المفاهيم لأن الشعب هو شعب الله. فهم من المجتمع واليه. ولم يكن بوسعهم أن يتكلموا عن الله وباسم الله دون الكلام عن الناس ومشاكلهم، لأنّ الله في قلب كل إنسان وكل إنسان في قلب الله.

٣ ـ ٢ ـ ـ٤ ـ قصص الأنبياء مشتركة بين التوراة والانجيل والقرآن:

والجدير بالذكر هنا هو أن قصص الأنبياء مشتركة بين التوراة والانجيل والقرآن، وكأن القرآن جاء ترجمة عربية لقصص الأنبياء الواردة بالعبرية والآرامية والسريانية في التوراة والانجيل. فسورة يوسف مثلاً تبدأ بالقول التالي: **﴿تلك آيات الكتاب المُبين ـ إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلّكم تعقلون ـ نحن نقصّ عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن، وإن كنت من قَبْلِه من الغافلين﴾**. ثم تُروى قصة يوسف بن يعقوب كما يرويها سفر التكوين في الفصل ٣٧. ونقرأ أيضاً في مختلف الكتب قصص آدم ونوح وإبراهيم ولوط وإسحق وإسماعيل ويعقوب وداود وسليمان وأيوب ويونس وزكريا والياس وأليشع ويحيى.

كل هذه القصص المشتركة في جوهرها، وإن اختلفَت في تفاصيلها، تشير إلى علاقة الله الدائمة بالإنسان في تاريخ الخلاص. وفي كل هؤلاء الأنبياء

أسوةٌ نبوية كبيرة معروضة على المؤمنين من المسيحية والإسلام للتأمّل والتشبّه[1].

٣ ـ ٣ ـ كتب الحكمة:

تسمّى أسفار أيوب والأمثال والجامعة وابن سيراخ والحكمة كتباً حَكميّة ـ ويُضاف إليها كتابان شعريان هما سفر المزامير وسفر نشيد الأناشيد ـ وهذه الكتب هي المجموعة الثالثة والأخيرة من مجموعات العهد القديم.

يقدّم لنا سفر أيوب وهو من كتب الحكمة المهمة، نظرة المؤمن إلى الله عبر المحنة التي يعانيها ـ وهو يروي قصة شيخ عربي ميسور وتقي، تحلّ به سلسلة من المصائب الشخصية، فيفقد ماله وأسرته وصحته. والكتاب دراسة لمشكلة الخير والشر وهو تأمل في الألم يحتمله الإنسان، ولا يفهم معنى الشر الذي يضايقه. وهو أكثر من هذا. إنه تأمل في طرق الله في تعامله مع البشر، وتساؤلٌ عن موقف الإنسان أمام الله القدير. سيعيش أيوب الضياع، ومن خلال ضيقه، سيصل إلى نكران صورة الله وإلى طرح مناقشة حول رجاء البار العائش في الضيق، وحول معنى الحياة التي تنتهي بالموت ـ ولن يخرج أيوب من هذا الجهاد الطويل والقاسي الذي يعيشه ليجد ربه إلاّ بفعل إيمان يجعله يتعدى عالم البشر ليرتمي في حضن الله.

ونجد في سفر الأمثال سلسلة من الأقوال المأثورة تعود إلى سليمان الحكيم وغيره من الملوك.

ويتمحور سفر الجامعة حول هذه العبارة: «باطل الأباطيل وكل شيء تحت الشمس باطل». على المؤمن أن يتقي الله ويحفظ وصاياه.

ويحدثنا ابن سيراخ عن حياة المؤمن في أمثال هي امتداد وتوسّع لما نقرأه في سفر الأمثال.

---

(١) راجع المطران سليم بسترس، العلاقات المسيحية الإسلامية. ص ١٦ عن المسّرة ٧٩ (١٩٩٣).

أما سفر الحكمة، فيصوّر لنا عقاب الخاطىء ورجاء البارّ. ويطبّق هذا المبدأ على شعب اسرائيل في زمن الخروج.

وأشهر تلك الأسفار وأجملها سفر المزامير ـ وهو مجموعة صلوات الشكر والتوسل والمديح التي تلاها الشعب اليهودي ولا يزال يتلوها المسيحيون في صلاتهم. تحتوي هذه المجموعة على ١٥٠ مزموراً منظومة بكاملها بصيغة أبيات شعرية ـ فمنها التسابيح وصلوات الاستغاثة والثقة والحمد ـ وتتناول هذه الصلوات تسبيح الرب القدير والعادل والمُحسِن المُطلق ـ ومزامير الاستغاثة، فردية كانت أم جماعية، تحتوي أربعة عناصر: دُعاء باسم الله تليه صرخة توسّل، ثم عرضٌ للأوضاع، ثم ابتهال، ثم يقين بالاستجابة.

كان سفر المزامير بمثابة «كتاب الصلاة» لليهود على مدى القرون، وبه صلّى يسوع وتلاميذه، وبه ما زال المسيحيون يصلّون ـ ويلتقي الرهبان والراهبات في الأديرة سبع مرّات كل يوم لتلاوة المزامير جهاراً.

وفي نهاية كلامنا عن كتب الحكمة، نذكر سفر نشيد الأناشيد وهو عبارة عن مجموعة من الأغاني اليهودية الخاصة بالأعراس، تمتدح الحبّ البشري وتعتبره امراً رائعاً سامياً وهبةً من أجود هبات الله. ويعلّمنا هذا السفر أن الحب البشري يمكن اعتباره رمزاً لما يكنّه الله للإنسانية من حبّ.

٣ ـ ٤ ـ العهد القديم مقدمة إلى العهد الجديد:

ظل الشعب العبراني أجيالاً يتأمل في ما يصل إليه من كلام بلسان الآباء والأنبياء والمعلمين، فاستعدّ لقبول كلام المسيح. هناك توق إلى المسيح، ابن داود، ابن الله، ابن الإنسان، العبد المتألم. وكما أن الرب درّب شعبه أجيالاً وأجيالاً قبل أن يُخبرَهم عن ملكوت الله في المسيح، فإنه لا يزال يدرّب المسيحيين، ليدخلوا في ملء انجيل المسيح.

إن العهد القديم هو قمة مسيرة الانسان على دروب الله، وزمن العهد القديم هو زمن الوعد وزمن الانتظار. فنصوص الأنبياء والمزامير تُعلن البشرى.

وسيأتي الربّ في ملكه، ويمنح السعادة للمساكين، لن يعود هناك شرٌّ ولا ظلم ولا ألم ولا موت.

انتظر اليهود مسيحاً يؤسّس ملكوت الله بنفسه مرة واحدة. وتعرّف المسيحيون إلى هذا المسيح في شخص يسوع - ومجيء المسيح لم يلغِ هذا الانتظار، بل قوّى الرجاء. وهكذا فالوعد الذي يتضمنه العهد القديم يبقى المخطط الذي حققه يسوع المسيح والذي سيحققه البشر بفعل الروح القدس.

الفصل الرابع

٤ ـ العهد الجديد والأسفار القانونية

سبق وقلنا إن الكتاب المقدس يتألف من قسمين: العهد القديم والعهد الجديد.

إذا كان موضوع العهد القديم هو الميثاق الذي قطعه الله مع شعبه على يد موسى في جبل سيناء، فموضوع العهد الجديد هو الميثاق الذي قطعه الله مع البشر جميعاً في يسوع المسيح. وهذا يعني أن الإيمان بيسوع المسيح يخلّص الإنسان من خطيئته، ويمنحه حياة جديدة ملؤها القداسة والتقوى.

قلنا أيضاً إن العهد الجديد يتضمن ٢٧ كتاباً، وهي وقفٌ على المسيحيين وحدهم ـ فالأسفار الأربعة الأولى هي الأناجيل التي تورد سيرة حياة يسوع المسيح وتعاليمه ـ ويليها كتاب «أعمال الرسل»، وهو يتحدث عن إنشاء الكنيسة، وانتشارها في حوض البحر المتوسط حتى رومة ـ ويلي كتاب «أعمال الرسل» عدّة «رسائل» دوّنها الرسول بولس وسواه من اتباع المسيح إلى بعض الكنائس والمؤمنين. وهي تحتوي توصيات خاصة بالإيمان المسيحي، وتحذيراً من الوقوع في الخطأ والضلال، وأمثلة على عظمة عمل المحبة في العالم. ويُختتم العهد الجديد بكتاب «رؤيا يوحنا».

كُتِب العهد الجديد في مدة لا تتعدى المئة من السنين، وباللغة اليونانية التي كانت، في أيام المسيح، اللغة الأدبية والتجارية السائدة في فلسطين.

وهناك ترجمات قديمة للعهد الجديد ـ نذكر منها الترجمة السريانية

والقبطية واللاتينية، يعود إليها أصحاب الاختصاص ـ أما أقدم النصوص اليونانية، فتعود إلى القرن الثاني بعد المسيح.

٤ ـ ١ ـ الأناجيل:

الكتب الأربعة الأولى من كتب العهد الجديد تدعى الأناجيل ـ وكلمة انجيل مشتقة من اللفظة اليونانية «ايوانجليون»، وتعني «البشرى» أي الخبر السارّ. وهي تشير إلى بشارة يسوع المسيح بخلاص البشر من الخطيئة والموت. وهذا الفن من الفنون الأدبية المُلْهَم خاصّ بالمسيحية دون سواها.

فكلّ من الأناجيل هو، في الأساس، إعلانُ إيمانٍ بالمسيح القائم من الأموات. وهو يهدف إلى إظهار ما تعنيه حياة يسوع للمؤمنين.

ويبدو يسوع في الأناجيل على أنه:

١ ـ تمّم انتظار العهد القديم لمجيء المسيح.

٢ ـ وحمل وحي الله.

٣ ـ وبرهن على أن الله يريد خلاص البشرية وهو قادر على ذلك.

٤ ـ وأسس الكنيسة التي بدأت مع جماعة من التلاميذ، عُرِفوا بالحواريين.

وقد سبق الأناجيل المكتوبة تقليد شفهي. فقد جاء المسيح، وبلّغ الناس تعاليمه، وصنع المعجزات، وغفر الخطايا، ومات وقام.. ولم يدوّن شيئاً ـ وحفظ التلاميذ والرسل كل ذلك في حافظتهم وقلوبهم بصورة لا تُمّحى. وأخذوا بدورهم ينقلون مشافهة ما رأوا وسمعوا ولَمَسوا من كلمة الحياة، إذ كانوا شهود عيان ـ ثم شرع قسم منهم يدوّن بعض تعاليم يسوع في وقت مبكر. كلٌّ من زاويته الخاصة ـ إلاّ أن هذا التدوين النهائي للمواد التي تناقلها الرسل مشافهة لم يتمّ إلا بين سنة ٧٠ و ٩٥ ـ فابتدأ بالتدوين مرقس، وتبعه متى ثم لوقا ـ أما يوحنا فكتب انجيله نحو نهاية القرن الأول.

٤ ـ ١ ـ ١ ـ انجيل متى :

أول الأناجيل في لائحة أسفار العهد الجديد هو انجيل متى ـ ومن الراجح أن متى كتب في سورية، في حوالي الثمانينات، لمسيحيّين من أصل يهودي ـ عُرف متى باسم آخر هو لاوي. وكان عشاراً يجمع العشور أي الضرائب في كفرناحوم. ولمّا دعاه يسوع لكي يصير من اتباعه، أقام للمعلّم مأدبة فاخرة ـ وأصبح أحد الرسل الاثني عشر.

بشّر متى يهود فلسطين وذهب إلى بلاد العرب حيث بلغ الحبشة ـ أمّا اللغة التي كتب فيها انجيله، فالأرامية، وهي يومئذ لغة التخاطب لدى اليهود، واللغة التي تحدّث بها يسوع إلى الناس. ونقل المسيحيّون الأولون انجيل متى إلى اليونانية، ثم فُقِد النص الآرامي، وبقيت الترجمة اليونانية ـ وهي المتداولة في يومنا هذا.

وقد عُنِي متى في انجيله بأن يبرهن لليهود أن يسوع هو المسيح المنتظر ابن داود، إذ تمت فيه جميع نبؤات العهد القديم، وانه ابن الله الحيّ، ومؤسس الكنيسة.

إذن، تعلن بشارة القديس متى أن يسوع هو المخلّص الذي وعد الله به شعبه في العهد القديم، وبشارته هذه لا تقتصر على الشعب اليهودي الذي وُلد يسوع وعاش بينه، بل تتعدّاه إلى العالم كلّه.

ويتّصف أسلوب القديس متى بحسن التبويب، فيبدأ بميلاد يسوع وينتهي بصلبه وقيامته، مروراً بمعموديته وتجربته على يد ابليس، وشفائه المرضى في الجليل، وصعوده من الجليل إلى أورشليم، «حيث تألم ومات وقُبِر وقام».

ومما عُني به القديس متى عناية خاصة اظهار يسوع على أنه «المعلّم الأعظم» وموسى الجديد. وهو حريص على أن يجعل التلاميذ يفهمون ما يؤمنون به ـ من هنا تلك الخُطب الكبرى الخمس والإكثار من أقوال يسوع «فالله معنا» الذي بُشِّرَ به يوسف سيبقى حاضِراً للمؤمنين إلى نهاية العالم كان يسوع

معلّماً على الأرض ولا يزال معلّماً عن يد تلاميذه، له السلطة التامة التي نالها من الله وهو في الحقيقة المسيح الذي ينتظره اليهود جاء يبشّر بملكوت الله فكان انجيل متى انجيل هذا الملكوت.

٤ ـ ١ ـ ٢ ـ انجيل مرقس:

دلّت الدراسات الحديثة على أن مرقس دوّن انجيله باللغة اليونانية حوالي السنة ٧٠ م. هذا يعني أن هذا الإنجيل هو أقدم الأناجيل. لم يكن مرقس أحد رسل يسوع الاثني عشر، بل كان تلميذ بطرس ـ ومنه استقى جميع معلوماته عن يسوع. وحرص أن ينقل بأمانة ودقة كلّ ما عرفه وسمعه من بطرس في انطاكية ورومة. ورد ذكرُ مرقس في أعمال الرسل(١)، وفي إحدى رسائل بولس(٢) وفي رسالة بطرس الأولى(٣) ـ وبما أن بُطرس بشّر الوثنيين بالإله الحقيقي، فقد كانت الفكرة الأساسية التي يدور عليها انجيل مرقس الشهادة ليسوع بأنه المسيح ابن الله.

من هنا جاء هدف كتابه واضحاً منذ السطر الأول من الإنجيل: «بشارة يسوع المسيح ابن الله» ولا يلبث أن يسمّي انجيله «بشارة الله»، أو «البشارة» وحسب. فالمسيح «ابن الله» يتجلّى في تعليمه، وسلطانه على الأرواح الشريرة، وغفرانه لخطايا البشر. هو رجل صاحب سلطان وهو أيضاً ابن الإنسان الذي جاء ليبذل نفسه فدية عن خطايا البشر.

ويروي مرقس سيرة يسوع بأسلوب موجز صادق، فيركّز على أعمال يسوع أكثر مما يركز على أقواله وتعاليمه. فنرى يسوع يناهض الأبالسة ويطردها من الناس، ويغفر للخطأة، ويجترح المعجزات، كما أن مرقس يشدّد على أن المسيح إنسان حقاً ـ فيخالف الذين يقولون بأن يسوع «ظهر» بمظهر البشر فحسب.

---

(١) أعمال ١٢: ١٢.
(٢) كولوسي ٤: ١٠.
(٣) ابطرس ٥: ١٣.

ويرينا مرقس كيف ازداد تلاميذ يسوع فهماً له مع مرور الأيام، فيما تعاظم عداءُ خصومه له ـ ويختم مرقس هذه السيرة بسرد الأحداث التي جرت ليسوع في الأسبوع الأخير من حياته الأرضية، وخصوصاً صلبه وقيامته.

وتجدر الإشارة إلى أن آلام يسوع وموته لها مكانة بالغة الأهمية في انجيل مرقس، وهي ذروة الكتاب.

منذ السطر الأول، يصرّح مرقس بإيمانه: يسوع هو المسيح، ابن الله[(١)]. لكن يسوع سيرفض، فيما بعد، أن يقول مَن هو، لأن هذه الألقاب كانت تتضمن التباساً، وتحمل كثيراً من الآمال السياسية والقومية. ولن يقول يسوع بوضوح إنه المسيح إلاّ في ساعة الحكم عليه بالموت. وسيُعلن قائد المئة حين يرى يسوع يسلّم الروح على الصليب:

«في الحقيقة، كان هذا الرجل ابن الله»[(٢)].

إذن، جاء انجيل مرقس ليكشف للوثنيين مضمون البشارة: «يسوع هو المسيح ابن الله» لا بالمعنى المسيحاني الذي يعتبر كل ملك ابناً لله، بل بالمعنى الحقيقي والشخصي.

٤ ـ ١ ـ ٣ ـ انجيل لوقا وأعمال الرسل:

رواية البشرى بحسب لوقا تقسم إلى قسمين: انجيل لوقا وأعمال الرسل.

كان لوقا يونانياً، ويرجّح أنه انطاكي الأصل، وهو تلميذ بولس الرسول. أفاد لوقا من إنجيل مرقس، لكنه جمع من المراجع الموثوق بها ما استطاع إليه سبيلاً. وانجيله أقرب ما يكون إلى سرد حياة يسوع، وهي مؤوّلة في ضوء موته وقيامته.

(١) مرقس ١ : ١.
(٢) مرقس ١٥ : ٣٩.

كتب لوقا لمسيحيين اهتدوا مثله من الوثنية ـ لذلك حاول أن يعرّفهم بالعقيدة المسيحية الصريحة ـ وجماعة لوقا لم تكن تشعر، كما هي حال جماعة متى، بأنها مرتبطة بتقليد يهودي عريق، بل تُحِبّ أن ترى وجْه شبه بين يسوع وإيليا. كان إيليا نبياً من نار، مليئاً بالروح ومُسْتقياً منه حرية تامة نحو كل مؤسسة فسار يسوع على خطاه وجاوزها تماماً.

دوّن لوقا انجيله بأسلوب يوناني مُتْقَن أنيق في حدود السنة ٨٥ للميلاد. وانجيل لوقا هو الانجيل الوحيد الذي له «مقدمة» مثل كثير من المؤلفات اليونانية في تلك الأيام. وهذه المقدمة وُجهت إلى رجل وجيه اسمه تاوفيلس. ولكتاب أعمال الرسل أيضاً «مقدمة» موجّهة إلى ذلك الرجل نفسه وهي تحيل القارىء إلى الكتاب الأول حيث ذكر المؤلف «جميع ما عمل يسوع وعلّم». فالانجيل يركّز على صعود يسوع إلى أورشليم حيث تمّ سرّ الفصح في آلام المسيح وقيامته، وأعمال الرسل تروي التبشير بهذا السرّ «من أورشليم إلى أقاصي الأرض».

تعتبر بشارة القديس لوقا أن الرب يسوع هو المخلص الموعود لليهود، بل مخلّص البشرية جمعاء ـ ويروي لوقا أن روح الرب دعا يسوع ليبشرّ المساكين، ولذلك نجده كثير الاهتمام بجميع المحتاجين والعائشين على هامش البشر. ومع ذلك، فنبرة الفرح تسود كلامه، خصوصاً في الفصول الأولى التي تُعلن مجيء يسوع وفي الخاتمة التي تتحدّث عن صعوده.

سُمّي انجيل لوقا انجيل الرحمة ـ ففيه يظهر، أكثر مما يظهر في سائر الأناجيل حنان الله العجيب للفقراء والصغار والخاطئين وفيه نقرأ أمثال الرحمة: الخروف الضائع، الدرهم المفقود، الابن الضال.

أما ما انفرد لوقا بتدوينه دون سائر الأناجيل، فهو يتعلق بحياة المسيح الخفيّة: بشارة الملاك لزكريا، والبشارة لمريم، ومولد يوحنا وميلاد يسوع، وصعود يسوع إلى الهيكل في الثانية عشرة، كما شدّد على الاهتمام بالغريب كما

في مثل السامريّ الصالح، وعلى أهمية الصلاة المتواضعة كما في مثل الفريسيّ والعشار ـ وقد شدّد لوقا أيضاً على حضور الروح القدس، ومغفرة الخطايا لجميع التائبين.

والجدير بالذكر أن النساء يَقُمْن في انجيل لوقا بدور أهمّ من الذي يَقُمْن به في الأناجيل الأخرى. هناك مريم العذراء واليصابات وحنّة النبية وأرملة نائين ـ هناك الخاطئة التي جاءت إلى بيت سمعان ترجو المغفرة والنساء اللواتي تطوّعن مع يسوع، وتَبِعْنَه حتى الصليب. وهناك مرتا ومريم الاختان اللتان جمعتا الصلاة إلى العمل. والمنحنية الظهر التي وضع يسوع يده عليها فانتصبت من وقتها وأخذت تمجّد الله. ولا ننس نساء أورشليم اللواتي كنّ يَنُحْن على يسوع، معبّرات عن موقف كل الذين رأوا فيه نبياً ذاهباً إلى الموت.

أما «**أعمال الرسل**»، فهو كتاب يكمّل الانجيل كما رواه لوقا ـ يروي هذا السفر كيف نشر التلاميذ الأول بهداية الروح القدس، بشارة يسوع المسيح «في أورشليم واليهودية كلها، والسامرة، حتى أقاصي الأرض». وضعه لوقا في حوالي السنة ٨٥، فرسم فيه لوحة جامعة للسنين الثلاثين لحياة الجماعة المسيحية الأولى، وفي هذه الرواية التي تعجّ بالحياة، نشاهد نشأة جماعات مسيحية مختلفة، في الأوساط اليهودية كأورشليم، أو عند الوثنيين، كانطاكية وكورنتس وفيليبي ـ ونسير في خُطى بولس عَبْرَ رحلاته الرسولية المُتعبة، وندرك ما هي المشاكل التي واجهتها تلك الكنيسة الفتية وكيف اشتعلت حباً لربها القائم من الموت، فاتخذت، بدافع من الروح، نمط حياة جديدة مبنيّاً على الإيمان والمحبة الأخوية والرجاء.

ويتميز كتاب أعمال الرسل بعمل الروح القدس الذي ينزل بقوة على المؤمنين في أورشليم يوم عيد العنصرة، ثم يبقى ليهديهم، ويقوّي الجماعة المسيحية الناشئة خلال الأحداث التي يرويها الكتاب. لذلك سُمي سفر «**أعمال الرسل**» في بعض الأحيان: «**انجيل الروح**».

ويوجز الكتاب تعليم المسيحيين الأول في عدد من العِظات والخُطب والأخبار ليظهر قوة هذا التعليم في حياة المؤمنين. فالمسيح القائم من بين الأموات ما زال حيّاً في جماعته، جماعة المؤمنين.

وكانت الجماعة المسيحية الأولى مثالاً استوحته الحياة الرهبانية في نشأتها. ولم تظهر فيما بعد حركاتٌ إصلاحية أو رسولية إلاّ وفيها حنين إلى «الحياة الرسولية» كما أوحى بها سفر أعمال الرسل.

٤ ـ ١ ـ ٤ ـ انجيل يوحنا:

يوحنا هو ذلك «التلميذ الذي أحبه يسوع» وأحد الاثني عشر رسولاً. دوّن انجيله باليونانية أثناء إقامته في أفسس حوالي السنة ٩٥ ميلادية.

يسوع في بشارة القديس يوحنا هو «كلمة الله» الأزلي الذي «صار بشراً وعاش بيننا». وغاية يوحنا في ما كتبه هي «لتؤمنوا بأن يسوع هو المسيح ابن الله»، لأن من آمن به «نال باسمه الحياة»[١].

وهنا لا بدّ لنا من التوقف قليلاً عند «مقدمة» الانجيل قبل الدخول في مضمونه، فهي تختصر، انجيل يوحنا، في رؤية شاملة وعميقة. فقد شبّهها أحد الشرّاح باستهلالية موسيقية، آتية من أعماق أزلية الله.

يفتتح يوحنا انجيله بمقدمة انطبعت بطابع الجلال والإكرام، يعرض فيها لوجود الكلمة السابق للزمان، وللدور الذي قام به المسيح كونه وسيطاً في إيجاد الخلق وتجديده. كما يتحدث عن عمل المسيح في دنيا البشر.

يلي هذه المقدمة قسمان كبيران: القسم الأول، وهو «كتاب الآيات»[٢] يروي عدة معجزات تُبيّن أن يسوع هو ابن الله، المخلّص الموعود ـ ويتبع ذلك تفسير لمغزى هذه المعجزات ـ ويظهر لنا أن بعض الناس آمنوا بيسوع فصاروا تلاميذه، فيما قاومه البعض الآخر. وتروي بعض الفصول ما كان بين يسوع

(١) يوحنا ٢٠ : ٣١.
(٢) يوحنا ١ ـ ١٢.

وتلاميذه من رابطة وثيقة ليلة اعتقاله. كما تروي كلام يسوع الذي فيه هيّأ تلاميذه وشجّعهم قبيل صلبه، وكشف لهم مسبّقاً عمّا سيحقّقه في سرّه الفصحي. وأما القسم الثاني وهو كتاب «الساعة»[1]، فيسرد في فصوله الأخيرة خبر القبض على يسوع ومحاكمته وصلبه وقيامته، ثم ظهوره لتلاميذه بعد قيامته.

لم يُرد يوحنا أن يُكثر من أعمال يسوع ومعجزاته، بل فضّل أن يختار منها عدداً قليلاً أبرزه ابرازاً رائعاً.

حدّثنا عن يسوع فقال: «في البدء كان الله، والكلمة كان لدى الله، والكلمة هو الله، كان منذ البدء لدى الله».

يسوع هو كلمة الآب الأزلي، هو الكلمة الذي جاء وسكن بين البشر، وبعد أن «جمّع أبناء الله الذين شتّتتهم الخطيئة»، عاد فصعد إلى الآب بانتظار أن يصعدهم معه.

إنجيل يوحنا بسيط، مكتوب بالكلمات التي تستعمل كل يوم. إنه يشدّد على المواضيع الكبرى التي تهمنا، كالحياة والموت والحب والحرية والخبز.. وهو في الوقت نفسه عميق جداً، لأن يوحنا لاهوتي كبير يرى في كل حدث من أحداث الانجيل، ملخّصاً لحياة يسوع وتعليمه، فصعوده على الصليب مثلاً هو في الوقت نفسه صعوده إلى الآب.

ويتكلّم يوحنا أيضاً عن نعمة الحياة الأبدية بالمسيح. هذه النعمة التي تبدأ **الآن**، تكون من نصيب الذين يؤمنون بأنّ يسوع هو الطريق والحق والحياة.

وهناك فكرة لاهوتية أساسية في انجيل يوحنا، وهي أن «الله محبة» وأن المحبة هي ما ينبغي أن تتميّز به جماعة المؤمنين بالمسيح.

ودوّن القديس يوحنا أيضاً **ثلاث رسائل قصيرة**، تبرز بأجلى ما ورد في

---

(١) يوحنا ١٣ ـ ٢٠.

العهد الجديد طبيعة الله المُحِبَّة. وهذه الرسائل، ولا سيّما الأولى، هي دعوة إلى الاختبار المسيحي: «كتبت إليكم بهذا لتعلموا أن الحياة الأبدية لكم، أنتم الذين يؤمنون باسم ابن الله»(1).

والاختبار الذي نعيشه في المشاركة مع الله هو أكبر «دليل» على أن يسوع هو ابن الله وأفضل تحذير من البدع التي ترفض هذا الايمان.

هناك موضوع واحد، وهو أن الله أحبّنا أوّلاً. والروح لا يزال يؤكّد على ذلك في قلوبنا. ونحن نعلم بأننا نشارك الله، لأننا نحبّ اخوتنا.

إذن، لرسائل يوحنا غايتان: التشجيع على الحياة في شركة مع الله وابنه يسوع المسيح، والتحذير من التعاليم الباطلة التي تهدم هذه الشركة. فقد ادّعت هذه التعاليم أن الشرّ ينتج عن الاحتكاك بالعالم الطبيعي، وتساءلت كيف يكون المسيح الإله بشراً ـ فادّعت أن الخلاص يقوم بالتحرّر من هموم الحياة في هذه الدنيا، وأنّ لا شأن له بمسائل الأخلاق أو محبة الإنسان للإنسان.

وفي الردّ على هذه التعاليم الباطلة، يؤكّد يوحنا أن المسيح صار إنساناً حقاً. وأن الذين يؤمنون به ويحبّون الله، عليهم أن يحبّ بعضهم بعضاً، فمن أروع ما قاله يوحنا، صاحب النزعة الصوفية: «الله محبة، ومن أقام في المحبة، أقام في الله، وأقام الله فيه». فمن جرّاء هذا الوحي، تصبح حياة المؤمن، حياة «في الحق والمحبة»، وهي الشرط المباشر لمعرفة الله.

٤ ـ ٢ ـ الرسائل:

من جملة كتب العهد الجديد أربع عشرة رسالة تنسب إلى بولس ـ وهذه الرسائل، من وجهة النظر الزمنية، هي أولى كتابات العهد الجديد. وقد وجّه بولس معظمها إلى عدد من الكنائس المحلية التي انشأ معها بعض العلاقات.

---

(١) يوحنا ٥ : ١٣.

ولما كان لبولس أهمية بالغة في تطوّر المسيحية حين نشوئها، لا بدّ لنا من التعريف به.

وُلد بولس في طرسوس، حوالي السنة ١٠ ميلادية. وكان يهوديّ الملّة، روماني التابعيّة، يحمل اسمين: شاول وبولس. وكان فرّيسيّاً، وباسم ايمانه اليهودي، اضطهد المسيحيين، لأنه ظنّ أنهم يدمّرون الايمان بالإله الأحد، إذ يساوون بينه وبين إنسان يدعى يسوع. وحوالي السنة ٣٦، فيما كان متوجهاً إلى دمشق سعياً إلى إبادة المسيحيين فيها، جرت له خبرة دينية مصيرية، فأضحى من اتباع يسوع. فبعد أن عارض المسيح على الإطلاق، ها هوذا يكرّس نفسه كلّها له.

من خلال رسائله، بوسعنا أن نلاحظ أربع مراحل في تفكيره.

في المرحلة الأولى، وهي مرحلة الرجاء، وجّه بولس رسالتين إلى أهل تسالونيكي، تناول فيهما موضوع الإيمان المشترك الذي تلقّاه من المسيح والرسل. فبالإيمان، أصبح الإنسان يحيا، في حياته اليومية، بيسوع المسيح، يُنعشه الروح القدس، لمجد الله. وهكذا يعيش المسيحيون في رجاء مجيء يسوع القريب.

في المرحلة الثانية، نشعر بأن هناك سؤالاً يخالج أعماق بولس: «ما معنى الخلاص بيسوع المسيح؟» فكانت الرسائل إلى أهل كورنتس وغلاطية ورومة وفيلبي. واختلفت اللهجة باختلاف الرسائل ـ كتب الرسالة الأولى إلى أهل كورنتس وهو مقيم في أفسس.

وأعجب بأن كلمة الله أقامت في جماعة من أولئك الفقراء إلاّ أن الإنسان لا ينتقل، بين ليلة وضحاها، من «السير مثل أهل كورنتس»، أي سلوك طريق الفجور، إلى الحياة في المسيح فوجب على بولس، في معاملة أولئك المؤمنين، أن يكتشف طريقة عملية للعيش عيشة مسيحية. وفي هذه الرسالة

أيضاً، وردت أقدم رواية للعشاء السرّي[1]. وأروع نشيد للمحبة[2].

أما الرسالة الثانية، فهي تتضمن فقرات رهيبة يدافع فيها بولس عن نفسه، لأن الكورنثيّين تهجموا على سلطته، ومن ورائها على الإيمان الصحيح. ثم يعالج موضوع الخدمة الرسولية، وهو يشعر بما فيها من مسؤولية رهيبة.

وفي الرسالة إلى أهل غلاطية، وبعد مدخل حادّ، يدافع بولس، عن البشارة التي اعلنها، تلك التي تسلّمها مباشرة من المسيح على طريق دمشق، والتي تقود المؤمن إلى الحرية الحقّة. لم يعد هناك من شريعة شرط أن ننقاد بالروح ـ «أنتم في المسيح خليقة جديدة، فعيشوا عيشة الناس الأحرار».

وما قاله بولس بحدّة لأهل غلاطية، تناوله في عرض موسّع، حين كتب إلى أهل رومة في سنة ٥٨.

فهذه الرسالة هي أهم رسائله وأطولها، بل هي أغناها من حيث العقيدة.

يفتتح بولس رسالته بتوجيه التحية والمديح إلى كنيسة رومة على إيمانهم. ويذكر الفكرة الأساسية في الرسالة وهي أن بشارة يسوع تظهر كيف يبرّر الله الإنسان بالإيمان وحده، أيهودياً كان أم غير يهوديّ. فالبشر كلهم بحاجة إلى التبرير، لأنهم جميعاً تحت سلطان الخطيئة. وهذا التبرير لا يكون إلاّ من عند الله بالإيمان بيسوع المسيح.

ثم يصف بولس الحياة الجديدة في المسيح، هذه الحياة التي ينعم بها كل من برّره الله بالإيمان، فيحيا في سلام مع الله ويتحرّر بالروح القدس من سلطان الخطيئة والموت. فالخلاص إذن هبة مجانية يمنحها الله بملء حرّيته، ولا يكتسبها البشر بأيّ وسيلة. الإيمان بالله الذي أقام المسيح من بين الأموات هو الشرط الذي لا بدّ منه لنيل النعمة المخلّصة.

---

(١) اكورنتس ١١ : ١٧ ـ ٣٣.

(٢) اكورنتس ١٣.

في المرحلة الثالثة، نجد رسائل بولس إلى أهل كولوسيّ وافسس وإلى فيلمون، وفيها يشدّد على أن المسيح هو ربّ العالم وسيّد التاريخ. كما يبرز توحيد البشرية كلّها في شعب واحد يكوّن جسد المسيح. بعد هذا تصالح العالم مع الله، وتصالح الناس بعضهم مع بعض.

وفي المرحلة الأخيرة، نقرأ الرسائل إلى تيموتاوس وتيطُس، وهي وصيّتُه الروحية، التي تشدّد على «حفظ الوديعة» وديعة الإيمان.

وقد حفظ لنا العهد الجديد رسائل أخرى. ففضلاً عن رسائل يوحنا التي ذكرناها، هناك رسائل ليعقوب وبطرس ويهوذا. وفي النهاية الرسالة إلى العبرانيين التي هي عظة أكثر ممّا هي رسالة.

٤ ـ ٣ ـ رؤيا يوحنا:

نُسِب هذا السفر إلى يوحنا تلميذ يسوع وقد يعود إلى سنة ٩٤ ـ ٩٥ م. إنه آخر أسفار الكتاب المقدس وأصعبها فهماً. كُتِب في شكل رؤيا، في زمن أزمة واضطهاد عانت منهما الجماعة المسيحية الأولى ـ لذا جاء بأسلوب رمزي غامض، كان يفهمه المسيحيون دون سواهم في تلك الأيام. همُّ المؤلف أن يشيع الأمل والرجاء والتمسّك بالإيمان في أوقات الشدّة والآلام.

يرى الكاتب أن التاريخ صراع مستمر بين شعب الله من جهة، وقوى الشرّ في العالم من جهة أخرى. وانّ شعب الله مزمع أن يتألم ويشقى، إلاّ أن الله سينتصر في النهاية على الشرّ. ويشمل هذا الانتصار البشرية جمعاء، فتنتهي الرؤيا بمشهد السماء من خلال صورة المدينة المقدسة، أورشليم الجديدة.

الفصل الخامس

٥ ـ الأسفار المنحولة

إن الأسفار التي اعتُرِف بها قانونية، أصبحت بناء على ذلك نصوصاً مقدسة وخُصَّتْ بكلمة «منحولة» بعض المؤلفات التي كانت، على ما فيها من الشبه بنصوص العهد الجديد القانونية، تنقل آراء غريبة عن أفكار الكنيسة، ـ «والأمّ تعرفُ أولادها» ـ.

وهذه الكتب متنوعة فهناك أناجيل وأعمال رسل ورسائل ورؤى منحولة. ظهرت في بعض الأوساط المسيحية خلال القرون الأولى. وهي مجموعات من القصص الشعبي والأساطير الخيالية، تعارض حقيقة الإنجيل والإيمان وإن كانت تتضمن بعض التقويّات. كتبها المبدعون، خاصة أصحاب الغنوصية[١] وهي بيئة سرّية «متحزّبة» كانت تتصرّف بها للحصول منها على معرفة حقيقية، أي «عرفان».

إلا أن الكنيسة لم تنتظر نهاية العالم لتدلّ على زؤان الكتب المنحولة وتُفرده عن قمح الكتب القانونية[٢]. ومِعْيار الصفة القانونية في ما يمتّ إلى الكتب المقدسة هو إجماع الجماعة المسيحية الأولى. فهؤلاء كانوا أقرب منّا إلى زمن المسيح وزمن كتابة تلك الأسفار، ممّا خوّلهم أن يقرّروا أيّاً من

(١) الغنوصية: تيار فلسفي وديني سرّي، يمنح الخلاص بالاطلاع على الحقائق الدينية الكبرى وبانخطاف النفس. وهي تحتقر المادة والجسد.

(٢) متى ١٣ : ٢٤ ـ ٣٠.

المؤلفات هي قاعدة للإيمان المسيحي، وأيّاً منها لا يصلُح أن يكون. وتعتقد الأجيال المسيحية اللاحقة بأن الجماعة الأولى حظيت بهداية الروح القدس في عملية التمييز تلك.

إذن، ليس كل ما سُمي انجيلاً هو انجيل يسوع المسيح ابن الله[1]، وليس كل ما سمّي رؤيا قد كشفه يسوع[2]، ولا تُتلى كل رسالة على الأخوة أجمعين وكأنها من القديس بولس، مُلْهمة من الروح القدس. فماذا نقول عن الأسفار المنحولة؟

٥ ـ ١ ـ الأناجيل المنحولة:

نجد خارج الأناجيل الأربعة مجموعات عديدة حملت اسم «انجيل». فهناك مجموعة أولى تتعلق بالتيارات المسيحية المرتبطة باليهودية، ولم يبق منها إلاّ أجزاء بسيطة. وهناك مجموعة ثانية كُتبت في زمن متأخر، فجاءت بشكل قصص خيالية. وهناك مجموعة ثالثة كتبها أصحاب الغنوصية، فدسّوا فيها تعاليمهم الضالّة، وراحوا ينشرونها في الأوساط المسيحية والوثنية على السواء.

٥ ـ ١ ـ ١ ـ المجموعة الأولى: أناجيل المتهودّين:

في هذه المجموعة انجيل العبرانيين وانجيل الناصريين وانجيل الأبيونيين (أو انجيل الرسل الاثني عشر) وانجيل المصريين وانجيل بطرس ـ ولم يبق لنا منها إلاّ بضعة أجزاء ومقاطع.

فانجيل الابيونيين (أو انجيل الرسل الاثني عشر) مثلاً، كُتب في اليونانية في النصف الأول من القرن الثاني، استعملته الجماعات المسيحية المنشقة في شرق الأردن.

يروي خبر عماد يسوع واختياره للاثني عشر، وهو يعتبر أن يسوع صار

---

(١) مرقس ١ : ١.

(٢) رؤيا ١ : ١.

ابن الله لمّا قبل العماد ـ ويجعل من يوحنا المعمدان انساناً نباتياً لا يأكل إلاّ البقول . . . فضلاً عن ميله إلى الهرطقة وتأثيره بالغنوصية في التعليم عن المسيح.

أما انجيل بطرس، الذي عُثِر على جزء منه في مصر، في أواخر القرن الماضي، فيبدأ بالحكم على يسوع وينتهي بظهوره بعد قيامته في أورشليم والجليل.

كتب حوالي سنة ١٣٠ في سوريا يعتبر كاتبه أن بيلاطس بريء من تهمة قتل يسوع. وينحي باللائمة على هيرودس الذي حكم على يسوع بالموت، بحسب زعمه. وخلال آلام يسوع نلاحظ أنه الاله الذي لا يمكنه أن يتألم ـ فهو أقرب إلى بدعة الظاهريين (Les Docètes) الذين يعتبرون أن الرب لم يتجسّد، بل أخذ شبه جسد ثم أن تمجيد يسوع تمّ حالاً بعد موته على الصليب. أمّا خبر قيامته وظهوره أمام أعدائه، فهو يحوي عناصر جليانية يبدو فيها الصليب كائناً حيّاً: «خرج ثلاثة رجال من القبر يتبعهم صليب. كان رأس كل من الرجلين الأوّلين يصل إلى السماء، أمّا رأس الرجل الثالث الذي يقودهما فكان يتجاوز السماء. وسمعوا صوتاً من السماء يقول: هل بشرّت الموتى؟ فأجاب الصليب: نعم». ويروي هذا الإنجيل أن يسوع تراءى بعد قيامته للنسوة القديسات، وأنه لما ظهر للرسل على بحيرة طبريا كانوا على جهل بقيامته.

٥ ـ ١ ـ ٢ ـ المجموعة الثانية: الأناجيل المطبوعة بالقصص الخيالي:

بغت المجموعة الثانية من الأناجيل المنحولة أن تخبرنا بما سكت عنه الانجيليون، متوخّية إرضاء رغبة الإطلاع عند الشعب المسيحي بالنسبة إلى مريم ويوسف وطفولة يسوع وآلامه. وهكذا كان لنا في هذه المجموعة الثانية قصص قريب من الخرافات ومطبوع بطابع الخيال، كُتب بين القرن الثالث والرابع ب.م.

كتابان يلفتان انتباهنا: انجيل يعقوب وانجيل انتقال مريم، إذ فيهما

الخطوط الأولى للاهوت مريمي وفكر ديني عن الحياة الأخرى، يستند إلى مواضيع مأخوذة من العهد القديم فضلاً عن ذلك، نجد أيضاً في هذه المجموعة انجيل متى المزيّف، وانجيل يوسف النجار، وانجيل توما الفيلسوف المعروف بانجيل الطفولة وانجيل نيقوديموس وانجيل جملائيل.

انجيل يعقوب:

يولي انجيل يعقوب اهتماماً خاصاً بما جرى لمريم وبأحداث ميلاد يسوع. وتعود أول مخطوطة له إلى القرن الثالث، تحت عنوان «ميلاد مريم، رؤيا يعقوب» (أخو الربّ).

نقرأ في هذا الانجيل أن يواكيم وحنّة (والدي العذراء) كانا شيخيْن عقيمَيْن ـ فعرفا بواسطة الملاك أنه سيكون لهما ولد في وقت قريب. وهكذا كان. فرزقهما الله ابنة سمّياها مريم وكرّساها للرب منذ ولادتها وقدّماها إلى الهيكل وهي بعمر الثلاث سنوات. وكانت تقتات بطعام يحمله إليها كل يوم ملاك من السماء. ولمّا بلغت اثنتي عشرة سنة، وكَّل الكاهن الأعظم حماية بَكارتها إلى يوسف (وكان أرملاً وكان له أولاد) الذي اختاره الله لهذه المهمة بطريقة عجيبة. وأتى الملاك مريم مرة أولى عند عين البلدة، ثم مرة ثانية في غرفتها ليبلّغها أنها ستكون أمّ يسوع. وعند ولادة يسوع، امتلأت المغارة بسحاب، (علامة حضور الله)، حلّ محله نور يعمي البصر. وما أن اختفت السحابة المضيئة، حتى بدا الطفل في المغارة (تشديد على سرّ ولادته). وشكّت سالومة ببتولية مريم، فكان عقابها قاسياً. وعرف الجميع أن مريم بقيت عذراء قبل الميلاد وفيه وبعده.

ـ انجيل انتقال مريم:

يروي هذا الانجيل في أحد أجزائه أن يسوع سلّم نفس أمّه مريم إلى الملاك ميخائيل، بحضور بولس وسائر الرسل. وبعد أن دُفِنت مريم في وادي يوشافاط، تراءى يسوع مرة ثانية وأقامها، فصعدت إلى السماء مع ابنها تحملها

أجواق الملائكة. وفي النسخة العربية لهذا الانجيل مقاطع كثيرة تحكي عن عبادة مريم وطلب شفاعتها وأولى عجائبها والأعياد المنظمة اكراماً لها.

ـ انجيل الطفولة:

هو انجيل متّى الفيلسوف الاسرائيلي، عُرِف بانجيل الطفولة ـ يتبسّط هذا الانجيل في رواية ما صنعه يسوع من العجائب والمعجزات أثناء هربه إلى مصر. ومن هذه الطرائف أن الوحوش كانت تحرسه هو وأمّه ـ وأن الأصنام التي مرّ بجوارها قد هوت وتحطّمت ـ كما يروي أيضاً أحداثاً مثل زيارة حواء إلى مغارة بيت لحم، وشفاء الطفل الأبرص، واخباراً صبيانية يمجُّها الذوق السليم كتلك التي تجعل يسوع يصنع عصافير من تراب الأرض يوم السبت، ويمنحها الحياة.

٥ ـ ١ ـ ٣ ـ المجموعة الثالثة: أناجيل الغنوصيّين:

لم نكن، إلى السنوات الأخيرة، نعرف الكثير عن الغنوصية المسيحية، غير أن اكتشافات في نجع حمادي (مصر، سنة ١٩٤٥) وضعت بين أيدينا مكتبة في اللغة القبطية تحتوي ثلاثة عشر كتاباً من مؤلفات الغنوصيين. منها ترتبط بالغنوصية الوثنية، وغيرها تتقارب وأسفار العهد الجديد القانونية.

تذكر في هذه المجموعة الثالثة: انجيل توما وانجيل فيلبُّس.

ـ انجيل توما:

هو أقدم شاهد بين أيدينا على الغنوصية السريانية في بداية عهدها. كُتب في القرن الثاني غرف كاتبه من نصوص وتقاليد قديمة، جمعها وبدّل فيها على هواه واصحبها بتعابير غنوصية وسبكها في مجموعة، سمّاها أقوال يسوع. تتكوّن هذه المجموعة من ١١٤ قولاً أوحى بها يسوع إلى توما، الذي يظهر اسمه في القول الثالث عشر، والذي يعتبره الكاتب فوق بطرس ومتى.

ـ انجيل فيلبُّس:

سُمِي بهذا الاسم لأن فيلبُّس هو الرسول الوحيد الذي يذكره الكتاب.

يبدو هذا الانجيل بشكل رسالة، لا تصميم لها، تطلعنا عن أسرار الغنوصيين المأخوذة عن الليتورجيا المسيحية. ونجد فيها مقابلة بين الصبغة والمعمودية. ونقرأ فيها إشارة إلى أن خشب الصليب هو جذع شجرة زرعها يوسف النجار، ترتبط بشجرة الحياة في الفردوس.

وهناك كتب عديدة أخرى نجدها بين نصوص نجع حمادي ـ منها انجيل الحقيقة، وانجيل يوحنا المنحول، ورؤيا بولس ورؤيا يعقوب ورسالة بطرس إلى فيلبُّس وأعمال بطرس ورؤيا بطرس وكتاب توما. . . إلاّ أن الغنوصيين كانوا يعتبرون أن فيلبُّس وتوما هما الرسولان المؤتمنان على البشارة الجديدة. لذلك كانوا يعيرونهما اهتماماً خاصاً.

٥ ـ ١ ـ ٤ ـ انجيل برنابا:

قبل الانتقال إلى سائر الكتب المنحولة لا بدّ لنا من ذكر انجيل برنابا.

انجيل برنابا هو آخر الأناجيل المنحولة منهم من يقول إنه كُتب في القرن الرابع، ثم فقد ولم يبقَ له أثر ومنهم من لا يعترف بوجوده إطلاقاً.

أما انجيل برنابا الايطالي، فهو من القرن الخامس أو السادس عشر ـ مؤلّفه نصرانيّ اعتنق الإسلام. ويحوي الكتاب أضاليل لا يرضى عنها الإسلام ولا المسيحية. فهو يدّعي مثلاً بأن رسول الإسلام، إنما هو المسيح، وهو ينكر يوحنا المعمدان الذي يكرّمه القرآن الكريم ويدعوه يحيى. وقد رفضه كبار المفكرين المسلمين كالشيخ محمد عبده والعقّاد. وهو يحوي أخطاء تاريخية وجغرافية وتناقضات جليّة. فيزعم مثلاً أن مدينة الناصرة تقع على بحيرة طبريا، كما يجعل كفرناحوم مدينة جبلية. وكثيراً ما يقول: «وركب يسوع السفينة ومضى إلى أورشليم»، كما لو كانت القدس على شاطىء البحر. فبرنابا هذا يجهل كل شيء عن فلسطين، وهو على الأرجح أوروبيّ عاش في منتصف القرون الوسطى.

٥ ـ ٢ ـ سائر الكتب المنحولة:

حاول كتّاب الأناجيل المنحولة أن يقلّدوا الأناجيل القانونية، وحاول غيرهم أن يقلّدوا أعمال الرسل ورسائل بولس ورؤيا يوحنا لكن أهمية هذه الكتب هي دون أهمية الأناجيل، لذلك سنكتفي بعرض سريع لأهمّها.

٥ ـ ٢ ـ ١ ـ الأعمال المنحولة:

نذكر في هذا الإطار: أعمال يوحنا وأعمال بولس وأعمال بطرس وأعمال توما وأعمال اندراوس. وكان منبعها آسيا الصغرى أو سوريا. جمعها المانويون[١] في كتاب واحد ليعارضوا به سفر أعمال الرسل القانوني. وشدّدوا على ما فيها من تعاليم غنوصية.

كُتِبت هذه الأعمال في القرنين الثاني والثالث، فكوّنت بينها وحدة متماسكة، رغم اختلاف في التعليم وتباعد في التأليف. أما وحدتها فظاهرة في ميول مؤلّفيها التعليمية. وأمّا أسلوبها الأدبي فهو الأخبار الشعبي الذي تكثر فيها الصور العجيبة والخارقة. نذكر منها على سبيل المثال في أعمال بطرس ـ وقد بقي لنا منها بعض المقاطع ـ تخبرنا أن الرسول بطرس جعل الكلب يتكلّم، والسمك المجفّف تعود إليه الحياة، فيسبح من جديد. ممّا يمجّه الذوق السليم!

٥ ـ ٢ ـ ٢ ـ الرسائل المنحولة والرؤى:

لا نجد الكثير من الرسائل المنحولة لأن هذا الفن الأدبي لا يسمح للكاتب بأن يرخي العنان لتصوّرات مخيلته.

هناك رسائل منسوبة إلى بولس ـ أهمها الرسالة الثالثة إلى أهل كورنتس.

---

(١) المانوية مذهب ماني الفارسي الذي عاش في القرن الثالث للميلاد. الذي قال إن للعالم مبدأين: أحدهما النور، وهو مبدأ الخير، والآخر الظلمة، وهو مبدأ الشرّ. وكل مبدأ من هذين المبدأين مستقلّ عن الآخر ومنازع له.

وهناك رسالة الرسل، وكرازة بطرس وهي ترتبط بأدب الدفاع المسيحي الذي انتشر في ذلك الوقت.

ومن الرؤى نذكر رؤيا بطرس ورؤيا بولس. وأخرى جاءت في زمن متأخر: كرؤيا العذراء ورؤيا توما وغيرها.

٥ ـ ٣ ـ قيمة الأسفار المنحولة:

هذا، وفي ختام كلامنا عن الأسفار المنحولة، لا بدّ لنا من ردّ سبب رواجها إلى كونها من نوع القصص الشعبي. فلا عجب إذن أن تُعرف وتنتشر في بداية عهدها أكثر من الأسفار القانونية. كما أنه لا بدّ لنا أيضاً من الانتباه إلى الأخطار العديدة التي يمكن أن تهدّد سلامة العقيدة المسيحية ـ نذكر اثنين منها: الخطر الأول هو أن نجعل الأناجيل المنحولة مساوية للأناجيل القانونية الأربعة. فالأناجيل المنحولة لا تعدوا أن تكون كتباً تقوية إن لم تحمل في طيّاتها البدعة والضلال، التي أثّرت في كتب كثيرة، دُوّنت بعدها في عالمنا الشرقي. في حين أن قاعدة الإيمان المسيحي هي في الأناجيل القانونية وحدها.

أما الخطر الثاني فهو يأتي من الالتباس في الأفكار، بعد أن أخذ أصحاب الشيع باقحام نصوص من العهد الجديد في كتبهم، فأخفوا تعاليمهم وراءها، وخدعوا مؤمنين بسطاء. هذا ما فعله التيار الغنوصي مثلاً. إلاّ أن الكنيسة تنبّهت للأمر، فجمعت قاعدة الإيمان الواحد وأوصلتها إلينا خالية من الشوائب والضلال[1].

(١) نعود بالفضل وعرفان الجميل في كلامنا عن الأسفار المنحولة إلى الأب الدكتور بولس الفغالي في مقالة له تحت عنوان: الأسفار القانونية في العهد الجديد والأسفار المنحولة واردة في «المسّرة»، أيار ١٩٨٣.

الفصل السادس

٦ ـ مسألة تأويل النصوص الدينية في الفكر المسيحي

هناك مفهومات خاصة بالوحي المسيحي المدوّن من حيث استخراج معانيه المختلفة. وقد تكون هذه المفهومات غريبة على القارىء المسلم العربي ـ لذا لم نر بداً من أن نقدّم عرضاً وجيزاً لمبادىء علم التفسير المسيحي، وما يترتّب عليه من معانٍ ظاهرة وباطنة وحاصلة وتطبيقية.

٦ ـ ١ ـ ليس الوحي إملاء، والعهد القديم من العهد الجديد بمنزلة «الرمز» من الحقيقة:

لقد جاء علم التفسير المسيحي خاضعاً لمبدأين:

المبدأ الأول: هو أن الوحي المسيحي أُنزل منجماً في أوقات مختلفة موزّعة على أجيال، كما رأينا سابقاً ـ كُلِّف بتبليغه رجالٌ كثر. اختلف بعضهم عن بعض زماناً، وبيئة، ونفسية، وحتى لغة. ففي نظر المسيحيين، يبقى المؤلف الموحى إليه، بهدي الروح القدس، عِلّة وساطية حرّة، مقيّداً بالظروف التي اكتنفت تدوينه لما كان يوحى إليه، من تصوّرات وخيالات، وخضوع لفنون أدبية شتى. فلا ينزل عليه الوحي إملاءً، بل بمعانٍ «تقوم في نفسه»، وعوناً ربانياً على أن يجد لهذه المعاني ما يراه الأصلح من قوالب «الكلام». وعليه، يلجأ المفسّر المسيحي إلى الإكثار من البحث والتنقيب، يميّز بين المعاني التي أرادها الله في وحيه، والتصورات الغريبة عليها بالذات ـ على أن

هذه المعاني إنما تدور كلها «حول سرّ المسيح»، «ابن الله المتجسد»[1] ـ وهذا أمر يؤدّي بنا إلى ما يقوم عليه المبدأ الثاني.

المبدأ الثاني: هو أن الوحي المسيحي يشتمل على «عهدين» أو «ميثاقَيْن» ـ «عهد قديم» أكّده الله مع الإنسانية، ممثلة فقط بشعب خاص، اصطفته العناية مؤقتاً، حتى تُدبَّر بوساطته، «الأمور اللازمة لتجسد ابن الله». و «عهد جديد» يبتدىء بهذا التجسّد ـ وفيه يضع الله القيود التي بها شاء أن يربط ذاته بقوم دون سواهم، ردحاً من الزمان، ليمدّ بوحيه وحياته الناس كلهم، مهما يكن زمانهم ومكانهم. فجعلهم بذلك جميعاً أبناءه وعياله في «ملكوته السماوي» الذي لم يرده، أصلاً، ملكوتاً زمانياً محصوراً في أمة محدودة ـ بل روحانياً منفتحاً «لكل إنسان جاء إلى هذا العالم».

وهذا يعني أن «العهد الجديد» لم يُلغ العهد القديم، بل كمّله بمعنى أنه نسخ منه ما كان مقصوراً على زمانٍ ومكان مُعيّنين ـ ليبرز فيه الأصول الصالحة للإنسانية كلها ـ إذْ تتحقق هذه الأصول بكمالها في الحياة الجديدة التي جاء بها المسيح ـ ولذلك أَلِفَ الآباء، بعد القديس بولس وصاحب الرسالة إلى العبرانيين، القول عن العهد القديم أنه، من العهد الجديد، بمنزلة «الرمز» من الحقيقة، أو المثل الذي «يشير» إلى الأصل «ويمثله».

٦ ـ ٢ ـ المعنى الظاهر قد يكون حقيقياً ومجازياً، وقد يكون له «معنى أكمل»:

وفي ضوء هذين المبدئين يسعنا أن نقول:

أولاً: إن لكل نص من نصوص الكتاب المقدس، في عهديه، معنىً **ظاهراً** هو الذي قصده الله بوحيه، يجب أن نتبيّنه بعد مراعاة قواعد علم التفسير ومنها تحديد الفن الأدبي الذي ينتسب النص إليه، ونفسيّة الكاتب المدوّن، والبيئة التي كتب فيها وقد يكون هذا المعنى الظاهر **حقيقياً**، أي أن اللفظ يدلّ عليه مباشرة، مثل ذلك قول المسيح في تأسيس سرّ القربان المقدّس: «هذا هو

(١) يعتبر القرآن الكريم أن المسيح هو كلمة الله ونبي الله وليس ابن الله تأكيداً لما ورد في الآية الكريمة التالية: ﴿لم يلد ولم يولد﴾.

جسدي». وذكر أصحاب الانجيل عن المسيح ذاته أنه «صلب» و «مات» و «قبر» و «قام من بين الأموات». كما أنه ربما يكون **مجازياً** أيضاً سواء أكان بالتشبيه[1]، مثل الصفات الحسيّة التي وُصِف الله بها في العهد القديم، أم بالاستعارة، مثل قول يحيى النبي عن المسيح «ها هو ذا حملُ الله». أو قول المسيح عن ذاته: «أنا الكرمة وأنتم الأغصان»، ثم أن المعنى الظاهر، حقيقياً ومجازياً، قد يكون **تاريخياً** إذا دلّ على حوادث مضت، أو **عقدياً** إذا تضمّن تعليماً نظرياً يتعلّق بالعقيدة والايمان ـ أو **توجيهياً** أي **أخلاقياً** لدى اشتماله على تعليم خُلقي ـ أو **نبوياً** انْ انطوى على أمر سيتحقق في المستقبل. مثل قول النبي اشعيا، متنبئاً عن ولادة المسيح من العذراء مريم: «ها هي ذي العذراء تحبل»[2].

ثانياً: إن ورود الوحي المسيحي بأطوار متوالية في الزمان، يقتضي أن يكون لبعض العبارات في الكتب المتأخرة «**معنى أكمل**» منه في الكتب المتقدمة مثل ذلك صيغة «ملكوت الله» التي تتضح وتُصَفّى من العنصرية والقومية وتزداد شمولاً وروحانية بازدياد الوحي إشراقاً على مرّ الزمان ـ فإن لها في كتب «الأنبياء» «**معنى أكمل**» منه في كتب «التواريخ القديمة». والمعنى الأكمل هو المعنى الحقيقي الذي يريده الله الموحي، على أن هذا المعنى الحقيقي لا يدرك وضوحه التام إلاّ في العهد الجديد الذي ينتهي به العهد القديم إلى إكتماله، كما أوضحنا.

٦ ـ ٣ ـ المعنى الباطن أو الروحي:

وهذه العلاقة بين العهدين تسوقنا إلى ما نريد أن نقوله **ثالثاً** ـ وهو أن الآباء، بعد القديس بولس[3] وصاحب الرسالة إلى العبرانيين[4]، ميّزوا، في

(١) شدد القرآن الكريم على التنزيه المطلق للذات الإلهية عن أي شبه بينها وبين المخلوقات ﴿ليس كمثله شيء﴾ ومع أن هناك بعض الآيات التي قد يستدل منها على تشبيه ما مثل قوله تعالى: ﴿يد الله فوق أيديهم﴾ أو ﴿على العرش إستوى﴾ فقد اعتبرت هذه الآيات عند البعض من الآيات المتشابهات التي تحتاج إلى تأويل على ضوء التوحيد الإسلامي.

(٢) أشعيا ٦٥ : ٢٥.

(٣) غلاطية ٤ : ٢١ ـ ٣١.

(٤) عبرانيين ٤ : ١١ وما يقابلها.

العهد القديم، بين «**الحرف والروح**» ـ فالحرف هو المعنى الظاهر الذي يدلّ عليه النص مباشرة والروح هو ما يشير هذا المعنى الظاهر إليه على أنه يتحقق في العهد الجديد، ويكون للنص ذاته عندئذ معنيان: **ظاهر وباطن**.

إن لقصة يوسف مثلاً، في العهد القديم، معناها الظاهر، التاريخي، الحقيقي ـ لكن لها معنى باطناً أيضاً، لأن يوسف الذي انقذ أخوته من الجوع بعد أن ألقوه في غيابة الجب، وباعوه، «يمثّل» في زمانه المسيح الذي ينقذ الناس كلهم ويخلصهم من عبودية الخطيئة ـ فيكون يوسف المثل والنموذج هنا، لأنه يشير إلى المسيح الذي هو الحقيقة والأصل. ويكون لقصة يوسف، بالإضافة إلى معناها الظاهر التاريخي، معنى باطن، يقال أيضاً إنه **روحي أو نموذجي** ـ وقد يسمّى روحياً في مقابل الأول الذي يبدو «**جسدياً حسياً**».

٦ ـ ٤ ـ وجوب التمييز بين «المعنى الحاصل» «والمعنى التطبيقي» الزهدي التصوّفي:

ولقد يرد السؤال هنا: هل في العهد الجديد نصوص تنطوي على معان باطنة تمثل أشياء أو تشير إلى حقائق غير التي يشتمل عليها النص بمعناه الظاهر الحقيقي القريب؟ إن في الأمر لنظراً ولو كان محتملاً. فإن كثيراً من الآباء رأوا في «سفينة الرسل»، مثلاً، إذ كانت تتقاذفها الأمواج، صورة الكنيسة المعرّضة دائماً للمحن والاضطهادات، كما أنهم رأوا في معجزة اصطياد السمك، عندما أمر به المسيح، شاهداً ومثلاً سابقاً على الانتشار العجيب الذي أحرزه الانجيل في العالم.

على أنه يجب أن نميز هذا المعنى حينئذ عن «**المعنى الحاصل**»، الذي قد نستخرجه من النص بالاعتماد على العقل والقياس على نصوص أخرى متقاربة وعن المعنى **التطبيقي** الذي يخلعه المؤمن من تلقاء ذاته، اعتبارياً، ليلبيّ حاجة شخصية روحية يؤنسها في نفسه، ولذلك قد يسمى هذا المعنى أيضاً زهدياً تصوفياً، ولقد نصح علماء التفسير ألاّ يفرط في استخدامه، لأن الإفراط هنا ربما يؤدي إلى سخف وهذر.

الباب الثاني
العقيـدة المسيحيـة فـي أصـولهـا الأساسية

تمهيد

الإيمان المسيحي مبني على إيمان الرسل

إن الإيمان، بالنسبة للكتاب المقدس، هو منبع ومركز للحياة الدينية أجمع. وعلى الإنسان أن يتجاوب بالإيمان مع قصد الله[1] الذي يحقّقه تعالى خلال الزمن.

فعلى منوال إبراهيم «أبي كل المؤمنين»[2]، قد عاشت شخصيات مثالية من العهد القديم، ثم ماتوا في الإيمان، الذي «يتممّه يسوع حتى الكمال»[3].

وتلاميذ المسيح هم «الذين آمنوا به»[4]، «والذين يؤمنون»[5]. فما هو مضمون هذا الإيمان، وما هي أهم العقائد في الإيمان المسيحي؟

سبق وقلنا، في القسم الأول، إن الرسل الاثني عشر، والذين عُرِفوا بالحواريين، كانوا على يقين من أن يسوع هو المسيح المنتظر، وهو مخلّص

---

(١) قصد الله: يعني أن التاريخ البشري لا يسير بحسب نزوات قدَر أعمى، بل هو نتيجة لارادة الله عزّ وجل. وبالتالي، فهو موجّه منذ البداية إلى النهاية بالهدف الذي يسير نحوه. وهذا الهدف، حسب المفهوم المسيحي، له مظهران أساسيّان: الأول الخلاص في المسيح. والثاني خلاص جميع البشر، حسب التدبير الإلهي.

(٢) رومة ٤ : ١١.

(٣) عبرانيين ١٢ : ٢.

(٤) أعمال ٢ : ٤٢.

(٥) تسالونيكي ١ : ٧.

العالم وربُّ التاريخ ـ إلاّ أن موته على الصليب خيّب آمالهم ـ وقد خُيّل إليهم أن معلمهم أخفق في رسالته. ممّا جعلهم ييأسون[١]. فلكي يعودوا ويؤمنوا، كان لا بدّ لهم أن يمرّوا باختبار الفصح، لأن اختبار القبر الذي وجدوه فارغاً، لم يكفِ لاقناعهم ـ إذ أن الأمر يمكن تفسيره باختطاف الجثة[٢]. وبعد ثلاثة أيام، آمنوا الواحد تلو الآخر بأن يسوع قام من الأموات، واختبروا هم أنفسهم هذه القيامة. فكان أول المؤمنين جماعات صغيرة: بعض النسوة، ثم مريم المجدلية، فبطرس ويوحنا[٣]. فاثنان من التلاميذ في طريقهما إلى قرية قريبة من أورشليم، ثم توسّع النطاق ـ وراحت كل الاختبارات لقيامة المسيح تتكرّر متقطعة على مدى أربعين يوماً، إلى أن غاب يسوع عن الأنظار غياباً نهائياً.

عندئذ، انتاب الرسل أزمة أخرى ـ وعاد الحواريون الاثنا عشر، ومعهم مريم أم يسوع، فاجتمعوا في أورشليم، قائمين في الصلاة، وفي اليوم العاشر لتلك الخلوة، وهو يوم العنصرة، حلّ الروح القدس عليهم بشكل ألسنة نارية. فخرجوا إذ ذاك من صمتهم ـ وقام بطرس، زعيم الجماعة، وشرع يبشّر بإتمام تاريخ الخلاص، حيث أقام الله يسوع من بين الأموات، وجعله «رباً ومسيحاً»[٤] ووهب الروح الموعود به. فكانت الكرازة الأولى، وهي صيحة البشير الذي يُخبِر رسمياً بحادثٍ رهيب، حادث الفداء.

وبما أن هذا الحادث هو انتصار المسيح على الموت، وهو رب التاريخ، يكتسب الزمن الحاضر بالنسبة للمستمع بُعداً أبدياً.

وانطلاقاً من هذا السرّ الفصحي، سرّ موت المسيح وقيامته، تُصبح الكرازة (Le Kérygme) تعليماً، واستعراضاً لأهمّ العقائد التي يجدها المسيحيون في الكتاب المقدس، والتي يلخصها «قانون الإيمان» ـ فما هي أهمّ هذه العقائد؟ وماذا يقول «قانون الإيمان».

(١) مرقس ١٦ : ١٤. لوقا ٢٤ : ٢١. يوحنا ٢٠ : ١٩.
(٢) لوقا ٢٤ : ١١ ـ ١٢.
(٣) يوحنا ٢٠ : ٨.
(٤) أعمال ٢ : ٣٣ ـ ٣٦.

الفصل الأول

١ ـ الإيمان بالله الواحد

إن أولى نقاط الإيمان المسيحي تفتتح «قانون الإيمان» الذي يتلوه المسيحيون صُبحاً ومساءً في صلاتهم، فيقولون: «نؤمن بإله واحدٍ، آبٍ ضابط الكل، خالق السماء والأرض، كلّ ما يُرى وما لا يُرى».

هذا الإيمان بالله الواحد هو الوصية الأولى حسب قول السيد المسيح إذ سأله أحدُ الكتبة: «أيُّ وصية هي أولى الوصايا جميعاً»؟ فأجابه: «إسمعْ يا إسرائيل: إن الرب إلهنا هو الربُّ الوحيد ـ فأحْبِب الرب إلهك بكل قلبك، وكل نفسك، وكلّ ذهنك، وكل قوتّك»[١].

ويجد هذا الإيمان بالله الواحد صدىً له في قول بولس الرسول عن وحدانية الله في الإيمان المسيحي: «فنحن إنما لنا إلهٌ واحد، الآب الذي منه كل شيء ونحن إليه»[٢]. ويضيف في موضع آخر: «إن الرب واحد، والإيمان واحد، والمعمودية واحدة، والإله واحد، والآب واحد للجميع، وهو فوق الجميع ومع الجميع وفي الجميع»[٣].

---

(١) مرقس ١٢ : ٢٨ ـ ٣٠.
(٢) اكورنتس ٨ : ٦.
(٣) افسس ٤ : ٥ ـ ٦.

١ ـ ١ ـ الإيمان بالله الواحد عقيدة مشتركة بين الأديان السماوية:

الإيمان بالله الواحد عقيدة أساسية تشارك المسيحية فيها اليهودية والاسلام.

فاليهودية تُعْلِن: «إسمع يا اسرائيل، أن الرب إلهنا هو ربٌّ واحد، وإلهٌ واحد[١] والإسلام يشهد: «لا إله إلاّ الله» و «هو الله الذي لا إله إلاّ هو»[٢] والمسيحيون يعترفون: «نؤمن بإله واحد».

فالإيمان بالله الواحد هو إذاً عنصر مشترك بين هذه الديانات الثلاث.

فالمسيحيون يؤمنون بأن الله هو الإله الذي أعلنه إبراهيم الخليل، وإلهُ موسى واليهود، وإلهُ الإسلام والتوحيد القرآني هو، حسب القرآن عينه، استمرارٌ للتوحيد المسيحي، أي لتوحيد أهل الكتاب: «لا تجادلوا أهل الكتاب إلاّ بالتي هي أحسن، إلاّ الذين ظلموا منهم، وقولوا: آمنا بالذي أُنزِل إلينا، وأُنزِل اليكم، وإلهنا وإلهكم واحد، ونحن له مسلمون»[٣]. وفي هذا يقول القرآن أيضاً: **﴿فإن كنتَ في شكٍّ مما أنزلْنا إليك، فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك، لقد جاءك الحقُّ من ربِّك، فلا تكوننَّ من الممترين﴾**[٤].

ومهما يكن من أمر، فالمسيحيون يعدّون أنفسهم إحدى الجماعات الثلاث المنتمية إلى إبراهيم والتي تؤمن بإله واحد أحد ـ فماذا نعني بذلك؟

إن كلمة «إله» مشتقة من كلمة «إيل». وهو الاسم التي كانت جميع الديانات السامية تدعو به آلهتها ـ ويعني «القوّة والقدرة».

أما كلمة «الله»، فناتجة عن إدخال ألْ التعريف على كلمة «إله»،

---

(١) تثنية ٦ : ٤.

(٢) ٥٩ : ٢٢ ـ ٢٤.

(٣) عنكبوت ٤٦.

(٤) يونس ٩٤.

فأصبحت «الإله». ثم من إدغام الألف في وسط الكلمة باللام التي قبلها وتشديد اللام، فأصبحت «الله» ـ فالله هو الإله الأعظم بين سائر الآلهة، عند العرب قبل الإسلام[1] أما في اليهودية والمسيحية والإسلام، فالله هو الإله الوحيد.

وعليه، يؤمن المسيحيون بأن الله، وهو الإله الوحيد، هو الأزلي، القدير، العليم، الخالق الكون وسائر ما فيه ـ وهو أيضاً المُحيي، الرحيم، الغفور، المتعالي العطوف معاً، السيّد المطلق، ديّان البشرية العادِل في اليوم الآخر، القاضي بالثواب أو العقاب للأبد.

إلاّ أن الله «ما رأه أحدٌ قط، الابنُ الوحيد الذي في حضن الآب، هو الذي أخبر عنه»[2].

١ ـ ٢ ـ هذا الإله الواحد هو ربّ الكون وسيد التاريخ، وقد تكلّم بالأنبياء ـ وظهر في شخص يسوع:

إن إله المسيحية والإسلام ليس إله الفلاسفة الذي خلق الكون وتركه وشأنه، بل هو الإله الذي كلّم الناس بالأنبياء. هذه العلاقة بين الله والناس بواسطة الأنبياء، أمرٌ مهمٌ جداً بالنسبة إلى الأديان ـ عليها ترتكز العبادة والصلاة: فالذي كلّمنا بالأنبياء نكلّمه بالصلاة. وعليها أيضاً ترتكز الأخلاق: فالذي كلّمنا بالأنبياء أعطانا وصايا، علينا أن نتبّعها ونطبقّها في حياتنا.

وفي نظر القرآن لا تناقض بين الكتب السماوية، إذ إن كلّ كتاب جاء مصدقاً للكتاب الذي قبله. نقرأ في سورة آل عمران: **﴿الله لا إله إلاّ هو الحيُّ القيوم، نزّل عليك الكتاب بالحق مصدّقاً لما بين يديه، وأنزل التوراة والانجيل من قبل هدى للناس، وأنزل الفرقان﴾**[3]. وإن اختلف الانجيل والقرآن في نقاط كثيرة من مضمونهما، فإن كلام الله كلامٌ حيّ، لا يبلغ غايته إلاّ عندما يصير

---

(١) راجع في هذا الشأن Encyclopédie & Tome 1. Col. 418, «Allah» Leiden 1960.

(٢) يوحنا ١ : ١٨.

(٣) ٣ : ١ ـ ٣.

ينبوع حياة يعبّر به المؤمن عن خضوعه لله في كل مجالات حياته.

إن هذا الإله الذي يتوق كل إنسان إلى معرفته، والذي ظهر للأنبياء في العهد القديم، قد ظهر، حسب الدين المسيحي، «في ملء الأزمنة»[1] في شخص يسوع المسيح. وقد رسمت الأناجيل المقدسة، في لوحات رائعة، صورة الله كما تجلّت من خلال تعاليم يسوع وأعماله وموته وقيامته. ونجد في تلك الصورة خطوطاً اعتدناها في العهد القديم، وخطوطاً جديدة برزت لنا في المسيح.

فعلى غرار العهد القديم، يبدو لنا الله في العهد الجديد الإله الوحيد الذي له وحده يجب السجود والعبادة، والإله القريب من الإنسان، الذي يعتني بجميع الناس، ويدعوهم إلى دخول السموات.

فعندما يتكلّم يسوع عن الله، لا يبشّر بإله جديد، بل بالإله الوحيد الذي ظهر في العهد القديم لإبراهيم واسحق ويعقوب وموسى وسائر الأنبياء.

والتعريف بهذا الإله، لا يلجأ يسوع إلى لغة فلسفية وتعابير نظرية تَصِفُ الله في ذاته، بل يستخدم، على مثال أنبياء العهد القديم، لغة حياتية وتعابير واقعيّة وأمثالاً شعبية، لا تُعرِّف بالله في ذاته بقدر ما تعرّف به في علاقته بالعالم والإنسان. فيبدو الله، في تعاليم يسوع، قريباً من العالم والإنسان، على خلاف آلهة الفلاسفة الأقدمين.

فالله، عند أفلاطون، هو الفكرة المطلقة المجرّدة للخير - وهو بعيد كلّ البعد عن هذا العالم - عالم الظواهر الحسيّة والمادة الفاسدة - وينتج من تلك النظرة إلى الله موقفُ عَداء للمادة ورَذْلٍ للجسد.

والله، عند أرسطو، وإن كان قد ابدع الكون، إلاّ أنه يحيا منذ الأزل بعيداً

(١) غلاطية ٤ : ٤.

عن الكون، فهو العقل الذي يعقل ذاته ولا يبالي بالعالم ـ لا علاقة له بشؤون البشر، فلا يعتني بهم ولا يطلب منهم شيئاً.

والله، عند أفلوطين، هو الواحد المنفصل عن الكون، الذي منه انبثق عالم المادة ـ إلاّ أن العالم، بانبثاقه من الواحد، سقط في فساد الكثرة والتعدّدية. لذلك، بينما الإله الواحد هو إله الخير، لا يرى أفلوطين في المادة إلاّ الشرّ والفساد ـ ويتحتم من ثم على الإنسان الذي يريد الوصول إلى الله أن يبتعد عن المادة ويتحرّر منها.

هذا التناقض بين الله والكون، لا وجود له في العهد القديم، ولا في تعليم يسوع. فالله، منذ العهد القديم، هو الذي خلق الكون والمادة، وخلق الإنسان روحاً وجسداً. «ورأى أن ذلك كلّه حسن». وبعد أن خلق الكون والإنسان، لم يتخلّ عنهما بل بقي ملتزماً ما خلق، فهو سيّد التاريخ وسيّد الإنسان ـ وهو الذي يقود البشرية جمعاء إلى الخلاص.

هذا الإله يصوّره لنا الكتاب المقدس، منذ سفر التكوين، في ملامح بشرية هذا لا يعني أن الله هو على مثال الإنسان حاشا إنما المقصود هو إظهار قرب الله من الإنسان، وعنايته الدائمة به، وغيرته المستمرة عليه فالله، في نظر يسوع، لا يهمل البشر، بل يعتني بهم جميعاً كما يعتني بطيور السماء وزنابق الحقل كذلك الكون، فلا يراه يسوع إلاّ في نور الله ـ فإذا به عالم حسن، يستطيع الإنسان، دون خوفٍ وقلق، أن يحقّق فيه ذاته، ويصل من خلاله إلى سعادته، وغاية وجوده، داعياً شاكراً، ساجداً، مبتهلاً.

١ ـ ٣ ـ وهذا الإله الواحد هو أيضاً «خالق السماء والأرض»:

الإيمان بالله الواحد هو اعتراف بأنّ المادة والحياة والروح لا تنبثق من الضرورة ـ ولا هي نتيجة مصادفة ـ بل هي من خلق إله خالق هو روح وحياة ـ هذا الإله الواحد هو، في إيمان المسيحية والإسلام، خالق السماوات والأرض. ففي المسيحية نجد هذا الإعلان الصريح الواضح: «نؤمن بإله

واحد. . . خالق السماء والأرض، كلّ ما يُرى وما لا يُرى» ـ وتقبل المسيحية ما جاء في سفر التكوين من التوراة عن خلق الكون في ستة أيام. وفي هذا أيضاً، يقول القرآن الكريم: ﴿**إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام**﴾[1].

إذن، يؤمن المسيحيون والمسلمون على السواء بأن الله هو خالق الكون بأسره ـ ويقول المسيحيون إنّ الله «قد خلق الإنسان على صورته ومثاله»، «ونفخ في أنفه نسمة حياة» كما نقرأ في سفر التكوين[2]. والنظرة الإسلامية للإنسان شبيهة بالنظرة المسيحية ـ فالقرآن يؤكد أن الله «سوّاه» ونفخ فيه من روحه[3]، حتى يجعله «خليفته» على الأرض ـ وهناك حديث نبويّ يقول: «إن الله خلق آدم على صورته». وقد فسّر الكثيرون من علماء المسلمين هذا النص بقولهم: «إن الله خلق آدم على الصورة التي كوّنها عنه من قبل» إلاّ أن بعضاً منهم، كالغزالي مثلاً، يروْن أن آدم خُلِق على صورة الله ذاته، وأنه اختير بسبب ذلك ليكون «خليفته» على الأرض.

ومهما يكن من أمر، فالإنسان مدعوّ إلى إكمال عمل الخلق، فيتوافق أخيراً، على أكمل وجه، مع ما خلقه الله لأجله وكرامة الإنسان تأتي من كونه «خُلِق على صورة الله» ليس في جسده طبعاً، لأنّ الله لا جسد له ولكن في روحه الخالدة التي بها يشترك في أبدية الله. وفي عقله الذي به يفكّر ويشترك في نور العقل الإلهي. وفي ارادته التي بها يمارس حرّيته ويضطلع باختياراته ويشترك في حرية الله.

١ ـ ٤ ـ الإيمان بالله الواحد لا يناقض الإيمان بوحدة ثلاثة أوجه في الله:

هذا وإن وحدانية الله في الإيمان المسيحي تختلف عما هي في اليهودية والإسلام. فالعقيدة الجوهرية في المسيحية هي الإيمان، ليس بوحدانية الله

(١) اعراف ٥٤، هود ١١، فرقان ٥٩.
(٢) تكوين ١ : ٢٦ ـ ٢٧؛ ٢ : ٧.
(٣) قرآن ١٥ : ٢٩.

فحسب، بل بوحدة ثلاثة أوجه في الله. ذلك أن الدين المسيحي قائم على المحبة.

تقول المسيحية «إنّ الله محبة» وتلك المحبة ليست فكرة محضاً. إنها حقيقة قائمة في شخص حيّ. ولأنها تقوم في شخص، ندعو هذا الشخص «الأقنوم»، أي الوجه الذي تقوم فيه المحبة.

والوجوه في الله ثلاثة ـ أي أن المحبة تقوم في الله على ثلاثة أوجه:

* الحب الذي يعطي، وهو وجه الآب.

* والحب الذي يتلقّى عطاء الأب، وهو وجه الابن.

* والحب الذي يصل الآب بالابن والابن بالله، وهو وجه الروح القدس.

فالوجه الأول ندعوه «الآب»، لأنه في ذاته فيض من الحب.

والوجه الثاني ندعوه «الابن»، لأنه يقوم في ذاته على محبة الآب له. لذلك نقول أن الابن «مولود من الآب قبل كل الدهور» ـ أي أن الله منذ الأزل هو محبة وعطاء. ولا وجود للمحبة، إن لم يكن وجهٌ ثانٍ يفيض عليه الآب محبته. وتلك المحبة التي تنبثق من الآب لتفيض على الابن هي الوجه الثالث، الروح القدس «المنبثق من الآب».

وهنا لا بدّ لنا من التأكيد أن إيماننا بالله الواحد لا يناقضه إيماننا بالتثليث ـ ذلك أن الآب وكلمته وروحه ليست في اعتقادنا ثلاثة آلهة منفصلة أحدُها عن الآخر، بل إلهٌ واحد نميّز فيه ثلاثة أقانيم، أي صفات ذاتية غير منفصلة أحدها عن الآخر. فكما نميّز بين الإنسان وعقله وروحه دون أن نفصل بين هذه الثلاثة، كذلك، وإن ميّزنا في الله الواحد بين الله وكلمته وروحه، إلاّ أننا لا نفصل بين الثلاثة. لذلك نعلن في «بسملتنا»: «باسم الآب والابن والروح القدس، **الإله الواحد**، آمين».

لذلك نؤكّد أن المسيحية ديانة توحيدية ـ وقولها بالتثليث هو تعمّق في سرّ الله، وتفسير لتجلّي الله في عالم البشر. فلا تكتفي بالقول إن الله أرسل إلينا أنبياءه، بل انه أتى إلينا في شخص كلمته يسوع المسيح، وفي روحه القدوس. فكلمةُ الله وروحه حضرا في ما بيننا ـ وكلمة الله وروحه ليسا كائنيْن من دون الله ـ إنما هما صفاتٌ ذاتية في الله الواحد نفسه.

فالله في المسيحية ليس إلهاً جامداً. إنه في ذاته علاقة حبّ أزلية وحركة عطاء دائمة بين الآب والابن والروح القدس ـ إلهٌ واحد، طبيعة إلهية واحدة. أي محبة واحدة في ثلاثة أوجه ـ هذا هو سرّ الأسرار، سرّ حياة الله الباطنة التي لا تستطيع خليقة من الملائكة والبشر أن تدركها أو تفسرها.

١ ـ ٥ ـ الإيمان بالله هو الإيمان بالمحبة:

عندما أراد يوحنا الانجيلي التعريف بالله، لم يلجأ إلى تعبير فلسفي نظري، بل قال: «إن الله محبة»، «فمن ثبت في المحبة، ثبت في الله، وثبت الله فيه»(١).

وفي تعريفه بالمحبة يقول: «على هذا تقوم المحبة: «أما نحن أحببنا الله، بل هو نفسه أحبّنا، وأرسل ابنه كفّارة عن خطايانا»(٢). وهكذا، لقد عرّفنا يوحنا بالله من خلال علاقة الله بالبشر ـ وتلك العلاقة هي علاقة محبة.

هذا موقف المؤمن الحقيقي إزاء الحياة والكون وكل ما يمكن أن يحدث له في اليُسر والضيق، في الفرح والحزن، في السعادة والشقاء، في الحياة والموت. يؤمن أنه ليس وحيداً في هذا الكون، ولا غريباً في هذه الحياة، فالله قد أحبّه واختاره وافتداه.

إنه في قلب الله إلى الأبد.

---

(١) يوحنا ٤ : ١٦.

(٢) يوحنا ٤ : ١٠.

تلك هي البُشرى الصالحة التي بشرنا بها يسوع المسيح في كلامه عن الله، وفي حياته كلها وموته وقيامته.

ويجد هذا التعريف بالله صدىً في قول جبران خليل جبران: «أما أنتَ إذا أحببتَ، فلا تقُلّ: الله في قلبي ـ لكن قلّ: أنا في قلب الله»[1].

(١) جبران خليل جبران، كتاب «النبي»، فصل المحبة.

الفصل الثاني

٢ ـ الإيمان بالله الآب

يدعو المسيحيون الله «الآب»، وهي عبارة ورثوها عن اليهود، الذين يدعون الله أباهم. ويدعون شعبهم ابن الله ـ فقد ورد في أحد مزامير داود على لسان الله مخاطباً شعبه: «أنت ابني، أنا اليوم ولدتك». وقد أضفى يسوع على الكلمة معنىً حميماً وصبغة عائلية. فعلّم تلاميذه أن يقولوا: «أبّاً»، وهي عبارة تودّد ودالّة كالتي يستعملها الأولاد في العائلة لينادوا والديهم البشريين.

٢ ـ ١ ـ في الدين المسيحي إذن، الله هو أبٌ محبٌ وحنون:

يؤمن المسيحيون بأن علاقة الإنسان بالله هي علاقة ابن بأبيه، ومسؤولٍ عليه أن يؤدي حساباً، وهي علاقة مبنية على المحبة والحنان ـ حتّى أن القديس بولس يقول إنه «أبو الحنان»[1] والقديس يوحنا «محبّة»[2] وصاحب المزامير «رؤوف رحيم»[3]. وأبهى مظاهر حبّه وحنانه أنه «جاد بابنه الوحيد» لخلاص العالم[4]. لقد شاء «برحمته الواسعة وحبّه الشديد» أن يحيينا مع المسيح[5]، فلم ينظر إلى ما قدّمنا من أعمال البرّ، بل شاءت رحمته أن يخلّصنا وأن يصيّرنا «شركاء الطبيعة الإلهية»[6].

---

(١) ٢ قرونتس ١ : ٣.
(٢) ١ يوحنا ٤ : ٨.
(٣) مزمور ١٠٣ : ٨.
(٤) يوحنا ٣ : ١٦.
(٥) افسس ٢ : ٤ ـ ٥.
(٦) ٢ بطرس ١ : ٤

٢ ـ ٢ ـ وهذا الآب الرحوم هو ذو الغفران والرحمة:

من أروع صفحات العهد القديم، في هذا المجال، ذلك الحوار بين إبراهيم والله.

كان أهل سدوم وعامورة قد تمادوا في الشرّ والمعاصي، فقضى الله بأن يبيدهما ـ وإذا بإبراهيم يتقدّم من الرب متوسّلاً ـ فكان بينهما الحوار التالي:[1]

ـ «أحقاً تهلك البار مع الشرير؟ لعلّه يوجد خمسون بارّاً في المدينة، أحقاً تُهْلِكُها؟

ولا تصفح عنها من أجل الخمسين باراً الذين فيها؟ حاشَ لك أن تصنع مثل هذا:

إن تميت البارّ مع الشرير، فيكون البار كالشرير ـ حاش لك ـ أديان الأرض كلها لا يدين بالعدل؟».

ـ فقال الرب: «إن وجدت في سَدوم خمسين بارّاً في المدينة، فإني أصفح عن المكان كلّه من أجلهم».

ـ فأجاب إبراهيم وقال: قد أقدمْتُ على الكلام مع سيدي، وأنا تراب ورماد ـ لربما نقص الخمسون بارّاً خمسة، أفتُهْلِكُ المدينة كلّها بسبب الخمسة؟

ـ فقال: «لا أُهلكها، أنْ وجدتُ هنا خمسة وأربعين».

ثم عاد أيضاً وكلّمه فقال: «لربما وُجِد هناك أربعون».

ـ فقال: «لا أفعل من أجل الأربعين».

ـ قال ابراهيم: لا يغضب سيدي أن أتكلّم: لربما وجد هناك ثلاثون».

ـ فقال: «لا أفعل، إن وجدت هناك ثلاثين».

---

(١) راجع سفر التكوين ١٨ : ٢٠ ـ ٣٢.

ـ قال: «قد اقدمْتُ على الكلام مع سيدي ـ لربما وُجد هناك عشرون».

ـ قال: «لا أُهلك من أجل العشرين».

فقال: «لا يغضب سيدي أن أتكلّم أيضاً هذه المرة الأخيرة: لربما وُجد هناك عشرة».

قال: «لا أُهلك من أجل العشرة»[1].

لم يتجاسر إبراهيم ويمضي في توسُّله ـ فهو في مساومته على الرحمة، لم يجرؤ على التخفيض إلى ما تحت عشرة أشخاص ـ بينما يقول إرميا[2] وحزقيال[3] أن الله يعفو عن أورشليم بكاملها، إنْ وجد فيها بارّاً واحداً ـ وأخيراً ورد في أشعيا[4] إن عذاب العبد وحده سيخلّص الشعب كله ـ لكن هذا الأمر لن يكون مفهوماً إلاّ عند تحقيقه في المسيح[5].

فالآب الرحوم إذن لا يريد هلاك أحد، بل أن يبلغ الجميع إلى التوبة[6]. إنه مثل الراعي الذي أضاع خروفاً واحداً، فترك القطيع كلّه، وراح يبحث عن الضالّ، إلى أن وجده ـ وهو مثل المرأة التي أضاعت درهماً واحداً، فأوقدتْ السراج، وراحت تكنّس البيت، إلى أن وجدته ـ وهو مثل الأب الرحيم الذي تركه ابنه، فبات لا يحلو له عيش، إلى أن عاد إليه[7].

٢ ـ ٣ ـ وإله الرحمة هذا هو أيضاً إله التحرّر وإله الممكنات:

يقول القديس يوحنا في هذا المعنى: «إن الناموس أعطي لنا بموسى،

(١) راجع سفر التكوين.
(٢) ارميا ٥ : ١.
(٣) حزقيال ٢٢ : ٣٠.
(٤) اشعيا ٥٣.
(٥) الكتاب المقدس، العهد القديم، راجع الحاشية ص ٩٣ ـ ٩٤.
(٦) متى ١٨ : ١٤.
(٧) لوقا ١٥ : ٤ ـ ٣٢.

وأما النعمة والحق، فبيسوع المسيح قد حصلا»[١].

إن قمة وحي الله عن ذاته في العهد القديم هي في ظهوره لموسى على جبل سيناء. حيث أعطاه الوصايا ووعد شعبه بأن يكون معهم إنْ حفظوها ـ فأصبحت الشريعة في العهد القديم الطريق الذي يقود الإنسان إلى الله.

أما في العهد الجديد، فالله ليس إله الناموس، بل إله النعمة والرحمة. هذا ما أظهره يسوع في عمله وفي تعليمه. فنراه ينقض الناموس ليجري الأشفية يوم السبت، فيشفي اليابس اليد[٢]، والمرأة الحدباء[٣]، ويرفض أن تطبّق شريعة موسى برجم المرأة الزانية، ويستبدلها بالرحمة والمغفرة[٤].

لقد أظهر يسوع بنوع فائق رحمة الله للخطأة ـ «فكان العشّارون والخطأة جميعاً يُقبلون إليه ليسمعوه، مما جعل الفرّيسيين والكتبة يتذمّرون قائلين: إن هذا الرجل يقبل الخطأة ويأكل معهم»[٥].

فهو يغفر لمخلّع كفرناحوم: «يا رجل، مغفورة لك خطاياك». ثم يشفيه: «لك أقول: قمْ واحمل فراشك وامضِ إلى بيتك»[٦].

وهو يغفر للمرأة الخاطئة التي جاءت تبكي وتبلّ رجليه بالدموع وتمسحها بشعر رأسها، ويقول لسمعان: «إن خطاياها، خطاياها الكثيرة، مغفورة لها، بما أنها أحبّت كثيراً»[٧].

وعليه، فإله الرحمة هذا هو إله التحرر الذي يحرّر الإنسان من حواجز التقاليد الاجتماعية والأحكام البشرية وهو أيضاً إله الممكنات.

قال يسوع يوماً إنه لأسهل أن يدخل الجمل في ثقب الإبرة، من أن يدخل

---

(١) يوحنا ١ : ١٧.
(٢) متى ١٢ : ١ ـ ١٤.
(٣) لوقا ١٣ : ١٠ ـ ١٧.
(٤) يوحنا ٨ : ٣ ـ ١١.
(٥) لوقا ١٥ : ١ ـ ٢.
(٦) لوقا ٥: ١٧ : ٢٦.
(٧) لوقا ٧: ٣٦ : ٥٠.

غنيّ ملكوت السموات. دُهِش التلاميذ وقالوا: «مَن تُراه، إذاً، يستطيع أن يخلُص؟» قال: «أما عند الناس، فليس هذا بمستطاع ـ وأمّا عند الله، فكلّ أمر مستطاع»(١).

فالله، في نظر يسوع، هو إله الممكنات، الذي يفتح أمام الإنسان آفاق المستقبل، فيحرّره من قيود نفسه، ويدعوه إلى تجاوز ذاته باستمرار، وهو فيضٌ من العطاء المجّاني، لا نستطيع أن ندرك عمقه أو سعة امتداده.

٢ ـ ٤ ـ وهذا الآب الحنون، وهو العليم بكل شيء، يشمل الإنسان بعنايته:

كل ما يجري حاضرٌ أمامه ـ فعصفور واحدٌ لا يسقط إلى الأرض من دون علمه، وشعر رؤوسنا نفسه معدود عنده(٢) ـ عصافير السماء غير منسيّة أمامه، فكيف ينسى الإنسان، وهو أفضل منها بكثير؟(٣).

في الإنجيل آيات رائعة تصف لنا العناية الإلهية. يقول المسيح: «لا يهمّكم للعيش ما تأكلون، ولا للجسد ما تلبسون، لأنّ الحياة أثمن من الطعام، والجسد أثمن من اللباس. اعتبروا بطير السماء، كيف لا تزرع ولا تحصد وما من مخزنٍ لها... والله يرزقها. وكم أنتم أفضل من الطير! فاطلبوا أولاً ملكوت الله وبرّه، تُزادوا هذا كله»(٤).

رُبَّ قائل يقول إن في كلام المسيح هذا، دعوة إلى الكسل والقعود عن العمل: لا. فإن الطيور، وإن كانت لا تزرع ولا تحصد، تنشط في السعي لقوتها ـ فالمقصود هو ترك الاهتمام المفرط بخيرات الدنيا في سبيل ملكوت الله وبرّه: «اطلبوا أولاً ملكوت الله وبرّه، تُزادوا هذا كلّه.

إنْ كان لا بدّ من الاتكال على الله في طلب القوت والكساء والإيواء،

(١) متى ١٩: ٢٣ ـ ٢٦.
(٢) متى ١٠: ٢٩ ـ ٣٠.
(٣) لوقا ١٢: ٦ ـ ٨.
(٤) متى ٦: ٢٥ ـ ٣٤.

فكم بالاحرى ينبغي ذلك في الشدّة والمحن وخطر الموت! يقول بولس راجياً، إنّ لنا في الله «الحياة والحركة والوجود»[1] ـ فلماذا الخوف والقلق؟

هذا، وإن الله الآب، بفضل عنايته الإلهية، لا يلجم حرّية الإنسان، ولو شرّيرة. ولا يديرُ الكون بالعجائب المستمرة ـ وإلاّ لتنكّر لذاته وللإنسان. إنما هو قادر أن يُخرج الخير من الشر ـ إن لم يكن على المدى القريب، فعلى المدى البعيد ـ «إن الله يسخّر كل شيء لخير الذين يحبّونه»[2].

إن كان الله «إله الرحمة والحنان» في المسيحية، فهو أيضاً «رحمان رحيم» في الإسلام. والالتفات إلى الله لطلب المغفرة أمرٌ مشترك في المسيحية والإسلام. فالدعوة الأولى للسيد المسيح في كرازته هي دعوة إلى التوبة: «لقد اقترب ملكوت السموات، فتوبوا وآمنوا بالانجيل». وفي لقاءاته مع الخطأة يدعوهم دوماً إلى التوبة «لأن ابن البشر» لم يأتِ ليدعو الصدّيقين بل الخطأة إلى التوبة». والقرآن يحرّض المؤمنين على التوبة: ﴿**استغفروا ربكم ثم توبوا إليه، إنّ ربي رحيم ودود**﴾[3].

٢ ـ ٥ ـ إن هذا الرب الرحوم الغفور هو أيضاً ديان البشرية العادل في اليوم الآخر:

يؤكد المسيحيون على أن إله الخير والربّ الرحوم والسيد الرؤوف هو أيضاً القاضي بالثواب أو العقاب ـ فدار الثواب هي الجنة أو السماء. ودارالعقاب هي النار أو جهنم.

فالسيد المسيح يبشر في الانجيل قائلاً: «فيخرج الذين عملوا الصالحات إلى قيامة الحياة، والذين عملوا السيئات إلى قيامة الدينونة»[4]. ويصف يوم

(١) أعمال الرسل ١٧ : ٢٨.
(٢) رومة ٨ : ٢٨.
(٣) هود ١١ : ٩٠.
(٤) يوحنا ٥ : ٢٩.

الدينونة العامة الذي فيه يُفصل الناس كما يُفصَل الخراف عن الجداء ـ فالذين عملوا الصالحات يكونون عن اليمين، ويقول لهم الملك: «تعالوا يا مباركي أبي، رثوا المُلْكَ المعدّ لكم منذ إنشاء العالم، لأني جعت فاطعمتوني، وعطشت فسقيتموني، كنت غريباً فآويتموني، وعرياناً فكسوتموني، وكنت مريضاً فعُدتُموني. ومحبوساً فأتيتم إليّ... الحق أقول لكم، كل ما صنعتموه إلى واحد من اخوتي هؤلاء، إلى واحد من الأصاغر، فإليّ صنعتموه ـ ثم يقول للذين عن شماله: «اذهبوا عني يا ملاعين إلى النار الأبدية... فقد جعت فلم تطعموني، وعطشت ولم تسقوني.. الحق أقول لكم، إن كل ما لم تصنعوه إلى أحد هؤلاء الصغار، فإليّ أيضاً لم تصنعوه ـ فيذهب هؤلاء إلى عذاب أبدي، والصديقون إلى حياة خالدة»[1].

والإيمان باليوم الآخر عنصر مشترك بين المسيحية والإسلام ـ يتكلم القرآن أيضاً عن أصحاب اليمين وأصحاب الشمال: **﴿وأصحاب اليمين، ما أصحاب اليمين: في سدرٍ مخضور، وطلْحٍ منضود، وظلٍّ ممدود وماء مسكوب... وأصحاب الشمال: في سمومٍ وحميم وظلٍّ من يحموم...﴾**[2] وإلى جانب هذه اللذات المادية التي يختلف المفسّرون في تأويلها، يبقى من الثابت قول القرآن: **﴿وجوهٌ يومئذ ناضرةٌ إلى ربها ناظرة﴾**[3].

ويقابل هذا النص قول بولس الرسول: «الآن ننظر في مرآة، في إبهام. أما يومئذ فوجهاً لوجه»[4]. ومهما يكن من أمر، فقمة السعادة في دار الخلود ستكون مشاهدة وجه الله ـ ويؤكد بولس: «إن ما لم تره عينٌ، ولا سمعت به أذنٌ، ولا خطر على قلب بشر، ما أعدّه الله للذين يحبونه»[5].

---

(١) متى ٢٥: ٣١ ـ ٤٦.
(٢) الواقعة ٥٦: ٢٧ ـ ٤٤.
(٣) الواقعة ٧٥ : ٢٢.
(٤) اكورنتس ١٣ : ١٢.
(٥) كورنتس ٢ : ٩.

٢ ـ ٦ ـ كمال الله الآب في كمال المحبة:

في نهاية الفصل الخامس من انجيل متى، يطلب يسوع من مستمعيه أن يتشبّهوا بكمال الله: «فانتم إذاً كونوا كاملين كما أن أباكم السماوي هو كامل»[١].

وقد يتبادر إلى أذهاننا أن كمال الله هو في قدرته المطلقة على كل شيء، وعلمه الكامل بكل شيء، وتنزّهه عن المادة، وأزليته التي لا يستطيع أحد أن يدرك مداها، وعدم تحوّله وتغيّره.

ونتساءل: كيف يسعنا، نحن البشر، أن نتشبّه بكمال الله.

إن يسوع يعلم ضعف البشر وحدودهم، ومع ذلك يطلب منهم أن يكونوا كاملين مثل الله. ذلك لأنه أوجز جميع صفات الله في صفة واحدة هي في متناول الإنسان، وتلك الصفة هي المحبة.

«سمعتم أنه قيل: «أحِبب قريبك وأبْغِضْ عدوّك» ـ أما أنا فأقول لكم: أحبّوا أعداءكم وصلّوا من أجل مضطهديكم، لتصيروا بني أبيكم الذي في السموات، لأنه يُطلع شمسه على الأشرار والأخيار، ويُنزل المطر على الأبرار والفجّار... فإن أحببتم مَنْ يحبّكم، فأيُّ أجْرٍ لكم»[٢].

لن يصل الإنسان إلى كمال الله، في نظر يسوع إلا بالتشبّه بمحبة الله الشاملة لجميع الناس. الهُنا محبة، ينبغي أن نكون نحن محبة «إن الله محبة، فمن ثبت في المحبة ثبت في الله وثبت الله فيه»[٣].

إن الله قد أحبّنا أولاً وغفر لنا خطايانا. فنحن البشر نشبه ذلك العبد الذي قُدّم إلى سيده، وعليه عشرة آلاف وزنة. وإذ لم يكن له ما يوفي به، تحنّن عليه سيّده وترك له الدّيْن[٤].

---

(١) متى ٥ : ٤٨.
(٢) متى ٥ : ٤٣.
(٣) ١ يوحنا ٤ : ١٦.
(٤) متى ١٨ : ٢١ ـ ٥٣.

وكما غفر لنا الله دون حدّ، كذلك يطلب منا أن نغفر بعضنا لبعض زلاّتنا، وذلك ليس فقط إلى سبع مرّات، بل إلى سبعين مرة سبع مرات، أي دون حدّ.

٢ ـ ٧ ـ المحبة صفة واحدة توجز جميع صفات الله: «الله محبة»:

بهذا تتميز المسيحية عن سائر الديانات، في نظرتها إلى الله ـ إن إله المسيحية لم يخترعه المسيحيون كما يدّعي الملحدون ـ فالله هو الذي أظهر لنا ذاته في شخص يسوع وتعليمه. وقد ظهر لنا محبة متجسّدة. فالمحبة هي التي تحدّد الله في المسيحية ـ وانطلاقاً من هذا التحديد، تأخذ صفات الله التي تتحدث عنها الفلسفة وسائر الديانات معاني جديدة.

فأزلية الله لا تعني ابتعاده عن الزمن، بل حضور محبته حضوراً دائماً ومعاصراً لجميع الأزمنة.

وروحانيته لا تعني تنزّهه عن المادة الفاسدة، بل سلطته على الخليقة كلها، وشمول محبته الكون بأسره. فالروح يهبّ في كل مكان ولا يستطيع أحد أن يوقف عمله.

وصلاحه ليس إشعاعاً طبيعياً لما فيه من خير، بقدر ما هو عمل اختيار عطوف ومحبة حرّة.

وعدم تحوّله لا يعني الجمود، بل الأمانة الكاملة لذاته ولمحبته ـ وعدله لا يعني مجازاة كل واحد بحسب أعماله وفقاً لنظام لا زَمنيّ، بل هو فيضٌ من المحبة والرأفة والخلاص.

وعدم إدراكنا له لا يعني أننا أمام كائن مبهم وحقيقة غامضة ـ بل إن الله يسمو على كل ما يستطيع الإنسان أن يتصوّره، وأن محبته لا يمكن أحداً أن يسبر عمقها ـ ألمْ يهتِف بولس قائلاً:

«يا لعُمْق غنى حكمته وعلمه! ما أبعد أحكامه عن التنقيب، وطرقه عن

الاستقصاء! فمن عرف فكر الرب؟ ومن كان له مُشيراً؟ مَنْ سبق فأعطاه، فيردّ له؟ إن كلّ شيء هو منه وبه وإليه. فله المجد إلى الدهور. آمين[1].

وخلاصة القول، إن لله رسالة أزلية هي كلمته، أو حكمته ـ وهذه الكلمة غير مخلوقة وغير مختلفة عنه. «والكلمة صارت بشراً وحلّت بيننا»[2].

(١) روما ١١ : ٣٣ ـ ٣٦.

(٢) يوحنا ١ : ١٤.

الفصل الثالث

٣ ـ سرّ التجسّد: «الكلمة صارت بشراً»

من أهم العقائد في الإيمان المسيحي ما يُقال له التجسد. يؤمن المسيحيون بأن رسالة الله الأزلية وغير المخلوقة «صارت بشراً وسكنت بيننا» في شخص الإنسان يسوع.

بكلام آخر، إن رسالة الله، أو كلمة الله، أوحيت في يسوع الإنسان. وعليه، فإن المسيح لا ينقل كتاباً «موحى»، بل يجسّد وحيَ الله ـ إنه وحيُ الله. وفي ذلك اختلاف أساسي بين المسيحية والإسلام.

يعطي لنا القديس يوحنا مفتاح سرّ هذه «الكلمة» الإلهية ـ فهو يقربّه أشدّ القرب من ذات سرّ المسيح ابن الله ـ فالمسيح هو الكلمة القائم بذاته، الكلمة الإلهي ـ فمنه ينبع، آخر الأمر، كل إعلان للكلمة الإلهية، سواء كان في الخلق أو في التاريخ، أو في إتمام الخلاص النهائي. وهكذا نستطيع أن نفهم العبارة الواردة في الرسالة إلى العبرانيين: «بعد أن كلّم الله آباءنا بلسان الأنبياء كلّمنا بلسان ابنه»[١].

وبصفته الكلمة، كان للمسيح وجود منذ البدء لدى الله، وكان هو نفسه الله[٢]. وكان هو نفسه هذه الكلمة الخلاقة التي بها أنشأ كل شيء. وكان أيضاً

---

(١) عبرانيين ١ : ١ ـ ٢.

(٢) يوحنا ١ : ١ ـ ٢.

الكلمة المضيئة التي تشرق في ظلمات العالم لتعلن للناس وحي الله[1]. هو الذي كان منذ العهد القديم، يظهر بطريقة خفية، تحت مظاهر الكلمة العاملة والكاشفة. ولكنه، في ملء الزمان، دخل هذا الكلمة أخيراً بصورة واضحة في التاريخ، إذْ صار بشراً[2]. فقد أصبح عندئذ لبني البشر واقعاً ملموساً. حتى أنهم رأوا مجده.

هكذا يؤمن المسيحيون بأن المسيح وُلِد بقوة الله، من امرأة قديسة بتول، هي مريم. وهذا لا يعني مطلقاً أن الله له ولد على نحو ما للبشر من أولاد ـ أو على نحو ما اعتقد به قدماء اليونان والرومان وعرب الجاهلية في شأن آلهتهم. ولا يؤمن المسيحيون بأن مريم كانت زوجة الله أو أنها تقبّلت أي «زرع» إلهي، بل يقولون: «إنما حُبِل بيسوع بقوة الله (الروح القدس)، وولد من مريم العذراء. ومريم «المباركة في النساء والممتلئة نعمة» في الانجيل، في بشارة الملاك جبرائيل، يقول عنها القرآن: ﴿قالت الملائكة يا مريم، إن الله اصطفاك وطهرك، واصطفاك على نساء العالمين﴾[3].

وإن اختلف الانجيل والقرآن على بعض أوصاف السيد المسيح، إلاّ أن بينهما أموراً كثيرة مشتركة، وبنوع خاص ميلاد السيد المسيح المعجز بقدرة الروح القدس من مريم العذراء التي تقول للملاك في القرآن، لدى سماعها بشارة الملاك بأنها ستلد ابناً: **﴿أنى يكون لي غلامٌ ولم يمسّني بشر﴾**[4]. وفي الإنجيل: «كيف يكون هذا وأنا لا أعرف رجلاً»[5].

والمسيحيون عندما يدعون الله «أبانا» «وأبا يسوع»، يدركون أنهم يتكلّمون مجازاً، منطلقين من خبرة البشر. ولا يخطر في بال أحد أن هذا النوع

---

(١) يوحنا ١ : ٤ ـ ٥.
(٢) يوحنا ١ : ١٤.
(٣) ٣: ٤٢.
(٤) ٣ ـ ٤٦.
(٥) لوقا ١ : ٣٤.

من المجاز يشير إلى أيّ انجاب جسدي، بل الهدف منه هو الدلالة على الاتحاد والدالّة والحياة، والتعبير عن العلاقات بين البشر والله.

٣ ـ ١ ـ يسوع المسيح: «ابن الله الحي»:

يقول الإيمان المسيحي أن يسوع بن مريم هو أيضاً ابن الله الوحيد ـ هذه هي العقيدة التي أعلنها أولئك الذين وَكَلَ اليهم المسيح أمر التبشير بالانجيل بُشرى الخلاص[1]. فقالوا للعالم أن المسيح هو إلهٌ وإنسانٌ معاً «مسحه الآب وأرسله»[2] ليكون به النهوض والخلاص. فما يعني ذلك ومن هو يسوع؟

ـ يسوع، من هو؟

سؤال طرحه الرسل الحواريون على أنفسهم، كانوا يوماً وأياه على بحر طبريا ـ حدث اضطراب شديد، وهبت عاصفة قوية ويسوع في المؤخرة، يغط في نوم عميق! . . دنوا منه مستنجدين، وأيقظوه قائلين: «نجّنا، لقد هلكنا». فقام وزجر البحر قائلاً: «أُصمُتْ! إخرسْ!» فعاد هدوء تام ـ فتعجبوا وقالوا: «من تُرى هذاحتى تُطيعَهُ الرياحُ والبحر؟»[3].

سؤال كان هو نفسه يطرحه على الناس ـ وعلى التلاميذ عما يقول الناس فيه ـ قالوا إما يوحنا المعمدان، وإمّا إيليا وإمّا إرميا، وإما أحد الأنبياء. قال ومن أنا، على حد قولكم أنتم؟ أجاب سمعان بطرس: «أنت المسيح ابن الله الحي»[4]. فما معنى ذلك؟

ـ يسوع ابن الله الحيّ:

في اللغة العبرية، لا تعبّر لفظة «ابن» عن القرابة المباشرة فحسب ـ إنما

---

(١) متى ٢٨: ١٩ ـ ٢٠.
(٢) لوقا ٤: ١٨.
(٣) متى ٨: ٢٣ و ٢٧.
(٤) متى ١٦: ١٣ ـ ١٦.

تعني أيضاً إما الانتماء إلى جماعة، مثل: «بني بابل»[١] وبني الأنبياء[٢] «وابن البشر»[٣] . . . وإما احراز صفة مثل «ابن سلام»[٤] «وابناء النور»[٥] ـ إلاّ أن ما يهمنا هنا هو أن اللفظة تستعمل تعبيراً عن العلاقات بين البشر والله.

في العهد القديم، تشير العبارة «أبناء الله» في مناسبات متفرقة إلى الملائكة الذين يكوّنون الحاشية الإلهية[٦]. أما في العهد الجديد، فيقترن عادة هذا اللقب بلقب المسيح. فعندما يدعو المسيحيون يسوع «ابن الله»، يشيرون بهذه التسمية إلى إيمانهم بأنّ الله أدخل يسوع في علاقة معه حميمة فريدة. وإن رسالة الله الأزلية وغير المخلوقة سكنت في يسوع، ولقب «ابن الله» يشير أيضاً إلى معرفة متبادلة وإلى وحدةٍ في الإرادة وفي الجوهر.

٣ ـ ٢ ـ يسوع الإنسان: «ابن البشر»:

ـ له نَسَبٌ يُعيده متى إلى إبراهيم، ولوقا إلى آدم. وهو من ذرّية داوود ـ أمه مريم مخطوبة لرجل اسمه يوسف ـ أنسباؤه المعروفون هم يعقوب ويوسف وسمعان ويهوذا.

وُلد في بيت لحم، ولُفّ بالأقمطة، وأُضجِع في مزود[٧]، في اليوم الثامن خُتِن ـ شأنه في ذلك شأن كل الأطفال الذكور عند اليهود ـ ترعرع في الناصرة ـ في الثانية عشرة، صعد وأبويه إلى القدس ـ كان نجّاراً، وعُرِف «بابن النجار».

«امتُحِن في كل شيء، ما عدا الخطيئة»[٨] كان يتعب إلى حدّ أنه يستغرق في النوم وسط العاصفة[٩]. ويحسّ بالجوع إلى حدّ التجربة بأن يسخّر قدرته لسدّ جوعه[١٠]. وبالعطش حتى الطلب لشربة ماء من سامرية، لم يكن اليهود

---

(١) حزقيال ٢٣ : ١٧.
(٢) ٢ ملوك ٢ : ٥.
(٣) حزقيال ٢ : ١.
(٤) لوقا ١٠ : ٦.
(٥) يوحنا ١٢ : ٣٦.
(٦) أيّوب ١ : ٦.
(٧) لوقا ٢ : ٧، ١٢.
(٨) رومة ٤ : ١٥.
(٩) متى ٨ : ٢٤.
(١٠) متى ٤ : ٢.

يخالطون قومها[1]. ويشعر بالخوف، كما جرى له في الناصرة، يوم ثاروا عليه، بعد عظة شديدة اللهجة، فهجموا عليه ودفعوه إلى خارج المدينة ليُلْقوه من مكانٍ عالٍ فيُقْتَل[2].

اهتز فرحاً في عرس قانا الجليل[3]. واهتزّ ارتعاشاً، حتى البكاء، أمام قبر صديقه لعازر[4] صادق يوحنا حتى إنهم لقبوا هذا «بالتلميذ الذي كان يحبّه»[5].

شعر بالحزن والكآبة ليلة آلامه، فلم يتمالك عن الإفصاح قائلاً: نفسي حزينة حتى الموت»[6]

تعرّض للخيانة والتعذيب، وأخيراً مات صلباً - ودُفِن في قبر مستعار[7]، إلاّ أنه قام في اليوم الثالث كما جاء في الكتب.

٣ - ٢ - ١ - يسوع بن مريم أكثر من إنسان متفوّق - فهو موسوم بطابع العزّة والجلال[6] - بما قيل فيه:

قيل إنه «**حمل الله**»، المسيح الموعود به، وفادي البشر بدمه. وحامل أسقامهم وخطاياهم[8]. قام من بين الأموات، وقيامته ميلادٌ لمن آمن به[9]. مانح النعمة والحق، ومعمّد بالروح والنار[10] - حياة الكائنات وديّان العالمين[11].

وقيل إنه «**صورة الله**»، وبكرُ الخلائق كلها. ففيه وبه وله خُلق كل شيء - كان قبل كل شيء، وبه قوام كلّ شيء - هو البدء وبكر من قام من بين الأموات،

---

(١) يوحنا ٤ : ٧.
(٢) لوقا ٤ : ٢٧ - ٣٠.
(٣) يوحنا ٢ : ١.
(٤) يوحنا ١١ : ٣٣، ٣٥.
(٥) يوحنا ١٣ : ٢٣.
(٦) متى ٢٦ : ٣٨.
(٧) أناجيل الكلام.
(٨) يوحنا ١ : ٣٦.
(٩) متى ٢٨ : ٢.
(١٠) متى ٣ : ١١.
(١١) يوحنا ١ : ٤.

لتكون له الأولية في كل شيء ـ فقد شاء الله أن يحل به الكمال كله، وبه شاء أن يصالح كل موجود، فهو الذي حقق السلام بدمه على الصليب[(١)].

٣ ـ ٢ ـ ٢ ـ وطابع العزّة والجلال هذا يتجلّى أيضاً في ما جرى له أو فعل:

ملائكة السماء يعلنون ميلاده لرعاة مساكين ـ مجوسٌ مجهولون يُقدمون من المشرق ليزوروه في بيت لحم ـ في الثالثة عشرة من عمره، يذهل العلماء «بفهمه وأجوبته» يومَ اعتماده، تنفتح السماء، ويهبط عليه روح الله بشكل حمامة ـ وصوتٌ من السماء يُعلن: «هذا هو ابني الحبيب الذي به سُرِرت». بعد أن صام أربعين يوماً، جرّبه الشيطان بأن يصيّر الحجر خبزاً، وبأن يستولي على ممالك الأرض شرط أن يسجد له. . تجلّى على جبل عالٍ، أمام بعض تلاميذه، فأشعّ وجهه كالشمس، وتلألأت ثيابه كالنور، وتراءى له موسى وإيليا يخاطبانه ـ وإذا بغمام نيّر يظلّلهم، وصوت من الغمام يقول: «هذا هو ابني الحبيب. . . فله اسمعوا».

يغفر الخطايا، مع العلم أن الله وحده «يقدر أن يغفر الخطايا»[(٢)]، يصحّح ويكمّل ما قد جاء في الشريعة التي لا تُمَسّ[(٣)].

يصنع الآيات المدهشة ـ فيسكّن العاصفة، ويمشي على المياه. ويشفي عن مسافة بعيدة ـ ويُقيم الموتى.

هذا وإن الخوارق رافقت موته على الصليب. إذ انتشر الظلام من الظهر إلى الساعة الثالثة ـ وانشقّ الستار الكبير في الهيكل من الأعلى إلى الأسفل. وزلزلت الأرض ـ وتصدّعت الصخور، وتفتحّت القبور[(٤)].

---

(١) كولوسي ١ : ١٥ ـ ٢٠.
(٢) لوقا ٥ : ٢١.
(٣) متى ٥ : ٢١ وما بعد.
(٤) متى ٢٧ : ٤٥ و ٥١.

٣ ـ ٢ ـ ٣ ـ ويسوع الإنسان جليل أيضاً وأخيراً بما قال عن نفسه:

قال انه «ابن الإنسان». وهذا في التوراة، شخص ملوكي وسماويّ يظهر في آخر الأزمنة ليدين البشر[١]. وأنه «ملك»، لكن مملكته ليست من هذا العالم[٢].

وقال إنه أعظم من سليمان، ومن النبي يونان ـ وإنه ربّ السبت.

وقال إنه الراعي الصالح. وأن جسده خبز الحياة. وأنه الطريق والحق والحياة. ونور العالم والوسيط بين السماء والأرض ـ وأنه المسيح المنتظر[٣].

وقال إنه مُرسل من الله الآب ليفتدي البشر ويخلّص العالم. وإن الله أحبّه قبل إنشاء العالم. وإنه أتى من السماء ـ وأنه والآب واحد حتى إن من رآه رأى الآب[٤] ـ فهل يُعقَل!

٣ ـ ٣ ـ يسوع الإله:

هذا ما يؤمن به المسيحيون ـ ففي قانون الإيمان نقرأ «نؤمن برب واحد يسوع المسيح، ابن الله الوحيد، المولود من الآب قبل كل الدهور ـ إله من إله ـ نور من نور ـ إله حق من إله حق ـ مولود غير مخلوق ـ مساوٍ للآب في الجوهر». هو كلمة الله المتجسد ـ وهو الإله الإنسان والإنسان الإله. هو الذي جمع الله والإنسان، في ذاته، فصالحهما، وكان الخلاص ـ فما هو الخلاص الذي أتانا به المسيح ابن الله؟

الخلاص بيسوع المسيح ـ يسميه القديس بولس «مصالحة»: «إن كان أحد

---

(١) دانيال ٧ : ١٣.
(٢) متى ٢٧ : ١١.
(٣) يوحنا ٤ : ٢٦.
(٤) يوحنا ١٠ : ٣٠.

في المسيح، فهو خليقة جديدة. فالقديم قد اضمحل، وكل شيء قد تجدّد. والكل من الله الذي صالحنا مع نفسه بالمسيح.. واودعنا كلمة المصالحة.. فنناشدكم بالمسيح، أن تصالحوا مع الله»[1].

المصالحة إعادة العلاقة الطيبة مع الله والذات والقريب والكون بجملته. إذاً، هي مصالحة شاملة، وهي تتمّ بالذي «قد شاء الله أن يُحلّ به الكمال كلّه، وبه شاء أن يصالح كل موجود، سواء في الأرض وفي السموات»[2].

هذه المصالحة المُحرّرة، كيف يمكن أن تتحقّق ـ وما هي الأضواء الكتابية التي بنورها نهتدي؟

(١) ٢ كورنتس ٥ : ١٧ ـ ٢٠.

(٢) كولوسي ١ : ١٩ ـ ٢٠.

الفصل الرابع

٤ ـ سر الفداء

عقيدة الفداء عند المسيحيين تفترض قضية أساسية أخرى، أوسع قاعدة، يُعبَّر عنها بالسؤال التالي: هل يشعر الإنسان بضرورة الخلاص؟ وإن كان لا بدّ منه، فكيف يتمّ وعلى يد من؟ فكلّ إنسان، عندما ينظر إلى حياته الشخصية وإلى مجتمعه، يجدها نسيجاً من التناقضات والآلام. لا تحقيق فيها للذات كما يُرام ولا اكتمال. ويكون الموقف من هذه المعاناة البشرية مختلفاً باختلاف المعتقدات.

تقول الفلسفات الوجودية الحديثة مثلاً، بأن وجود الإنسان لا معنى له إطلاقاً، وسيظل بلا معنى لا محال. وحقيقة الإنسان التي لا زغل فيها هي الاعتراف الصريح بهذا الواقع ـ وعليه فلا خلاص يُرتجى.

أما الماركسية، فهي تقرّ بأن آلام الإنسان وفشله هي نتيجة النظم الاجتماعية القاهرة ـ وخلاص الإنسان كامن في تبديل تلك النظم وجعلها أكثر عدالة وإنسانية.

تجاه تلك النظرات، يقف كل من الإسلام والمسيحية موقفاً شبيهاً بموقف الآخر ـ وهو الإقرار بأن الإنسان يحتاج إلى الخلاص، وبأنه لا يستطيع تحقيق خلاصه بمعزل عن الله، بل الله وحده هو القادر على ذلك.

يقول الإسلام بأن الله سبحانه وتعالى أرسل الأنبياء يهدون إلى الخلاص،

وهو، جلّت عظمته، يؤيدّ المؤمنين بفيض من رحمته، وهو غفور للخاطئين التائبين.

أما المسيحية، فتعتقد بأن الله حقّق تحرير الإنسان من الخطيئة بوساطة حدث تاريخي معيّن هو موت يسوع، فلِمَ هذا الإيمان؟

٤ ـ ١ ـ مفهوم الخلاص والفداء بيسوع المسيح:

يتضمن الإيمان المسيحي بيسوع المسيح ناحيتين مُتكامِلَتَيْن:

- يسوع في شخصه
- ويسوع في عمله الخلاصي.

فيسوع في شخصه، هو «ابن الله الوحيد، المولود من الآب قبل كل الدهور، إله من إله، نور من نور، إله حق من إله حق، مولود غير مخلوق، مساوٍ للآب في الجوهر ـ الذي به كان كل شيء» هذا ما رأيناه سابقاً.

أما الآن، فسننظر إلى يسوع في عمله الخلاصي ـ فالتجسّد وحياة يسوع الإنسان وصلبه وقيامته، كلُ هذه الأحداث، نُعلِن في «قانون الإيمان»، إنها تمت «من أجلنا نحن البشر، ومن أجل خلاصنا». فماذا نعني بالخلاص؟ وكيف خلّصنا يسوع المسيح بتجسّده وحياته وموته وقيامته؟

٤ ـ ١ ـ ١ ـ ماذا نعني بالخلاص؟:

الخلاص هبةٌ من الله. هذه العقيدة تؤيدّها اختبارات كثيرة ـ كم من شخص كان في الأخطار والمحن، فخلّصه الله لمّا صرخ إليه[١]. وقد يتوسّل المتضرّع إلى الله على أساس أنه «هو إله خلاص»[٢] ـ وغالباً ما تقوم صلاته

(١) مزمور ١٠٧ : ١٣، ١٩، ٢٨.
(٢) مزمور ٥١ : ١٦.

على كلمة واحدة: «يا ربّ خلّص»[1]. ولسان حاله يقول: «إني بائس ومسكين، فلْيعضدني خلاصك يا الله»[2].

هناك خبرتان يختبرهما الإنسان طوال حياته: خبرة إيجابية من الانسجام مع ذاته ومع الآخرين ومع الكون أجمع، قد تغلُب عليها خبرة سلبية من النقص والحُرمان والغربة والضياع... لذلك يقضي كلّ واحد منا حياته في حيْرة دائمة، متقلباً بين الفرح والحزن، بين الصحة والمرض، بين السلام والحرب، بين السعادة والشقاء، بين الشك واليقين... فيعيش في جهاد روحيّ مستمرّ. وغالباً ما يعاني القلق والتمزّق الداخلي في حين يرغب في السلام والاستقرار وراحة الضمير. يريد عمل الخير، فيسقط في عمل الشر. يرجو الصحة الدائمة والحياة الخالدة، فيصطدم بالأمراض والمصائب والموت المحتوم. يفتش عن السعادة الكاملة، فلا يحصل إلاّ على أفراح جزئية ممزوجة بالحزن والشقاء ـ كلّ إنسان يُدرك بؤسه وضعفه وقلقه وحاجته للخلاص. غير أن المؤمن وحده ينظر إلى الله ويبتهل: «إني بائس ومسكين، فليعضدني خلاصك يا الله».

٤ ـ ١ ـ ٢ ـ الخلاص هبة من الله:

يرى المؤمن أن سبب حالة الإنسان هذه هو بُعده عن الله. وبُعده عما يجب أن يكون ـ فالإنسان خُلق لأجل الله ـ وهو كائن ينسمُ فيه روح الله ـ فإن ابتعد عن الله، إنما يبتعد عن ذاته ـ وينفصل عن جوهره ـ ويفقد هويته.

هذا ما يعبّر عنه الكتاب المقدس بقوله «إن الله خلق الإنسان على صورته ومثاله ـ إلاّ أن الإنسان شوّه تلك الصورة بالخطيئة ـ والله وحده، الذي خلق الإنسان، قادر أن يُعيد إليه بهاء الصورة الأصلية، قادر أن يخلّصه.

مَنْ منا لم يشعر يوماً في عمق قلبه البشريّ بفراغ هائل تُحْدِثُه نزعةٌ نحو المطلق؟ من خلال هذا الفراغ الذي نشعر به في مختلف أبعاد كياننا، من خلال

(١) مزمور ١١٨ : ٢٥.
(٢) مزمور ٦٨ : ٣٠.

هذا الاختبار البشري، اختبار الضعف والقلق والضياع، قد يدخل الله إلى قلب الإنسان، ويعيد إليه أصالته، وملء كيانه، أي إنه يمنحه الخلاص من محدودية الخليقة المضاعفة بالخطيئة وهي اغتراب عميق.

والإنسان الذي يحصل على الخلاص، هو كالمريض الذي تُعاد إليه عافيته ـ وكالأعمى الذي يُعاد إليه بصره ـ وكالمخلّع الذي تُعاد إليه قدرتُه إلى السير. إنه كالعبد الذي يُحَرّر من عبوديته، ويعود إلى حريته.

لذا يؤمن المسيحيون أنه لم يكن من الأمور الضرورية المحتمة أن يجسّد الله رسالته في الإنسان يسوع، ولا أن ينتج عن موت يسوع على الصليب خلاصُ البشرية. فالله مطلَقُ الحرية لا تلزمه أحداث التاريخ ولا التاريخ نفسه، وكان باستطاعته أن يتصرّف على غير ما فعل. إنما يؤمن المسيحيون أن الله اختار بملء حريته أن يحقق خلاص البشر بوساطة يسوع، وأنه تعالى لم يكتفِ بأن جسّد كلمته في يسوع، بل أراد أن تكون لأفعال يسوع قدرة خلاصية خاصة ـ «فمات المسيح من أجلنا إذ كنا خاطئين»[١].

٤ ـ ٢ ـ الخلاص بيسوع المسيح:

يقول القديس بولس: «أجل، لما كنّا ضعفاء[٢]، مات المسيح في الوقت المحدّد من أجل قوم كافرين... فإن صالحنا الله بموت ابنه ونحن أعداؤه، فما أحْرانا أن ننجوَ بحياته ونحن مُصالحون!»[٣].

لقد انحنى الله على البشر عندما أخذ تراباً وجبله وخلق الإنسان ـ ثم انحنى عليهم عندما كلّمهم بواسطة الأنبياء ـ ولمّا بلغ ملءُ الزمان، انحنى عليهم في شخص ابنه يسوع المسيح الذي جاء مخلّصاً للإنسان بتجسّده وأعماله وموته وقيامته.

---

(١) روما ٥ : ٨.

(٢) أي عاجزين عن انقاذ أنفسنا من الخطيئة.

(٣) روما ٥ : ٦ ـ ١٠.

٤ ـ ٢ ـ ١ ـ **يسوع المسيح خلّصنا بتجسّده:**

«إني أبشرّكم بفرح عظيم يكون لجميع الشعب ـ اليوم... «ولد لكم مخلِّص هو المسيح والربّ»[١].

تلك هي الكلمات التي وضعها الانجيلي لوقا على لسان الملائكة في روايته لتبشيرهم الرعاة بميلاد يسوع. هكذا يعرّف لوقا المولود الجديد: إنه «المخلص» ـ وهذا معنى اسمه، فلفظة «يسوع» تعني بالعبرية «الله يخلّص».

وهذا ما جاء أيضاً في انجيل متى الذي يروي بشارة الملاك ليوسف بميلاد يسوع: «يا يوسف ابن داود، لا تخف أن تأخذ امرأتك مريم، فإنّ الذي حُبل به فيها إنما هو من الروح القدس ـ وستلد ابناً، فتسميه «يسوع»، لأنه هو الذي «يخلص» شعبه من خطاياهم»[٢].

لم يولد يسوع كما يولد سائر الناس من رجل وامرأة، بل «ولد من الروح القدس ومن مريم العذراء» ـ كما نقول في قانون الايمان.

وهذا يعني أنه في عمق كيانه حضورُ الله على الأرض ـ إنه «الله معنا» ـ فليس هو إنساناً فحسب، وليس الخلاص الذي جاءنا به من إنسان، فالله نفسه هو الذي أتى إلينا في شخص يسوع ـ والله نفسه هو الذي خلّصنا في شخص يسوع.

في هذا المعنى يقول يوحنا في مقدمة انجيله:

«الكلمة صار بشراً، فسكن بيننا ـ فرأينا مجده ـ مجداً من لدنِ الآب، لابنٍ وحيد ملؤه النعمة والحق»[٣].

والنعمة والحق في انجيل يوحنا مرادفان للخلاص.

---

(١) لوقا ٢ : ١٠ ـ ١١.
(٢) متى ١ : ٢٠ ـ ٢١.
(٣) يوحنا ١ : ١٤.

٤ ـ ٢ ـ ٢ ـ يسوع المسيح خلّصنا بأعماله:

إن يسوع المسيح الذي هو المخلّص في كيانه قد حقّقه للبشر في أعماله. قدّم المسيح، للإنسان المريض والجائع روحياً، الدواء الناجع والخبز المحيي ـ يروي متى أنّ يسوع كان ضيفاً على أحد العشارين. فالتفّ حوله كثير من الخطأة ـ احتجّ الفريسيّون قائلين لتلاميذه: «لماذا يأكل معلّمكم مع العشارين والخطأة؟» أجابهم المسيح قائلاً: «الأصحّاء لا يحتاجون إلى طبيب، بل المرضى، وأنا ما جئت لادعو الأبرار، بل الخاطئين»[1].

«جئتُ للخاطئين»، لمرضى الروح والضمير أمثال زكّا، ومريم المجدليّة، والسامرية هذه رسالة يسوع فكان لهم طبيباً ماهراً، قدّم لهم الدواء الناجع، يعني عطفه ورحمته، وغفرانه ونعمته.

وعليه جاء المسيح يغفر الخطايا، ويظهر للخطأة أن محبة الله أعظم من خطاياهم جاء يشفي المرضى وينهض المخلّعين ويقيم الموتى، مظهراً أن محبة الله أقوى من مخاطر المرض والموت.

٤ ـ ٢ ـ ٣ ـ يسوع المسيح خلّصنا بموته وقيامته:

ترى المسيحية في موت يسوع قمة عمله الخلاصي. كان سرّ التجسد سرّ فداء ـ والفداء كان إصلاحاً ومصالحة. ولكن، لماذا تمّ ذلك بالصليب؟ ألم يكن الله قادراً أن يُصلح ويصالح بطريقة أخرى، فيُظهر رحمته بالغفران مثلاً، لا أكثر ولا أقل فلِمَ الخلاص بتلك الذبيحة الدموية؟

يؤمن المسيحيون بأن المسيح ترك حُبّ الله الآب وحبّ البشر يستولي عليه كلياً، فاستسلم كلّياً للآب والبشر، حتى بذل الحياة. بذلك، يكون الإله الإنسان يسوع المسيح، قد كسر طوق الخطيئة والشرّ. فكان ذلك خيراً لجميع البشر، ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، لأن جميع البشر متضامنون في المصير،

---

(١) متى ٩ : ٩ ـ ١٣.

أللخير كان أم للشر. وعليه، فإنّ الإله المتأنس أصلح العلاقة بين الإنسان والله، ولسان حاله يقول: «لا مشيئتي بل مشيئتك».

عند دخوله العالم، قال المسيح مخاطباً أباه: «لم تشأْ ذبيحة ولا قرباناً، ولكنك اعددت لي جسداً ـ لم تقبل المحُرقات ولا الذبائح كفّارة للخطايا ـ فقلت حينئذٍ هاءنذا آتٍ، اللهمّ، لأعمل مشيئتك»[١].

ويعلّق القديس بولس قائلاً أن التقديس جاءنا من فضل تلك الإرادة. . .

وفي بستان الزيتون، بعد أن تساقط منه العرق دماً، لِهَول ما تراءى له من تسلّط قوى الشرّ عليه، ابتهل وخاطب أباه قائلاً: «يا ابتاه! لتبتعدْ عني هذه الكأس، إنْ أمكنِ الأمر. ولكن لا كما أنا أشاء، بل كما أنت تشاء»[٢].

لم يرد يسوع الموت والعذاب، إلا أنه لم يتهرّب منهما ولم يتراجع أمامهما. بل بقي أميناً لرسالته حتى الموت ـ فمات موت الأنبياء ـ «من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا» كما يقول قانون الإيمان. فماذا حقّق الله لنا بموت يسوع، وماذا يعلّمنا من خلاله ـ وما هي سائر أبعاد موت المسيح الخلاصية؟

أ ـ أعاد المسيح الانسان إلى الدائرة الإلهية وحرّره من الخطيئة والموت:

أوضح المسيح للإنسان هويته الأصلية وهي هوية المخلوق القابل للاتحاد بالخالق. فلمّا شاركنا المسيح في الإنسانية «في كل شيء» صرنا شركاء له في البنوة الإلهية[٣]. ولمّا عاش المسيح اللاهوت في خانة الناسوت، صار الإنسان قابلاً «للتألّه». الله «تبنّانا بيسوع المسيح»، فصرنا حقاً أبناء بالتبنيّ[٤]. . هذا التبنيّ ليس من باب الشريعة الخارجية التي تُوْلي المتبنَّى حقّ الإرث فحسب،

(١) عبرانيين ١٠ : ٤ ـ ٧.
(٢) متى ٢٦ : ٣٩.
(٣) عبرانيين ٢ : ١٧.
(٤) غلاطية ٤ : ٥.

إنه حقيقة باطنية تهب الإنسان الروح القدس، فتقدّسه.

وأما التحرّر من الخطيئة، فهو يبدأ بمغفرة الخطايا. «لقد أزال المسيح الخطيئة بذبيحة نفسه»، فكان دمه «أفضل من دم هابيل»، لأن دم هابيل طلب الانتقام، أما دم المسيح فإنه يطلب الغفران: «هذا هو دمي الذي يُسفَك لمغفرة الخطايا»[١].

تؤمن المسيحية أن يسوع هو الحمل الطاهر الذي حمل خطايا العالم[٢]. ففي العهد القديم، قدّم إبراهيم ذبيحة لله كبشاً عوضاً من ابنه اسحق[٣]. أما في العهد الجديد، فيسوع كان هو نفسه الحمل الذي رفع خطيئة العالم بتقدمة ذاته على الصليب.

مات يسوع في الساعة الثالثة من بعد ظهر يوم الجمعة السابق عيد الفصح. وهي الساعة التي كانت تذبح فيها أمام هيكل أورشليم الحملان الفصحية. ويؤكد انجيل يوحنا هذا الشبه بين يسوع والحمل الفصحي عندما يشير أيضاً إلى أن يسوع وهو على الصليب «لم يُكْسَر له عظم»[٤]، على مثال الحمل الفصحي.

كانت غاية المسيح تقدمة حياته تقدمة «ذبائحية، أظهر من خلالها أن العبادة الحقيقية ليست تقدمة ذبائح الحيوانات، بل تقدمة الذات لتتميم إرادة الله في البرّ والقداسة ـ وهكذا، يقول القديس بولس، «كما أن زلّة إنسان واحد جرّت الهلاك على جميع الناس، فكذلك بِرُّ إنسان واحد يأتي جميع الناس بالبر الذي يَهَبُ الحياة. وكما أنه بمعصية إنسان واحد جُعِلتْ جماعةٌ كثيرة خاطئة، فكذلك بطاعة واحد تُجعل جماعة كثيرة بارّة. فحيث كثرت الخطيئة، فاضت

(١) متى ٢٦ : ٢٨.
(٢) يوحنا ١ : ٢٩.
(٣) تكوين ٢٢ : ١٢.
(٤) يوحنا ١٩ : ٣٦.

النعمة، حتى إنه كما سادت الخطيئة بالموت، تسود النعمة من أجل الحياة الأبدية بربنا يسوع المسيح»[1].

ب ـ قدّم المسيح تكفيراً لا متناهياً عن الخطيئة:

البُعد الثاني الذي عليه يفهم المسيحيون موت يسوع هو «التكفير» عن الخطيئة.

إهانة الله، بالخطيئة، أهانةٌ لا متناهية ـ لأنه إنْ كان الإكرام على قدر المُكرّم، فالإهانة على قدر المُهان ـ والمُهان هنا هو الله بالذات! ولمّا كان التكفير على قَدْر المكفِرّ، اقتضى الأمر أن يكون المكفّر إلهاً ـ هذا الإله هو يسوع المسيح، الذي هو «وسيط عهد جديد. . . قد أقامه الله أداة تكفير بدمه، لفداء المعاصي المُقْتَرَفة»[2].

«تلك هي المحبة، يقول القديس يوحنا نحن لم نحبّ الله، بل هو الذي أحبّنا وأرسل ابنه كفّارة لخطايانا، لا لخطايانا وحدها، بل لخطايا العالم أجمع»[3] ـ من هذه الزاوية، يكون التكفير لا ترضيةً «لغضب» الله، بل ترضية «لمحبته» التي تريد أن تخلّص الإنسان ـ فالنظرة إلى الفداء كإلى عمل قام به المسيح تسكيناً لغضب الله هي نظرة وثنيّة. فالفداء هو أوّلاً عمل محبة الله.

الإيمان في المسيحية هو الإيمان بأن الله محبة. وهذا الإيمان هو كالصخرة الثابتة غير المتزعزعة التي تعطي من يبني بيته عليها الأمان والاطمئنان. والخلاص يقوم في النهاية على اعتناق الإنسان هذا الإيمان بالله المحبة اعتناقاً وجودياً، وليس اعتناقاً عقلياً وفكرياً فقط. فيثبّت عليه أساس كيانه ويحيا به. ويقوم على انفتاح الإنسان على الله مبدأ وجوده وينبوع حياته.

---

(١) رومة ٥ : ١٧ وما بعد.
(٢) عبرانيين ٩ : ١٥.
(٣) ١ يوحنا ٤ : ١٠.

الفصل الخامس

٥ ـ الإيمان بالروح القدس

سبق وقلنا إن عقيدة أساسية من عقائد المسيحية هي الإيمان بالله الواحد. وهذا الإله الواحد تقوم طبيعته على ثلاث صفات ـ فالإله الواحد يوحي بنفسه على أنه الخالق القدير وسيّد الحياة، ويُدعى «الآب» أو «أبانا» ـ وهو الذي أوحى إلينا برسالته ـ أو بكلمته الأزلية في الإنسان يسوع، الابن المخلّص ـ كما أنه الوجود الفعال المحيي في الخليقة، وهذا الوجود هو «الرّوح القدس».

تلك هي العقيدة المسيحية الأساسية، التي بدونها لا وجود لمسيحية متميزة عن سائر الديانات ـ وفي تلك العقيدة موجز للإيمان المسيحي الذي به يتميز المسيحيون عن غيرهم من المؤمنين بالله ـ إلا أن كل تفسير لطبيعة الله المثلثة يُنكِر وحدانيتها، لا يمكن اعتباره تفسيراً صحيحاً للإيمان المسيحي. قال بولس الرسول: «قد يكون في السماء أو في الأرض كثيرٌ من «الآلهة» وكثير من الأرباب، وأما عندنا نحن فليس إلاّ إله واحدٌ وهو الآب»[1]. فعقيدة الثالوث هذه ليست حصيلة تفكير بشري نظري عن الله، ولا نتيجة تطوّر ديني بدأ في ديانات الشرق القديم. بل هي تعبير لاهوتي لسرّ الله الذي ظهر لنا ظهوراً خلاصياً في شخص يسوع المسيح. فالمسيح قد أتى إلينا باسم الله حاملاً إلينا خلاص الله، ومن بعد قيامته أرسل إلينا روح الله. هكذا أوحى لنا الله بذاته أباً يُرسل إلى العالم ابنه المخلّص وروحه القدوس.

(١) اكورنتس ٨ : ٥ ـ ٦.

فمن أين أتت تلك العقيدة، وعلى أي أسس يرتكز هذا الإيمان؟

٥ ـ ١ ـ مفهوم الروح في العهد القديم:

يتخذ حضور الله في الكون والإنسان، إلى جانب حضوره بكلمته وحكمته، نوعاً آخر، هو حضوره بروحه ـ والروح في العهد القديم، هو قدرة الله التي تظهر في الطبيعة وفي الإنسان، ولا سيما في من يختارهم الله من ملوك وأنبياء وكهنة، على أن تشمل جميع الناس في الأزمنة الأخيرة.

٥ ـ ١ ـ ١ ـ الريح:

إن اللفظة العبرية للروح هي «رُوَح» ـ ترد ٣٨٩ مرة في العهد القديم. ولكنها لا تعني فقط الروح القدس أو روح الله. بل أيضاً الريح، أي النسمة ـ نسمة خفيفة كانت أم ريحاً عاصفة ـ وتعني أيضاً نَفس الإنسان وروحه.

لقد اختبر الإنسان أولاً عمل الريح في الكون ونسبه إلى الله ـ ففي الريح سرّ: فهي تارة، تقتلع أشجار الأرز، وتحطم السفن في عرض البحار[١]. وتارة أخرى تتغلغل في صوت نسيم لطيف[٢]، وأحياناً يلفح قيظها الأرض فتجف[٣]، وطوراً تفيض عليها الماء المخصبة التي تبعث الحياة[٤]. غير أن الريح خاضعة لسلطة الله، يستخدمها متى شاء: «هو الذي صنع الأرض بقوته... وهو الذي يبرز الريح من خزائنه[٥].

٥ ـ ١ ـ ٢ ـ روح الإنسان:

فالمعنى الأول للفظة «رُوح» متعلّق إذاً بقوة في الطبيعة تعطيها الحياة. والمعنى الثاني مرتبط بقوّة في الإنسان تعطيه الحياة. فالرُوَح هي نَفَس الإنسان وروحه، «نفخها الله في أنفِه نسمة حياة، فصار الإنسان نفساً حيّة»[٦].

---

(١) حزقيال ٢٧ : ٢٦.
(٢) ١ ملوك ١٩ : ١٢.
(٣) خروج ١٤ : ٢١.
(٤) ١ ملوك ١٨ : ٤٥.
(٥) ارميا ١٠ : ١٣.
(٦) تكوين ٢ : ٧.

وهذه التسمية لا سلطان للإنسان عليها، وإن كان لا يقدر أن يستغني عنها. فهو يموت عندما تتوقف. وكما أنها تصدر من الله، فهي ترجع إليه تعالى عند الموت[1]، وما دامت هذه النسمة الإلهية باقية في الإنسان، فهي ملكٌ له حقاً، وتجعل من جسده الجامد كائناً عاملاً، ونفساً حيّة ـ ومن جهة أخرى، فكلّ ما يتصل بهذه النفس، من الانطباعات والانفعالات، يعبّر الإنسان عنه بنوعية تنفّسه: الخوف والفرح والغضب والزهد. فكلها تغيّر شكل تنفّسه، فكلمة «روح» هي إذن اللفظ المعبّر الأساسي عن الحياة النفسية للإنسان أي عن الروح. ومتى استودع الإنسان روحه في يدي الله[2]، فهو في الوقت نفسه، يلفظ النفَس الأخير، ويستودع في يدي الله كنزه الوحيد أي كيانه ذاته.

وعليه، فالروح في العهد القديم أمرٌ واقعي يمكّن الإنسان، وإن لم يره، أن يشعر به، ويدرك فاعليته. فكما يشعر بعمل الريح في الطبيعة، كذلك يشعر بذاته كائناً يتنفّس وروحه فيه.

٥ ـ ١ ـ ٣ ـ روح الله:

أما المعنى الثالث للفظة «رُوَح»، فهو روحُ الله نفسه.

إن روح الله هو روح القدرة، الذي يعطي الحياة لجميع الكائنات. فهو الذي خلق كل شيء، كما جاء في الآيات الأولى من سفر التكوين: «في البدء خلق الله السماوات والأرض ـ وكانت الأرض خاوية وخالية، وعلى وجه الغمر ظلام، **وروح الله يرفرف على وجه المياه**»[3].

وتؤكد مختلف أسفار العهد القديم أن روح الله هو الذي يعمل في الذين اختارهم ليقودوا شعبه، كالقضاة والملوك والأنبياء ـ إن روح الرب يحلّ عليهم، فيمنحهم قوة إلهية، يجعلهم يعملون ويتكلّمون باسم الرب. أما الذي

(١) أيّوب ٣٤: ١٤ ـ ١٥.
(٢) مزمور ٣٠ : ٦.
(٣) تكوين ١ : ١ ـ ٢.

سيحلّ عليه روح الرب بشكل دائم فهو المسيح، كما جاء في سفر اشعيا: «هوذا عبدي الذي أعضده، مختاري الذي سُرّت به نفسي، قد جعلت روحي عليه»[1]. وفي موضع آخر: «إن روح السيد الرب عليّ، لأن الرب مسحني لأبشرّ المساكين، وأرسلني لأجبر المنكسري القلوب»[2].

وبواسطة المسيح سيحل «روح الرب على جميع الناس ليسلكوا بحسب وصايا الله. هذا ما يعلنه حزقيال «نبي الروح»: «أعطيهم قلباً واحداً واجعل في أحشائهم روحاً جديداً»[3].

باختصار، إن الروح في العهد القديم يظهر على ثلاثة أوجه: يظهر أولاً كقدرة حياة تُحيي كل خليقة. ويظهر ثانياً في كلام الأنبياء والمعجزات التي يقومون بها باسم الله، ويظهر أخيراً كوعد للأزمنة الأخيرة التي فيها سيأتي المسيح ممتلئاً من الروح القدس، وبواسطته سيحل الروح القدس على جميع الشعب وفي داخلهم، كقوّة قداسة وينبوع حياة جديدة.

وفي جميع هذه الوجوه، لا يبدو الروح كقدرة مستقلة عن الله، بل مرتبطة به وحضوره هو حضور واقعيّ وسريّ في آنٍ واحد ـ فالله يعمل بواسطة روحه القدوس في قلب العالم، ولكنه يبقى متعالياً عن العالم.

٥ ـ ٢ ـ مفهوم الروح في العهد الجديد:

من أول العهد القديم إلى آخره، لا يتوقف الروح وكلمة الله عن العمل سوياً. وفي العهد الجديد، فكلمة الله إذ صار جسداً، بفعل الروح، لا يعمل شيئاً دون الروح، كما أن إتمام عمله هو هبة الروح.

وهذا الروح هو الذي حلّ على يوحنا المعمدان وهو في بطن أمه، كما

---

(١) اشعيا ٤٢ : ١.
(٢) اشعيا ٦١ : ١.
(٣) حزقيال ١١ : ١٩.

وعلى أمّه اليصابات يوم زيارة مريم، وعلى أبيه زكريا يوم أعلن عن اسمه[1].

٥ ـ ٢ ـ ١ ـ عمل الروح في المسيح:

إن حضور الروح في يسوع، الذي ظهر فقط ساعة العماد، يرجع إلى أصول كيانه ذاتها، منذ الحبل به حتى قيامته[2]. ففي حياته كلها يُظهر يسوع عمل الروح فيه. فبقدرة الروح، كان يتصرّف في كل شيء. فبالروح جابه الشيطان في الصحراء، وحرّر ضحاياه من قبضته[3]. وبه كان يناجي أباه السماوي[4]. وبه «مُسِحَ» وأُرسل ليبشر الفقراء، ويُنجز المعجزات. ويُعلن «سنَةَ مرضيّة لدى الرب»[5]. وبه سوف يُعمّد، كما تنبّأ يوحنا: «أنا أعمّدكم بالماء للتوبة، وأما الذي يأتي بعدي، فهو يعمّدكم بالروح القدس والنار»[6].

٥ ـ ٢ ـ ٢ ـ المسيح يعد بمنح الروح:

أفضى المسيح لرسُله بسرائر قلبه في خطابه بعد العشاء الأخير ووعدهم بمنح الروح المعزّي ـ وقد حققّ هذا الوعد بعد قيامته ـ فمنذ ظهوره الأول لهم يوم قيامته، منحهم الروح القدس، كما جاء في انجيل يوحنا: «قال لهم ثانية: السلام لكم. كما أن الآب أرسلني، كذلك أنا أرسلكم ـ ولمّا قال هذا، نفخ فيهم وقال لهم: خذوا الروح القدس ـ فمن غفرتُم خطاياهم غُفِرت لهم، ومن أمسكْتُم خطاياهم أُمسِكت»[7].

إن سلطان مغفرة الخطايا هو سلطان إلهيّ. وهذا السلطان قد مارسه

---

(١) لوقا ١ : ١٥ و ٤١، ٦٧.
(٢) لوقا ١ : ٣٥ ـ روما ٨ : ١١.
(٣) متى ٤ : ١ و ١٢ : ٢٨.
(٤) لوقا ١٠ : ٢١.
(٥) لوقا ٤ : ١٨ ـ ١٩.
(٦) متى ٣ : ١١.
(٧) يوحنا ٢٠ : ٢١ ـ ٢٢.

يسوع في حياته، لأن روح الرب كان عليه. والآن، كما أرسله الآب وملأه من روحه، كذلك يرسل بدوره تلاميذه، ويمنحهم الروح القدس، يعني قدرة الآب وسلطانه الإلهي على منح الحياة للناس بمغفرة خطاياهم ومصالحتهم مع الله.

تلك هي المعمودية بالروح القدس والنار التي تكلّم عنها يوحنا المعمدان في تبشيره بالمسيح. والنار هنا رمز التطهير من الخطيئة وتلك هي المعمودية بالروح القدس التي وعد بها يسوع تلاميذه قبل صعوده إلى السماء: «لا تبرحوا أورشليم، بل انتظروا موعد الآب الذي سمعتموه مني - فإنّ يوحنا قد عمّد بالماء، أمّا أنتم فستعمدّون بالروح القدس بعد أيام قليلة»(١).

٥ ـ ٢ ـ ٣ ـ المسيح يمنح الروح:

وفي اليوم الخمسين للقيامة، بعد صعود المسيح إلى السماء، حلّ الروح القدس على الرسل وبعض التلاميذ، في علّية صهيون، إذ «حدث بغتة صوتٌ من السماء كصوت ريح شديد تعصف. وظهرت لهم ألْسنة منقسمة، كأنها من نار، واستقرّت على كل واحد منهم، فامتلأوا كلّهم من الروح القدس(٢).

وانطلقت الكنيسة... وما زال الروح يرافقها بحضوره، في طريقها الشاق الطويل.

٥ ـ ٢ ـ ٤ ـ الروح يجمعنا، والروح يجعلنا أبناء الله:

يؤمن المسيحيون أن الروح القدس يجعلنا أبناء الله. «فهذا الروح عينه يشهد مع روحنا بأنّا أولاد الله»(٣).

الروح القدس هو قدرة الله الخلاّقة، هو علاقة المحبة التي عندما تنسكب

---

(١) اعمال ١ : ٤ ـ ٥.
(٢) أعمال ٢ : ١ ـ ٣.
(٣) رومة ٨ : ١٦.

في قلوب المؤمنين، تجعل منهم آشخاصاً مرتبطين بعضهم ببعض، ومرتبطين بالله.

الروح القدس هو علاقة الله بالبشر، والقدرة التي تربط البشر بالله ـ كأنّ الله، عزّ وجلّ، بروحه القدوس، يخرج من ذاته ويتحد بالناس ليوحّدهم به ـ بالروح القدس، يصير الإنسان والله واحداً ـ «بهذا نعرف أنّا ثابتون فيه وهو فينا: بأنه قد أعطانا من روحه»[1].

تلك هي الكنيسة: حياة الله التي أتت بالمسيح وبالروح القدس الرب المحيي، تنسكب في قلوب البشر، فتجعلهم أبناء الله وهياكل للروح القدس، أي توحّدهم بالله وتوحّدهم بعضهم ببعض، وتصيّرهم جسداً واحداً للمسيح.

---

(١) يوحنا ٤ : ١٣.

الفصل السادس

٦ ـ الكنيسة والأسرار استمرار المسيح

من هم الحواريّون؟ وكيف تأسست الجماعة المسيحية التي تدعى الكنيسة، وهي مستمرة حتى اليوم؟

٦ ـ ١ ـ من هم الحواريّون؟

خلال حياته الأرضية، قام المسيح بجمع وتهذيب تلاميذ كشف لهم عن أسرار الملكوت[١]. فهم، منذ الآن، القطيع الصغير[٢] للراعي الصالح[٣] الذي أخبر عنه الأنبياء[٤]. وهذه أسماؤهم: «أوّلهم سمعان الذي يُقال له بطرس ـ واندراوس أخوه ـ فيعقوب بنُ زَبَدى ويوحنا أخوه ـ ففيليبّوس وبرتُلُماوس، فتوما ومتّى العشّار ـ فيعقوب بنُ حَلْفى وتدّاوس ـ فسمعان الغيور، ويهوذا الاسخريوطيّ ذاك الذي اسلمه»[٥].

وبعد أن اختار المسيح هؤلاء الحواريّين الاثني عشر، قرّبهم إليه كأصدقاء حميمين، وجعل منهم الخلايا الأساسية والرؤساء لشعب الله الجديد[٦]. فأخذ

(١) متى ١٠ : ١٧ .
(٢) لوقا ١٢ : ٣٢ .
(٣) يوحنا ١٠ .
(٤) دانيال ٧ : ١٨ ـ ٢٢ .
(٥) متى ١٠ : ١ ـ ٤ .
(٦) مرقس ٣ : ١٣ ـ ١٩ .

يدرّبهم على رتبة المعمودية[1]. وعلى الكرازة، وعلى محاربة الشياطين، وعلى شفاء المرضى[2]، وعلى الاجتماع باسمه ليصلّوا معاً، وعلى مسامحة بعضهم بعضاً.

إلا أن رسالة هؤلاء الرسل لم تتّخذ طابع الشمولية إلاّ بعد قيامة المسيح من بين الأموات[3].

هذا، وقد كلّف المسيح بطرس، الصخرة الكفيلة بثبات الكنيسة، بمسؤولية الوكيل الذي يفتح ويقفل أبواب المدينة السماوية ـ كما أنه كلّف سائر الرسل، فضلاً عن تجديد العشاء الفصحي[4]، مهمة «الربط والحلّ» التي سوف تقوم خاصة في الحكم على الضمير[5].

وفي فكر المسيح، سوف تدوم مثل هذه الرسالة ما دام العالم. فللرسُل، باعتبارهم شهود المسيح، خلال حياته، وما بعد قيامته، مركزٌ فريد في التاريخ.

ولكن عندما يكلّف المسيح، بعد قيامته، الحواريّين الاثني عشر، بالتعليم والتعميد وتدبير الأمور، ويعدهم بأن يبقى معهم طوال الأيام إلى انقضاء الدهر[6]، فإنه يجعلنا نستنتج دوام هذا التدبير على مدى الأجيال المستقبلة، حتى بعد وفاة الرسل.

وهكذا تفهّمت الجماعة المسيحية الأولى هذه الكلمات، وقد عهدت إلى رؤساء اختارهم الرسل، وكرّسوهم بفعل المبايعة، بمباشرة السلطات الرسولية[7]، ودام ذلك حتى يومنا هذا.

---

(١) يوحنا ٤ : ٢.
(٢) مرقس ٦ : ٧ ـ ١٣.
(٣) أعمال الرسل: ١ : ٨.
(٤) لوقا ٢٢ : ١٩.
(٥) متى ١٨ : ١٨.
(٦) متى ٢٨ : ٢٠.
(٧) ٢ طيموتاوس ١ : ٦.

٦ ـ ٢ ـ **مفهوم الكنيسة:**

كثيرون من المعاصرين لا يتجاوزون، بتصوّرهم للكنيسة، حدود الجانب الإنساني، أي لا يروْن فيها إلاّ جماعة منظمّة أحسن تنظيم، ومكوّنة من أشخاص متحدين في العقائد والعبادة ـ إلاّ أن الكتاب المقدس يقدّمها لإيماننا، بمثابة سرّ ظل مكتوباً في الله منذ الأزل، ولكنه تحقّق جزئياً[١].

فهي سرّ شعب ما زال خاطئاً، ولكنه حائز على عربون الخلاص، لأنه امتداد لجسد المسيح وموطن المحبة ـ وهي سرّ مؤسسة بشرية وإلهية معاً. يستطيع الإنسان أن يجد فيها النور، والغفران، والنعمة، للتسبيح بمجد الله.

وهذه المؤسسة الفريدة، في تصميمها، قد أطلق عليها المسيحيون الأوّلون الناطقون باليونانية، تسمية مستعارة من الكتاب المقدس: «Ekklésia» أي كنيسة، وهي تدلّ على اجتماع الشعب ـ فالجماعة المسيحية الأولى، إذْ أدركت أنها شعب الله الجديد[٢]، الذي كانت ترمز إليه لفظة «كنيسة البريّة»[٣]، قد اعتمدت لفظاً مقتبساً من الكتاب المقدس.

وعليه، فلفظة «كنيسة» هنا، تعني معناها الأول والأساسي، وهو جماعة المسيحيين، لا البناء حيث تُقام شعائر العبادة، ولا الأُطُر التنظيمية التي تطوّرت على مرّ الأيام. وهي توازي كلمة «أمّة» عند المسلمين، لا كلمة «المسجد».

هذا، وفي الكتاب المقدس، تسميات كثيرة للكنيسة، إذا ما أردنا أن نحصرها، تُجمع في ثلاث هي: الكنيسة شعب الله، وهي أسرة روحية يشترك أعضاؤها معاً في حياة الله، وهي «جسد المسيح».

---

(١) افسس ١ : ٩ ـ ١٠.
(٢) ١ بطرس ٢ : ١٠.
(٣) أعمال الرسل ٧ : ٣٨.

٦ ـ ٢ ـ ١ ـ الكنيسة شعب الله:

فالكنيسة، إذ تضمّ جميع المؤمنين بالمسيح، هي إذن شعب الله الجديد. هناك تكامل بين شعب الله في العهد القديم وشعب الله في العهد الجديد.

من هنا، كانت الكنيسة وارثة لماضٍ قديم، يعود تاريخها إلى إرادة الله منذ فجر التاريخ بتكوين شعب له مقدّس، حتى ولو كان أعضاؤه خطأة. وهي وليدة دعوة مجّانية من الله، إذ نشأت عن الخلاص المجاني الذي حصل عليه البشر بالمسيح الذي، بدمه، أنشأ عهداً جديداً مع الله ـ ودعوة الله للدخول في شعبه هي دعوة جامعة تشمل جميع البشر. هذا ما يدعوه المسيحيون الفعل الشامل لروح الله. لذا لا يعتقدون بأن الخلاص يقتصر عليهم دون سواهم، بل هو متوفّر لجميع الذين يستجيبون لدعوة الله، وهو يخاطب كل إنسان.

٦ ـ ٢ ـ ٢ ـ الكنيسة أُسرة روحيّة يشترك أعضاؤها معاً في حياة الله:

الكنيسة هي شعب الله. إن هذا التعريف الأوّل يتضح بالتعريف الثاني الذي يؤكّد أن أعضاء هذا الشعب يشتركون في حياة الله، ورباط الشركة في الحياة الإلهية يجعلهم أخوة في أسرة واحدة. فالكنيسة أسرة روحية تعيش من حياة الله. وكما أن الإنسان يولد في عائلة تعطيه الغذاء والحنان، ويشترك في خيراتها الجسدية والروحية مع أب وأم وأخوة، هكذا يولد المسيحي في عائلة روحية تسكب في قلبه محبة الله للبشر وحياته الإلهية.

هذا، وأن الأخوة المسيحية حقيقة روحية تتخطّى الأخوة البشرية. فهي لا تقتصر على العلاقات بين الأشخاص القريبين بعضهم من بعض، بل تتعداهم إلى جميع الناس في العالم أجمع.. إلى أن تصل البشرية برمتها إلى إدراك حياة الله الواحد، فتسبّح بفم واحد وقلب واحد اسم الله الواحد.

٦ ـ ٢ ـ ٣ ـ الكنيسة «جسد المسيح»:

«لماذا صار الإله إنساناً؟» «لكي يصير الإنسان إلهاً» هذا هو جواب آباء

الكنيسة الشرقية منذ القديس إيريناوس. فغاية التجسّد ليست التكفير عن الخطيئة الأصلية، كما أخطأ البعض في ظنه، بل تأليه الإنسان بولادته ولادة جديدة في المسيح وعلى صورة المسيح. وهذا التأليه لا يزيل الطبيعة الإنسانية، التي تبقى كاملة، ولكنّ النعمة تضفي عليها بُعداً جديداً هو بُعد الاتحاد بحياة الله.

هذا وإن عبارة «جسد المسيح» هي عبارة كتابيّة تحمل معنىً عميقاً، ولكنها تشبيه ـ ولا يمكن أيّ تشبيه، مهما كان غنيّاً، أن يفي بسرّ الكنيسة الكامل. والمقصود هو أن جميع المسيحيين هم أعضاء في شعب الله الواحد، ويبقون أبناء الله الواحد وأخوة للمسيح الواحد، ويحييهم الروح الواحد، وإن وضعوا، بانفصالهم بعضهم عن بعض، عراقيل بشرية تمنع عمل الله الكامل فيهم.

وفي ختام كلامنا عن الكنيسة شعب الله، لا بدّ لنا من التأكيد أن الكنيسة تتمثل أيضاً في السلطة الكنسيّة، ولا سيما في الأساقفة الذين يكملّون كرازة الرسل أساس الكنيسة أنتم بناءٌ أساسُه الرسل والأنبياء. ورأس الزاوية المسيح نفسه»[1]. ونحن بتأكيدنا أن الكنيسة هي أوّلاً الشعب المؤمن، لا نهدف مطلقاً إلى التقليل من أهمية السلطة في الكنيسة، بل إلى إعادة التوازن في الأهمية والادوار بين «الكيان المسيحي» من جهة، «والخدمات المتنوعّة» من جهة أخرى لتنظيم القديسين في سبيل بُنيان جسد المسيح حسب قول بولس الرسول[2].

٦ ـ ٣ ـ الكنيسة والأسرار استمرار حضور المسيح على مدى الزمن:

هذه الكنيسة التي خلقها الله، وأسّسها المسيح، وأحياها الروح الحالّ فيها[3]، موكولة إذن، إلى أيدي البشر، وهم، أوّلاً، الحواريّون الذين اختارهم

(١) افسس ٢ : ٢٠.
(٢) افسس ٤ : ١٢.
(٣) افورنتس ٣ : ١٦.

يسوع بدافع من الروح القدس[1]، ثم، من بعدهم، خلفاؤهم الذين سينالون موهبة التدبير بالمبايعة.

وإذْ أُقيمت الكنيسة، كجسد للمسيح، عن طريق البشارة بالإنجيل، ووُلِدت في معمودية واحدة، تغذّت من خبزٍ واحد، فهي تجمع في شعب واحد أبناء الإله الواحد والأب للجميع - وتزيل الحواجز البشرية وتشمل العالم بأسره.

هذا، ويؤمن المسيحيون بأن المسيح القائم من الأموات يحيا في جماعته ومعها. وأنه ما زال يفعل الأمور التي كان يفعلها مدّة حياته في بلاد فلسطين من تعليم، وصلاة، وخدمات، وشفاء المرضى، وإطعام الجياع، ومسامحة الخطأة، وتكبّد الآلام والموت. تلك الأعمال غير المنظورة التي قام بها المسيح تُصبح منظورة في الحياة التي تحياها الكنيسة بالأسرار. هذا يعني أن المؤمن حين يشترك في أحد الأسرار، فهو يؤمن إذ ذاك بأنه يلتقي المسيح الذي قام من الموت ومنحه نعمة الله المخلّص - كما أنه يؤمن أيضاً أن الأسرار المسيحية تُضفي على الوجود الطبيعي سِمَة دخول الله تاريخ البشرية، فيؤلّهه، ويصير الله «كُلاً في الكل».

٦ - ٣ - ١ - تضفي الأسرار المسيحية على الوجود سمة دخول الله تاريخ البشرية:

ففي العماد مثلاً، تأتلف في عمل رمزي كلّ معاني الوجود ومعاني التاريخ المسيحي، ويتحقّق في المعتمد الخلاص الآتي من الله في شخص المسيح:

- فبالتغطيس يدخل الإنسان الرمز الكوني للأشياء المبهمة التي تمثّلها الماء التي لا صورة لها.

- وإذا بكلمة المسيح تُنشيء، بعمل خلق جديد، حياة جديدة في هذا الإنسان المرتبط بالكون.

---

(١) أعمال الرسل ١ : ٢.

ـ وعبور الماء يوجز بشكل منظور تاريخ البشرية الديني بمجمله. فالإنسان ينتقل من الكيان الذي لا صورة له إلى الشخصية المسيحية المبنيّة على صورة المسيح الكائن الجديد. وبشكل رمزيّ ومسبّق يقبل الموت كمرحلة حاسمة لا بدّ منها. ويؤكد إيمانه بأن جسده سيعبر مع المسيح معبر الموت الخطير.

وهكذا يعتنق التراث المسيحي، في الأسرار، المعاني التي أنشأها المسيح في بعض علامات جوهرية، تتميّز بما فيها من تقارب مع أسس الوجود البشري. من هنا، كانت الأسرار المسيحية تُضفي على الوجود البشري سِمَة دخول الله تاريخ البشرية.

هذا وقد أجمع المسيحيون[1] على أن السرّيْن الأساسييْن هما العِماد والافخارستيا، بالاضافة إلى هذيْن السرّين الأساسيّيْن، يعتقد المسيحيون الارثوذكس والكاثوليك بخمسة أسرار أخرى هي: التثبيت، والزواج المسيحي، والدرّجات المقدسة، والمصالحة، ومسحة المرضى، فيكون مجموع الأسرار سبعة. وقد نكتفي هنا بعرض السرّين الأوّلين: العِماد والقربان المقدس.

٦ ـ ٣ ـ ٢ ـ الأسرار تعبير عن تلاقي الله والإنسان وهي استمرار التجسد:

إن وجود الأسرار في الديانة المسيحية ينتج أولاً من كون الإنسان روحاً وجسداً. ومن كون الله لم يتصل بالبشر إلاّ من خلال الجسد والمادة.

فالإنسان ليس ملاكاً ولا روحاً محضاً، بل هو روح يعبّر عن ذاته في جسد ـ والروح والجسد فيه يتكاملان ـ وكلاهما ضروري لوجوده والتعبير عن ذاته تعبيراً ملائماً في عالم لا وجود فيه للروح منفصلاً عن المادة.

نحن البشر لا نختبر ذواتنا ولا نختبر بعضنا بعضاً إلاّ من خلال الجسد والمادة. هكذا أيضاً اتصل بنا الله عزّ وجلّ، وعبّر لنا عن محبته، أولاً بأقوال

---

(١) هناك ثمة كنائس بروتستانتية قليلة، من أمثال: «جيش الخلاص»، لا أسرار لها.

الأنبياء وأخيراً بتجسّد كلمته في شخص المسيح الذي تكلّم كلام الله وعمل أعمال الله ـ لذا يمكن القول إن الأسرار تهدف إلى متابعة تجسّد كلمة الله في العالم من خلال حياة المؤمنين.

فالأسرار إذن هي التعبير الحسّي من خلال عناصر الكون والمادة عن العلاقة الكيانية التي تربط الله بالإنسان والإنسان بالله ـ إنها التعبير الذي تتحقق من خلاله كل إمكانات الإيمان الصامتة. لذلك تجمع في طيّاتها رموز الجسد واللغة البشرية والجماعة الإنسانية والأرض كلها. وذلك بواسطة الماء والزيت والخبز والخمر والشموع والبخور ـ للاحتفال بحدث الله العظيم والفريد في تاريخ البشرية، حدث دخول كلمة الله عالمنا البشري لتأليهه. لذلك تحضر في الأسرار عناصر الكون كلّها من بشر ومادة. وبقدرة الروح القدس، الذي حضر على المسيح، وحلّ على التلاميذ، ولا يزال يحضر ويحلّ على الجماعة البشرية، تتقدس الجماعة البشرية، لتعمل بدورها على تأليه الكون.

٦ ـ ٤ ـ العِماد:

سبق وقلنا إن الكنيسة امتداد للمسيح، ولاستمرارية وجوده معنا، من خلال الرسل وخلفائهم والأسرار. من أجل ذلك، أوصى المسيح بالتبشير والعِماد ـ وأقام بطرس رئيساً للكنيسة، وجعله حارس الإيمان ـ وقلّد الرسل وخلفاءهم سلطان «الربط والحلّ»، وغفران الخطايا. فوضع تلك القنوات الخلاصية التي نسميها «أسرار البيعة»، لا سيما العِماد والافخارستيا ـ فما هو العِماد؟ وما هي «مفاعيله» في كيان المسيحي وحياته؟

٦ ـ ٤ ـ ١ ـ العِماد انتماء إلى العائلة الإلهية:

العِماد أوّل الأسرار، وأساسها الذي لا بدّ منه ـ أنه الدخول في الجماعة المسيحية ـ وبه يأخذ المعتمِد على عاتقه رسالة الكنيسة عبر الأجيال. ألا وهي الشهادة لأعمال الله الخلاصية في يسوع. ويؤمن المسيحي بأن العماد هو أصلاً

الانتماء إلى العائلة الإلهية، بحيث يصبح المعمّدون مكرّسين ليكونوا بيتاً روحيّاً، وأبناءَ الله، وشركاءَ الطبيعة الإلهية، وبالتالي قديّسين حقاً.

هكذا فهم المسيحيون الأوّلون العماد ـ إنه انضمام إلى عائلة الله، التي تجعل منهم أبناء الله بالتبنيّ[1]. يقول يوحنا في رسالته الأولى: «انظروا أيّ محبة خصّنا بها الآب لنُدعى أبناء الله، ونحن في الواقع كذلك»[2].

٦ ـ ٤ ـ ٢ ـ العِماد سرّ فصحي، ومشاركة في فصح المسيح:

يقوم العماد عادة على تغطيس كلّي أو على الأقل، برشّ الماء على الرأس. ويتبع ذلك سرّ المبايعة، الذي به ينال المؤمن موهبة الروح القدس الكاملة وحسب القديس بولس يمثل التغطيس موت المسيح ودفنه، ويرمز الخروج من الماء إلى القيامة بالاتحاد معه.

فالعماد إذاً سرّ فصحيّ ـ ومشاركة في فصح المسيح ـ فالمعتمِد يموت من حيث الخطيئة، ويحيا من أجل الله في المسيح، وهو يحيا بحياة المسيح ذاتها[3].

والمسيحيّ لا يُعمّد إلاّ مرة واحدة. عندما يدخل في الجماعة المسيحية. أمّا الصيغة التي غَلُب استعمالها، فهي مشتقّة من انجيل متى: «إني أعمّدك باسم الآب والابن والروح القدس»[4]. وبعض الكنائس البروتستانتية تعمّد باسم يسوع فقط.

هذا وانّ العماد باسم يسوع المسيح يعني أن المعتمِد يخصّ المسيح، وأنه باطنياً شريك له. وهذا الأثر الرئيسي واردٌ تفصيلاً في صور مختلفة. فالمعمَّد

(١) غلاطية ٤ : ٥.
(٢) ١ يوحنا ٣ : ١.
(٣) غلاطية ٢ : ٢٠.
(٤) متى ٢٨ : ١٩.

يلبس المسيح وهو واحد معه[1]. وكلّ الذين يقبلون العِماد يكونون، فضلاً عن ذلك، متحدين بعضهم ببعض في وحدة المسيح ذاتها. فإنهم لم يعودوا بعد إلاّ روحاً واحداً مع المسيح.

ويفترض العِماد باسم يسوع، استخدام صيغة معينة كان يُذكر فيها المسيح وحده ـ أمّا الصيغة القائمة على الثالوث، والتي غلب استعمالها فيما بعد، فهي مقتبسة من انجيل متى كما ذكرنا، وهي تعبّر بصفة ممتازة عن أن المعتمِد متّحد بالله في وحدانيته القائمة في ثلاثة أوجه. فالمؤمن يصير في العماد هيكلاً للروح، وابن الآب «بالتبنِّي»، والأخ الوارث مع المسيح، الذي يحيا صميم حياته، ويُعدّ لمشاطرة مجده[2].

٦ ـ ٤ ـ ٣ ـ العِماد ولادة جديدة ومشاركة في حياة الله:

ومن الواضح جداً أن السر لا يعمل بطريقة سحرية ـ وإنما الاهتداء الكامل الذي يشترطه ينبغي أن يكون نقطة انطلاق لحياة جديدة في أمانة لا تتزعزع.

فالمسيحيّ لا يدرك أبعاد عماده، أي اتحاده بموت المسيح وقيامته، إلاّ على مدى الحياة كلّها، التي تتطلّب منه موتاً مستمراً عن الخطيئة، وقيامة دائمة إلى حياة المسيح. وانطلاقاً من هذا الالتزام، يتخّذ العماد كلّ معانيه وأبعاده. إنه ولادة جديدة «بالروح» تؤلّه المعتمِد إذْ تملأه من روح الله. فلا يعود غريباً عن الله، بل يدخل في عائلة الله، ويجعل من الله مبدأ أعماله «ومحور حياته».

٦ ـ ٥ ـ سرّ القربان المقدس أو سرّ «الافخارستيا» ـ (القداس الإلهي):

ليس القربان المقدس، في نظر المسيحي، «واحداً من الأسرار السبعة» وحسب، بل هو العمل الأساسي في الإيمان المسيحي وشعائر العبادة المسيحية. وإنه في الوقت نفسه الذكرى والتأوين لعشاء يسوع الأخير مع

---

(١) غلاطية ٣ : ٢٧.

(٢) رومة ٨ : ٢ ـ ١٧.

تلاميذه في الليلة التي سبقت موته. ففي أثناء ذلك العشاء أعطى يسوع تلاميذه الخبز والخمر على أنهما جسدُه ودمُه[1].

ويؤمن المسيحيون أنه، لما يشتركون في هذا العشاء، يكون المسيح موجوداً معهم وجوداً جسدياً. ويؤمنون أيضاً أنه كما أُبرِم العهد بين الله والشعب اليهودي بدم الذبائح على جبل سيناء، فكذلك يُبرَم العهد الجديد بين الله والبشر بدم يسوع المسيح.

تعني كلمة «افخارستيا» مبدئياً: عرفان الجميل والامتنان، وبالتالي ابداء الشكر. هذا المعنى، وهو الأكثر تداولاً في اللغة الاغريقية العادية، نجده أيضاً في النص اليوناني للكتاب المقدس، خاصة في مجال العلاقات الإنسانية. أما في العلاقة بالله، فإن الشكر يأخذ عادة شكل صلاة، كما في بداية رسائل بولس. وقد يكون الشكر مصحوباً «بالتذكار» ومرادفاً للتسبيح[2].

الشكر هو إحدى العواطف الإنسانية التي تصير عاطفة دينية عندما تتجه نحو الله عزّ وجل، فتعترف بوجوده وبصنائعه. تعترف بوجوده كخالق حرّ يفيض على العالم محبته ورحمته وسخاءه. وتعترف بصنائعه معلنة أنه وحده مبدع كل المخلوقات والمانح الحياة والخلاص لكل إنسان.

أليس جوهر كل دين وكل صلاة قائماً على أن يرفع الإنسان قلبه إلى الله، فيسبّحه ويمجّده ويباركه ويشكر له ما أفاضه عليه من محبة ومغفرة وعطاء؟

القربان هو أوّلاً سرّ الشكر لله الآب الذي خلقنا وأدخلنا في عهد جديد معه بواسطة ابنه يسوع المسيح، وهو أيضاً سرّ حضور المسيح المخلّص في تجسده وحياته وعشائه الأخير مع تلاميذه، وموته وقيامته ومجيئه الثاني. وهو أخيراً سرّ حضور الروح القدس الرب المحيي، الذي يحوّل القرابين المقدمة إلى

(١) راجع متى ٢٦ : ٢٦ ـ ٣٠.
(٢) ١ كورنتس ١٤ : ٦ ـ ١٨.

جسد المسيح ودمه، ويكوّن الكنيسة، على رجاء الاحتفال بالوليمة السرّية في ملكوت السماوات.

فقانون الإيمان والاحتفال الافخارستي سبيلان يعبّر المسيحيون من خلالهما عن ايمانهم بالله الحي: بالآب مبدأ الوجود، والابن مصدر الخلاص والروح القدس ينبوع الحياة.

إذن، سرّ القربان المقدس، حسب الدين المسيحي، هو أوّلاً سر الشكر، فيه نرفع قلوبنا إلى الله لنشكر له كلّ ما انعم به علينا من إحسانات منذ الخلق، ونقدّم له من مخلوقاته ومن صنع أيدينا قرابين هي رمز عطاياه ورمز عطيّة ذواتنا له. هذا ما يمكن تبيانه من خلال جولة في معنى الذبائح والقرابين في الأديان عامة وفي العهد القديم.

إلاّ أن أعظم عطيّة منحنا إياها الله، وتشكّل هي نفسها قرباننا ومحور اجتماعنا الافخارستي، هي ابنه يسوع المسيح. في العهد القديم كان الناس يقدّمون قرابينهم لله من مخلوقاته ومن صنع أيديهم. أما في العهد الجديد، فما نقدّمه لله هو ابنه يسوع المسيح. فهو نفسه قرباننا الذي نقدمه بشكل سرّي من خلال مخلوقات لا تزال في آنٍ واحد معاً عطية الله لنا وصنع أيدينا: بعض الخبز وبعض الخمر. في سرّ القربان، نشكر لله محبته لنا التي ظهرت في ما أنعم به علينا من مخلوقات وما صنعه تجاهنا من أعمال ومعجزات، ونشكر له بنوع خاص محبته لنا التي ظهرت في أقصى حدودها في إرسال ابنه يسوع المسيح إلينا مخلّصاً وفادياً.

ثم يلي الشكر ذكر العشاء الأخير وكلمات التقديس، ثم ذكر موت المسيح وقيامته وتقدمة القرابين، ثم استدعاء الروح القدس على القرابين ليجمع في الوحدة كل الذين يشتركون في هذه الأسرار المقدسة.

إن الروح القدس الذي، في سرّ التجسد، كوّن جسد المسيح في أحشاء مريم العذراء، هو الذي في سرّ القربان، يحلّ على القرابين ليجعل منها جسد

المسيح ودمه. وهو أيضاً الذي يحلّ على المؤمنين الذين يتناولون جسد المخلّص ودمه ليجعل منهم الكنيسة جسد المسيح. فالكنيسة جسد المسيح، ومسكن الروح القدس، هي التي تُقيم سرّ القربان. ولكن سرّ القربان هو الذي يجمع أبناء الله المشتّتين في أنحاء المسكونة كلها، ليصيروا جسداً واحداً، فتتكوّن «كنيسة معترفة»، تعترف وتمجّد وتسبّح بفم واحد وقلب واحد اسم الإله الواحد، الآب والابن والروح القدس.

من هنا تتضح أهمية المناولة في القداس الإلهي. فبالمناولة يتم اتحاد المؤمن اتحاداً كيانياً عميقاً بشخص السيد المسيح الذي هو الملكوت في ذاته. ويتاح له أن يقول مع بولس الرسول: «لستُ أنا حيّاً بعد، بل هو المسيح يحيا فيّ»[1].

العهد القديم، بدم الذبائح، كان يقود الإنسان إلى المصالحة مع الله. أما العهد الجديد، بدم يسوع المسيح، فيقودنا إلى أن نحيا حياة الله: «من يأكل جسدي ويشرب دمي، فله الحياة»[2]. والحياة الإلهية هي أسمى ما يتوق إليه الإنسان.

ففي هذا السرّ نحصل على تلك الحياة وندخل في الملكوت السماوي دخولاً سرّياً على رجاء الدخول الكامل في مجد الله في الدهر الآتي، حيث نشاهد الله وجهاً لوجه، ونكون مع الرب إلى الأبد.

وأخيراً، لا بدّ لنا من الإشارة إلى أنّ سرّ القربان هو أيضاً سرّ «**إحياء الذكر**» لكل ما صنعه الله تجاه الإنسان منذ الخلق حتى الخلاص، «اصنعوا هذا لذكري»[3].

إن أعمال محبة الرب كلها من الألف حتى الياء تتجمّع في هذا الذّكر،

(١) غلاطية ٢ : ٢٠.

(٢) يوحنا ٦ : ٥٤.

(٣) لوقا ٢٢ : ١٩.

فتحوّل الزمن المتقلّب المعرّض للموت والانحلال إلى زمن ممتلىء من كثافة حضور الله. والذكر ليس مجرّد عودة إلى الماضي، بل هو **تجاوز لانقسام الزمن** إلى ماضٍ وحاضر ومستقبل، ودخول في الحياة التي تحيي، في ذاكرة الله المحيية حيث كل شيء هو لنا «العالم، والحياة، والموت، الحاضر والمستقبل»، لأننا «نحن للمسيح، والمسيح لله»[1].

(1) ١ كورنتس ٣ : ٢٢ ـ ٢٣.

الباب الثالث
الأخلاق المسيحية

الفصل الأول

١ ـ الحياة بالروح

١ ـ ١ ـ الدين المسيحي دعوة شاملة لروحنة الإنسان:

يتوسّع العهد الجديد، ولا سيما بولس الرسول، في الحياة بالروح، التي يجب أن يحياها أبناءُ الله. «فإذا كنّا نحيا حياة الروح، فَلْنَسِرْ أيضاً سيرةَ الروح»[(١)]. أي إنْ كانت حياة المسيحي هي من الروح، فينبغي أن يكون سلوكه بحسب الروح ـ «لأن شريعة الروح الذي يهب الحياة، قد حرّرته من شريعة الخطيئة والموت»[(٢)] فإذا ما تجدّد المؤمن وتحوّل بروح الله، استطاع أن يطيع مشيئة الله. فهي لم تعُدْ إكراهاً يُفرَض عليه من الخارج، بل صارت الشريعة الباطنية لحياته الروحية. فالمسيحي الحقيقي هو الذي يقبل عمل «الروح» ـ فيستسلم لهذا العمل «بالإيمان»، ويتحد به بممارسة المحبة.

فالإيمان والمحبة والرجاء هي المواقف التي يمتاز بها المسيحي، وهي أيضاً بُنية الحياة بالروح ـ ويتابع بولس قائلاً: «اسلكوا سبيل الروح، فلا تَقْضوا شهوة الجسد، لأن الجسد يشتهي ما يخالف الروح، والروح يشتهي ما يخالف الجسد، كلاهما يقاوم الآخر، حتى إنكم تعملون ما لا تريدون ـ ولكن، إذا كان الروح يقودكم، فلستم في حكم الشريعة»[(٣)].

(١) غلاطية ٥ : ٢٥.
(٢) رومة ٨ : ٢.
(٣) غلاطية ٥ : ١٦ ـ ١٨.

وهنا، لا بدّ لنا من التوقّف قليلاً عند مفهوم الشريعة في فكر بولس، وما يعني بقوله هذا؟ ففي فكر بولس، لا يتبرّر الإنسان إلاّ عن طريق الإيمان، ولا بقوة الأعمال[1] ـ هل يعني ذلك أنه لم يعُد هناك قاعدة سلوك محدّدة للذين يؤمنون بالمسيح؟ حاشا وكلاّ ـ لأنه وإنْ كانت القواعد الشرعية والطقسية الخاصة بتنظيمات بني إسرائيل، قد تقادمت، إلاّ أن المثل الأعلى الأخلاقي في الوصايا لا يزال قائماً ـ وهو ملخّص في وصية المحبة، التي هي تمام الشريعة وكمالها[2]، وتنفيذ هذا المثل الأعلى عملياً هو ثمرة من ثمار الروح[3].

إذن، ليست المسيحية شريعة بل هي روح. والعمل الخُلقي هو تحقيق دعوة الله إلى الإنسان لينمو في الكيان ويصير على مثال الله ـ إذْ «ليس كل من يقول لي: يا رب، يا رب! يدخل ملكوت السماوات، بل الذي يعمل إرادة أبي الذي في السماوات»[4].

صحيح أنه إذا نظرنا إلى الشريعة من الوجهة الأخلاقية، نرى أنها تعطي معرفة الخير، وليس القوّة اللازمة لصنعه[5]. وهي تبيّن ماهية الخطيئة[6]، ولكن لا تعطي القدرة للتغلّب عليها[7]. لذلك لا بدّ من قوة الروح، لنصبح روحانيين، ممتلئين من الروح القدس، فنحيا في حياتنا بحسب الروح، فنقترب من سرّ الله.

١ ـ ٢ ـ بين الجهاد الروحيّ والعمل الخلقي:

«أريد أن أفعل الخير، وإذا الشرّ حاضرٌ لديّ»[8].

هكذا يعبّر بولس الرسول عن اختبار يقوم به كل إنسان في حياته، وهو

---

(١) غلاطية ٢ : ١٦.
(٢) رومة ١٣ : ٨ ـ ١٠.
(٣) غلاطية ٥ : ١٦ ـ ٢٣.
(٤) متى ٧ : ٢١.
(٥) رومة ٧ : ١٦ ـ ١٧.
(٦) رومة ٣ : ٢٠.
(٧) رومة ٩ : ٣١.
(٨) رومة ٧ : ٢١.

اختبار التناقض بين ما يريده من الخير وما يصطدم به من الشر. وهذا التناقض بين الخير والشر في حياة الإنسان وأعماله يكوّن ما تدعوه مختلف الفلسفات والأديان «الأخلاق». فما الذي يميّز نظرة «الأخلاقية المسيحية» إلى الخير والشر؟

يميّز بولس بين أعمال الجسد[1] وثمر الروح ـ فيجعل المنكِرات في أربع فئات. «الدعارة» وهي تُفسد الحب البشري. و «عبادة الأوثان والسحر» وهما فساد للعبادة الإلهية. و «الشقاق» وهو يكشف عن قلّة المحبة. «والإفراط في الأكل» وهو يكشف عن انحطاط الإنسان. إذن، ليس التحرّر من الشريعة حرّية ارتكاب ما تنهى عنه، بل التحرّر ممّا يصرف الإنسان عن دعوته الصحيحة.

ويتكلّم بولس عن «ثمر الروح» وهو واحد، أي «المحبة»، وليس ما يعدّده بعد ذلك، إلاّ علامات سيادة المحبة، «كالفرح والسلام». ومظاهر هذه المحبة «كالصبر واللطف وكرم الأخلاق». وشروط نشأتها ونموّها، «كالإيمان والوداعة والعفاف».

وهذه الأعمال لا تُفرض على الإنسان من الخارج، بل تنبع من داخله بذاتية وحرّية، لأنه «حيث يكون الربّ، فهناك الحرية»[2]. لا شك أن الإنسان لا يصنع عندئذ إرادته بل إرادة الله ـ ولكن، بالروح القدس الذي أُفيضَ في قلبه، وصار مبدأ أعماله، تصبح إرادة الله إرادته، ورغبة الله رغبته. وضمن هذه النظرة المروْحِنة للإنسان، يجد الجهاد الروحي كل معناه، والعمل الخلقي كل مغزاه.

هذا، وكما أن الشجرة الصالحة تنتج ثمراً صالحاً، هكذا الروح الذي يملأ قلب الإنسان من الداخل يثمر فيه ثماراً صالحة. «أما ثمر الروح، فهو المحبة والفرح والسلام، والصبر واللطف وكرم الأخلاق، والإيمان والوداعة والعفاف.

(١) غلاطية ٥ : ١٩ ـ ٢١.
(٢) ٢ كورنتس ٣ : ١٧.

وهذه الأشياء، ما من شريعة تتعرّض لها»[1]. فالسلوك المستوحى من الروح، لا يستوجب الذمّ أبداً ـ يقول القديس اغسطينوس في هذا المعنى: «أَحْبِبْ واعملْ ما تشاء».

١ ـ ٣ ـ «تخلّقوا بأخلاق الله»[2]:

«كونوا رحماء كما أن أباكم رحيم»[3]:

منذ بداية الكتاب المقدس حتى نهايته، يظهر الله حنانه تجاه الشقاء البشري. من هنا، كانت قاعدة السلوك المسيحي الواجب اتباعها هي «التخلُّق بأخلاق الله».

هناك قاعدة سلوكية في الإنجيل، تقدم الله نفسه كمثال للكمال، ينبغي الاقتداء به: «كونوا أنتم كاملين، كما أن أباكم السماوي كامل»[4].

هذه الوصية المدهشة، تحتلّ في العهد الجديد المكانة التي كانت تشغلها في العهد القديم وصية سفر اللاويين: «كونوا قدّيسين، لأني أنا قدّوس»[5].

أمّا الكمال الذي دعي إليه أبناء الله، فهو كمال المحبة[6]، وهو يقوم في إبداء الرحمة ـ «كونوا رحماء كما أن أباكم رحيم».

هذه الرحمة هي كناية عن محبة عالمية شاملة، عن حب يمتد ليشمل أيضاً العدو والعامل على الاضطهاد ـ فإذا كانت قاعدة السلوك شريعة كمال، واقتداء بكمال الله، وجب على المسيحي أن يكون قلبه عامراً بالعطف والشفقة[7]، لأنّ

---

(١) غلاطية ٥ : ٢٢ ـ ٢٣.
(٢) افسس ٥ : ١.
(٣) لوقا ٦ : ٣٦.
(٤) متى ٥ : ٤٨.
(٥) لاويين ١١ ـ ٤٥.
(٦) رومة ١٣ : ٨ ـ ١٠.
(٧) افسس ٤ : ٣٢.

محبة الله لا تستقرّ إلاّ فيمَنْ يمارسون الرحمة[1]، وان يغفِر لمن أساء إليه، لأن الله قد منحه رحمته.

«تخلّقوا بأخلاق الله». إنه لهدف متعذّر المثال. لذلك لا بدّ من قوة الروح، ومن الحياة بالروح ـ فالمؤمن، إذ ينقاد بالروح لكي يحيا مع ربه حوار المحبة، يقترب من سرّ الله ذاته، لأن الله محبة.

يقول بولس الرسول: «لو تكلّمت بلغات الناس والملائكة، ولم تكنْ لديّ المحبة، فما أنا إلاّ نحاس يطنّ أو صنج يرنّ ـ ولو وُهبت لي النبوءة وكنت عالماً بجميع الأسرار، عارفاً كل شيء، ولي الإيمان الكامل أنقُل به الجبال، ولم تكن لديّ المحبة، فما أنا بشيء ـ ولو فرّقْتُ جميع أموالي، وقدّمْت جسدي ليُحرَق، ولم تكنْ لديّ المحبة، فما يجديني ذلك نفعاً ـ المحبة لا تزول أبداً. . فالإيمان والرجاء والمحبة هي الثلاثة الباقية، وأعظمها المحبة»[2].

لم ينطق بولس بهذه الأقوال بدافع الهام شعريّ، وإنما نطق بها بوحي من الروح القدس ـ فهو قال أيضاً: «من أحبَّ القريب، فقد أتمَّ الشريعة، فإن جميع الوصايا: لا تزْنِ، لا تسرِقْ، لا تشهد بالزور، لا تشتهِ، وكل وصيّة أخرى تُلخّص في هذه العبارة: أحببْ قريبك حُبّكَ لنفسك ـ إن المحبة لا تصنع شرّاً بالقريب ـ فالمحبة هي إذاً إتمام الشريعة»[3].

وهكذا يكرّر بولس تعليم الربّ لتلاميذه قبل أن يغادرهم، إذ قال: أحِبّوا بعضكم بعضاً كما أنا أحببتكم»[4] وأضاف: «أحبّوا أعداءكم وأحسنوا إلى من يُبغِضُكم، وصلّوا لأجل من يعنّتكم ويضطهدكم لتكونوا بني أبيكم الذي في السماوات لأنه يطلع شمسه على الأشرار والصالحين ويمطر على الأبرار

---

(١) ١ يوحنا ٣ : ١٧.

(٢) ١ كورنتس ١٣.

(٣) رومة ١٣ : ٨ ـ ١٠.

(٤) يوحنا ١٥ : ١٢.

والظالمين. . . فكونوا كاملين كما أن اباكم السماوي هو كامل»[1].

وهنا يجدر الإشارة إلى أن المسلمين هم على علم مع الإمام الغزالي بأن المؤمنين قالوا قديماً: «تخلّقوا بأخلاق الله وذلك في اكتساب محامد الصفات التي هي من صفات الإلهية من العلم والبر والإحسان واللطف وإفاضة الخير والرحمة على الخلق والنصيحة لهم وإرشادهم إلى الحق ومنعهم من الباطل»[2].

ألا يؤدّي بنا هذا المنهج إلى تبادل الصفات، ذلك التبادل الذي يشير إليه حديث قدسيّ مشهور جاء أيضاً في كتاب الأحياء للغزالي: «لا يزال يتقرّب العبد إليّ بالنوافل حتى أحبّه. فإذا أحببتُه، كنتُ سَمْعَه الذي يسمع به، وبصرَهُ الذي يُبصِر به ولسانَهُ الذي ينطق به»[3].

من هنا كانت الرغبة هي نفسها عند المسلمين والمسيحيين في الاعتراف بحقوق الله والطاعة لأوامره. فيجتهدون كلهم في أن يعامل بعضهم بعضاً معاملة تناسب ما سبق الله فقرّر لسعادة البشر ـ فالوصايا التي وردت على لسان موسى النبي في العهد القديم لا تزال موجز الأخلاق المسيحية والاسلامية في علاقة المؤمن بالله وعلاقته بالقريب.

كذلك الصلاة والصدقة والصوم أمور مشتركة في المسيحية والإسلام، وإنْ اختلفت طرق تطبيقها. ولكن جوهرها واحد، وهو الاتحاد بالله والتجرّد عن اللذات الأنانية وعن الطمع، وعن الشهوة المضرّة، في سبيل مساعدة الفقراء المحتاجين. كذلك نجد في أخلاق الديانتين أموراً كثيرة مشتركة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

---

(١) متى ٥ : ٤٤ ـ ٤٨.
(٢) الغزالي: إحياء علوم الدين ـ كتاب المحبة.
(٣) الغزالي: إحياء علوم الدين ـ كتاب المحبة.

١ ـ ٤ ـ مواطن الالتقاء على صعيد الأخلاق بين المسيحية والإسلام:

يحاول المسيحيون والمسلمون على السواء، كلٌّ منهم حسب مذهبه، وفاءً لنظرهم إلى الله والإنسان والتاريخ، أن يكونوا خاضعين لمشيئة الله وأحكامه الخفية. فالمسيحيون يقولون، كما يؤكّد الإسلام على حق، أنه لا خلاص للإنسان إلاّ بالإيمان إذ يكرّرون مع صاحب الرسالة إلى العبرانيين: «بغير إيمان لا يستطيع أحد أن يرضي الله»[١]. فيتّضح من ذلك أن أعمال الإنسان كلها هي طاعة الله، فيستطيع المسلمون والمسيحيون أن ينشدوا مع صاحب المزامير: «أدللني يا رب على طريق رسومك، فاتبعه إلى النهاية»[٢]

١ ـ ٤ ـ ١ ـ بين العلم والإيمان والوثنية الحديثة:

إلاّ أن الإيمان بالله يواجه اليوم الكثير من تحدّيات العالم المعاصِر. فأكثر المذاهب الفلسفية كالنيتشية مثلاً، وتحليل النفس، والوجدانية، والبنيوية، تهدّد الإيمان بالله، لأنها تقصد النقد السلبي الهدّام لهذا الإيمان. من هنا كان علينا أن نتابع جهدنا في اكتشاف جميع أبعاد الإيمان بالله، خاصة تلك الأبعاد التي توافق ما تنتظره الثقافة العلمية المعاصرة من التنسيق والانسجام بين العلم والإيمان. هذا هو الموطن الأول للالتقاء في أبحاثنا الدينية، هذا اليوم.

هناك موطن آخر يقف تجاه الأوثان الجديدة، تلك التي تستبدّ بالمخلوقات والعباد باسم الدولة أو الجنس أو المال، باسم التقنيّة أو الانتاج أو الاستهلاك، باسم السمعة الفارغة أو الحرية الفاسدة أو السعادة المزيفة. إنسان اليوم ينتظر تحريراً جديداً يمكنه من الاعتراف بالله وبذاته وبانسانيته، من خلال تعزيز العدالة الاجتماعية والمناقب الخلقية والسلام والحرية.

إيماننا بالله هو الأساس بالذات لمثل هذا الالتزام في خدمة البشر أجمعين، لأنه يوجد في كل واحد منهم ذلك الإنسان الذي «خلقه الله على

---

(١) عبرانيين ١١ : ٦.
(٢) المزامير ١١٨ : ٣٣.

صورته ومثاله» كما يأتي في أول التوراة[١] وفي الحديث نفسه[٢].

١ ـ ٤ ـ ٢ ـ في سبيل احترام الحياة أينما كانت مهدّدة:

إن الحياة أول النعم التي أنعم بها الخالق علينا، فلا يحقّ للإنسان أن يتصرّف بها على هواه ـ هذا ما صرّح به قداسة البابا بولس السادس في رسالة عامة تحت «**عنوان الحياة**» البشرية[٣]. في تنظيم النسل والأبوة المسؤولة مع الاحترام التام لطبيعة الوِصال الزوجي ومقاصده النهائية. ومع الوفاء الكامل بما رسمه الله لنقل الحياة من جيل إلى جيل.

فبناء على إيماننا بالله الحي الذي يحب الحياة ويريد أن تمنح للجميع أثمارها الكثيرة يلتزم المؤمن باحترام الحياة أينما كانت مهدّدة. فنخدم المرضى والمحتضَرين في المستشفيات، ونعمل سوياً لتطوّر الأبحاث الطبيّة والمناهج العلاجية في المختبرات ـ ونستنكر الإجهاض الاصطناعي، والإماتة السابقة لأوانها في المجتمعات الإباحيّة، وننكر الأساليب السهلة الميسّرة في ميدان تنظيم النسل. ونرفض الحروب والتجارب المميتة للبشر في جميع أنحاء العالم.

١ ـ ٤ ـ ٣ ـ الدفاع عن الكرامة المطلقة والقيم البشرية:

وبناء على إيماننا بالله العادل الذي خلق خيرات هذه الدنيا لمنفعة سكانها كافة، نقاوم كل أنواع التمييز بين البشر ونكافح ضدّ التوزيع السيّىء للثروات الطبيعية وضدّ التخلّف الاقتصادي في سبيل تقدّم الشعوب. كما أننا ندافع عن القيم التي هي من توابع الحرية نفسها، لأن الحرية وحدها تفيض في قلب المؤمن الرضى الناتج عن عبادة الله دون إكراه. كما أننا نجتهد في سبيل التآخي الدولي مع احترام الثقافات الوطنية ـ وبناء على إيماننا بالله الذي هو رحيم غفور

---

(١) التكوين ١ : ٢٦.

(٢) الغزالي: إحياء علوم الدين ـ كتاب المحبة.

(٣) ٢٥ تموز ١٩٦٨.

نرفض كل روح انتقامي وكل قضاء ظالم، لأن الرحمة البشرية تشهد في هذه الدنيا لتلك الرحمة الإلهية التي لا حدّ لها ولا نهاية.

إن المؤمنين الملتزمين لإيمانهم إذا ما عملوا هكذا في خدمة الحياة والعدالة والحرية والأخوة وسائر القيم الأخلاقية، فقد يبدون البرهان القاطع على أن إيمانهم بالله ذو فعالية للبشر وقابل للتصديق عندهم. فالجماعة المسيحية تزعم منذ عشرين قرناً تقريباً أنه «إن قال أحدٌ إني أحب الله وهو مبغض لأخيه، فهو كاذب، لأن من لا يحبّ أخاه الذي يراه، كيف يستطيع أن يحبّ الله الذي لا يراه»[1]. وجاء في القرآن: ﴿**اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون**﴾[2] ـ فهكذا سيصل التاريخ إلى مقصده، وتلتحق المسكونة بكمالها، ألا وهو المثول بين أيدي رب العالمين.

(١) ١ يوحنا ٤ : ٢٠.

(٢) قرآن ٩ : ١٠٥.

الفصل الثاني

٢ ـ الحياة الرهبانية

٢ ـ ١ ـ عودة إلى الحياة المسيحية في القرون الثلاثة الأولى:

لدينا وثائق عديدة تساعدنا على وصف سيرة المسيحي في القرون الثلاثة الأولى. كان الإيمان الحيّ العميق يستولي على قلبه وعقله، فيجعله رجل عقيدة راسخة يؤمن بالله الخالق الواحد، وبالسيد المسيح. ويؤهّبه لأن يكون في كل لحظة مستعداً لسفك دمه في سبيل الإيمان.

وكان المؤمن ينتمي إلى جماعة المسيحيين انتماءً رسمياً عندما يقبل سرّ العِماد ـ وكان حضور القداس الإلهي يوم الأحد أقدس أعماله وأعظمها.

وكانت هذه الأسرار المقدسة تفرض عليه أن يحيا حياة نقاء وزهد ومحبة. من هنا، اتصفت حياة المسيحيين الأوائل بنبل الأخلاق وسموّ العواطف، ونقاوة السيرة، وممارسة المحبة الأخوية المتبادلة في عالم وثنيّ غليظ عمّ فيه اللّهو وانتشر الفِسق وسيطرت القساوة وشراسة الأخلاق.

وبُنيت الأسرة المسيحية على المساواة الطبيعية بين الرجل والمرأة، وعلى الأمانة الزوجية المتبادلة، وعامل المسيحيون الأثرياء عبيدهم معاملة رقيقة، فأزال حنان الروح المسيحية في بادىء الأمر كلّ ما في نظام الرقيق من حدّة واستبداد، إلى أن ألغاه تدريجياً إلغاءً تاماً.

واستنكر المسيحيون حياة البَذْخ والتَّرف والتبذير، فأخذوا يوزَعون على

الفقراء والمحتاجين ما فاض عنهم من أموال وخيرات مادية.

ولم تظهر إلى الوجود بعد في ذلك العهد الحياة النُسكية والرُهبانية، إلاّ أن بعض المسيحيين قد حافظوا على البتولية مع بقائهم في العالم بين الناس، وانصرفوا إلى العمل في سبيل الله وحده.

٢ ـ ٢ ـ نشأة الحياة الرُهبانية في أواخر القرن الرابع:

نشأت في آخر القرن الرابع ظاهرة جديدة في العبادة المسيحية، ألا وهي الحياة الرهبانية ـ فقد رغب الكثيرون في اتباع الكمال المسيحي. فتركوا العالم وتوغلّوا في البراري والقِفار ـ وعاشوا فيها عيشة الفَقر والعبادة الخالصة. ولجأ البعض إلى البرّية هرباً من الاضطهاد. فاستساغوا الحياة المنعزلة ـ وانقادوا إلى التأمّل والصلاة، فلم يعودوا إلى ديارهم عندما عاد السلام إلى الكنيسة.

واطلعت الكنيسة على أوضاع النسّاك والرُّهبان، فاعترفت بها وأقرّت صيغتها الرسمية، ونظمت شؤونها الروحية والمادية.

٢ ـ ٣ ـ الحياة الرهبانية في بداياتها:

ابتدأت الحياة الرهبانية في مصر بالعيشة النسكيّة المنعزلة تمام الانعزال عن ضوضاء العالم ـ وذلك لمّا أصبحت المسيحية، في زمن قسطنطين، دين الدولة، واعتنق الكثير من سكان الأمبراطورية الرومانية الإيمان المسيحي ـ فبات من الطبيعي أن تتدنّى المستويات وتتضاءل الفضيلة ـ فراح الكثير من المسيحيين يعيشون على نحوٍ لا يعكس تعاليم يسوع ومثاله.

من هذا الوضع الاجتماعي المتبدّل، نتجت الحركة في اتجاه الترهُّب في الصحراء. ومعلوم أن اليهود سبقوا المسيحيين في هذا المجال إذ قامت عندهم قبل المسيح جماعات الإسّينييّن ـ وكان لها أديرة بالقرب من قمران على شاطىء البحر الميت. وكانت تلك الجماعات ترى أن العالم شرير. لذلك كانت تحاول

أن تُبعد أعضاءها عن التجارب وفساد المجتمع باللجوء إلى طريقتهم الخاصة والعيش في الصحراء.

وفي القرن الرابع، سلك بعض المسيحيين تلك الطريق نفسها، فتركوا المدن كالإسكندرية وانطاكية ـ وطلبوا العزلة في البرية ليعيشوا فيها عيشة التوحّد والصلاة والتقشّف. فكان الناسك يقضي أيامه في صومعته وحيداً، لا يرى الناس ولا يَرَونه، فيُصلّي أغلب أوقاته ـ ويشتغل أشغالاً بسيطة، ويصوم كثيراً، ويسهر شوطاً من الليل، فيبكي على خطاياه ويستعدّ للآخرة الرهيبة.

وأشهر النسّاك القديس أنطونيوس الكبير الذي عاش في صعيد مصر (ت ٣٥٦).

ولم يخفَ على كبار الزهّاد ما تتضمنه هذه الحياة المنعزلة من مشقّة وخطر. ففكّروا في إيجاد طريقة أخرى تخفف من وطأتها وتزيل شيئاً من صعوبتها. فاهتدوا إلى أسلوب الحياة المشتركة بين جدران الدير، وأوّل من قام يحقّق هذه الفكرة هو القديس باخوميوس (ت ٣٤٦). فقد استقطب حوله رفاقاً وتلاميذ وبنى تسعة أديرة، في كلّ منها مائة راهب. وأقبلت كذلك بعض النساء المتزهّدات، فشيّد لهنّ ديرهنّ الخاص.

وقد نَمَتْ الأديرة في مصر وتعدّدت في غضون القرنين الخامس والسادس. ولا يزال بعضها باقياً حتى اليوم في صحراء النَّطرون جنوب الاسكندرية وفي صعيد مصر. ولمّا انقسمت الكنيسة في مصر بعد المجمع الخلقيدوني، لم تذبل فيها الحياة الرهبانية ـ وعاش الرهبان الأقباط مع الرهبان الملكيّين جنباً إلى جنب، ترفرف فوق أديرتهم الهادئة أجنحةُ المودّة والسلام.

مبادىء الحياة الرهبانية:

ليس ما يسمّى بمبادىء الرهبنة الثلاثة، العفة والفقر والطاعة، في الحقيقة إلاّ ممارسات سلوكية ـ فالحياة الرهبانية هي الانشغال بعبادة الرب ـ ففي انشغال

الراهب بالمتعة الروحية، جاء تعفّفه عن المتعة الجسدية بأنواعها. وفي انسحاقه أمام الفضل الإلهي، يجيء إنكاره لذاته، وهو ما يظهر من خلال طاعته لمشيئة المدبّر. وفي شبعه بالروح يجيء تجرّده عن مطالب الراحة الجسدية أي الفقر. وهو في كل ذلك يسلك بروح الصلاة، وسكون التأمل، والالتزام بالعمل، كمن لا يمتلك متاعاً - فهذه الصفات السلوكية هي الصورة الخارجية للحالة الداخلية.

٢ - ٤ - باسيليوس الكبير ينظّم الحياة الرهبانية:

قلنا إن الحياة الرهبانية بدأت أول ما بدأت في صحراء مصر. وكان باخوميوس أوّل من دوّن قانوناً لتنظيم الحياة المشتركة. غير أن فرائضه كانت تترك للرهبان الحرية الواسعة في ما يتعلق بالتقشّف الفردي - فمنهم من يبالغ فيه، ومنهم من يقصّر - من هنا كان للقديس باسيليوس الفضل الأعظم في تنظيم الحياة الرهبانية المشتركة. فكتب فرائضه على أساس الطاعة لرئيس الدير - فالطاعة هي خيرُ وسيلة للتقدم في طريق الكمال الروحي - وحدّد أنواع التقشّف الجسدي ومداه. وأجبر الرهبان على العمل اليدوي ليحصلوا به على رزقهم البسيط. ولم ينسَ واجب الدراسة والصلاة - وألزم الرهبان بالتعاون في حياتهم المادية والأدبية والروحية حتى يؤلّفوا أسرة واحدة متعاضدة - فازدهرت في الشرق هذه الحياة المشتركة ازدهاراً رائعاً - فانشئت الأديار «الباسيلية» في سائر أنحاء البراري السورية والعربية، وفي المناطق القليلة السكّان بالأناضول واليونان. وكان الرهبان يُسْدون الإرشاد والنصائح في أمور الدين لأهل المدن الوافدين عليهم. كما أنهم كانوا يوفّرون الضيافة والملجأ، وامكانية الإخلاد إلى الهدوء، للمسافرين الذين يضلُّون الطريق في البراري والصحراء، أو المضطهدين والواقعين في بعض المشاكل.

٢ - ٥ - انتشار الحياة الرهبانية في الشرق والغرب:

٢ - ٥ - ١ - في فلسطين:

اتخذت الحياة الرهبانية مظهراً خاصاً في فلسطين - فعاش الرهبان هناك

عيشة ليست بالعيشة النسكية المنعزلة، ولا بالعيشة الرهبانية المشتركة ـ فالراهب الفلسطيني كان يطوي خمسة أيام في صومعة بعيدة، يشتغل ويصلّي، ثم يُقبل إلى الدير فيقضي فيه يومَي السبت والأحد. فيشترك في الحفلات الدينية. ويتحدّث إلى إخوته الرهبان. ويتزوّد من رئيس الدير بالنصائح الروحية. وصباح الاثنين، يغادر الدير ومعه شيء من الخبز والملح ـ وكمية وافرة من القشّ والقصب لصنع البُسط والسلال. ويعود إلى حياة الانزواء في القفر مدة خمسة أيام أخرى. وهكذا إلى أن توافيه المنية. وأوّل من أدخل الحياة الرهبانية في فلسطين القديس ايلاريون الكبير الذي عاش في صحراء غزة حول سنة ٣٢٨.

٢ ـ ٥ ـ ٢ ـ في سورية:

انتشرت الحياة الرهبانية في العراق وسورية، خاصة في بادية حلب الجنوبية، وفي جوار انطاكية وأفاميا والرّها. لدينا سِيَر عدد وافر من النساك والرهبان. أشهرهم القديس مارون الناسك الذي قضى حياته منفرداً قرب قورش ـ وقد اجتمع حوله بعض التلاميذ، فاتبعوا طريقته في الحياة النسكية وممارسة الفضائل. توفّى القديس مارون سنة ٤١٠، فبنى تلاميذه الرهبان في القرن الخامس بين افاميا وحمص ديراً كبيراً، ودُعوا بالرهبان الموارنة.

واشتهر أيضاً بين النسّاك القديس سمعان العمودي (ت ٤٥٩)، نسك على رأسِ عمود بين حلب وانطاكية، فأصبح عموده محجّ الناس يأتونه من كل جهة. فيعِظُهم ويُرشدهم إلى طريق الفضائل. وبنى تلاميذه ديراً عظيماً ظلّ مزدهراً حتى القرن العاشر. ولا تزال آثاره اليوم تشهد بعظمته وفخامته.

٢ ـ ٥ ـ ٣ ـ في الغرب:

نُفي القديس اثناسيوس، رئيس أساقفة الاسكندرية إلى الغرب، فعرّف الغربيين أثناء منفاه، في النصف الأول من القرن الرابع بالحياة الرهبانية بيد أن الأب الحقيقي للرهبانية في الغرب هو بندكتُس (مبارك) (ت ٥٤٧) كان لا يزال

شاباً لمّا انتحى منطقة جبلية معزولة قرب رومة ليعيش فيها متوحّداً، منصرفاً إلى الصلاة والعبادة. وفي غضون سنوات قليلة لحق به آخرون للصلاة معه بادىء الأمر، ثم لمشاركته في نمط عيشه ودوّن مبارك قانوناً للحياة الجماعية أصبح في ما بعد القاعدة الكبرى التي سار بموجبها جميعُ رهبان الغرب.

وكلمة السر في الحياة البندكتيّة هي «صَلِّ واعملْ»، وهناك برنامج مرسوم للحياة اليومية في الأديرة يتركّز على تلاوة المزامير جماعيّاً سبعَ مرات في اليوم، بدءاً من الثانية صباحاً. أما العمل الأساسي، فكان في البدايات الزراعة ، إلاّ أنه مع تقهقر الامبراطورية الرومانية، وحلول عصور الانحطاط والظلمات، أخذت أديرة البندكتيين على عاتقها المحافظة على العلوم والآداب والمعارف الفلسفية واللاهوتية.

٢ ـ ٥ ـ ٤ ـ في الكنائس الأرثوذكسية:

ولم تكن الحياة الرهبانية أقلّ شأناً لتقدّم المسيحية في الكنائس الارثوذكسية. فالرهبان الأرثوذكس اتبعوا القانون الذي رسمه القديس باسيليوس، وهو يفرض الصلاة اليومية الجماعية وتتميم مختلف الخدمات في الدير. ولا بدّ في هذا السياق من ذكر جبل آثوس، وهو شبه جزيرة في شمال اليونان، يقوم في أنحائها عشرون ديراً مستقلاً. وأديرة جبل آثوس، وكذلك دير القديسة كاترينا في جبل سيناء، قامت بدور هام في الحياة الروحية بالكنيسة الارثوذكسية.

علاوة على ذلك، فالرهبان كانوا أول المرسَلين المسيحيين إلى بلاد البلقان وروسيا. حملوا معهم إلى تلك المناطق تقاليد الرهبانية الشرقية وقانون القديس باسيليوس. واضطلع الرهبان في الكنيسة الروسية خاصة، بدور بالغ الأهمية في تاريخ المسيحية بتلك البلدان.

٢ ـ ٦ ـ الحياة الرهبانية المعاصِرة والمجمع الفاتيكاني الثاني:

٢ ـ ٦ ـ ١ ـ تجديد الحياة الرهبانية المعاصِرة وإحيائها حسب المجمع الفاتيكاني الثاني:

الحياة الرهبانية تجاوب مع الله، أو بالحري جواب على دعوة ربانية ليعيش المدعوّ لله وحده ودون عودة إلى الوراء. غير أن أوضاع الحياة اليوم، من حيث أنها تغيّرت وتبدّلت، وهي في تغيير وتبديل متواصل، فرضَتْ على الكنيسة أن تعيد النظر في الحياة الرهبانية من أجل تجديدها بالعودة إلى الأصول الأوّلية ونفض ما تراكم عليها من الغبار على ممرّ العصور. ويعني هذا التجديد العودة المستمرة إلى ينابيع كل حياة مسيحية، أي إلى الكتاب المقدس، وإلى السمع المنقول الروحي وإلى الإلهام الأصيل الذي انبعثت منه كل مؤسسة رهبانية. ذلك بوسائط العصر العملية الدقيقة لتجديد النظر إلى مثالية النصائح الانجيلية. وإلى الحياة الرهبانية في واقعها الراهن العيني. وفي نظمها التي ترجع غالباً إلى أجيال وأجيال. وحتى إلى مفهوم الكرامة والروحانيات والغايات الخاصة التي قامت لأجلها كل جماعة رهبانية.

فمنها المؤسسات الموجّهة بكاملها نحو التأملّ، تلك التي يتفرّغ أعضاؤها لله وحده في الخلوة والسكوت في الصلاة المستمرة والتوبة الفرحة. ومنها مؤسسة الحياة النُسكية والديرية. هناك أيضاً المؤسسات الرسولية، تلك التي وقفت ذاتها للحياة الرسولية، اكليريكية وعلمانية، كخدمة مقدسة.

كثيرة هي اليوم في الكنيسة المؤسسات الرهبانية التي تكرّس نفسها للعمل الرسولي والخيري. فكان عليها أن توفّق التوفيق الملائم بين ممارساتها وبين مقتضيات هذا العمل الرسولي الذي نذرت له نفسها.

وبما أن الحياة الرهبانية تهدف قبل كل شيء إلى أن يتبع اعضاؤها المسيح، ويتحدوا بالله باعتناق المشورات الإنجيلية وهي العفّة والفقر والطاعة،

وجب على أعضائها أن ينشطوا في تعزيز الحياة الروحية التي منها تنبع محبة الله ومحبة القريب.

٢ ـ ٦ ـ ٢ ـ ضرورة تقديم الإحياء الروحي وتفهُّم الحياة النذورية في أساسها:

إن من يدرس وثائق المجمع الڤاتيكاني الثاني يرى أن نذر العفة وضع في الدستور العقائدي عن الكنيسة[١]، وفي قرار تجديد الحياة الرهبانية[٢]، قبل نذري الفقر والطاعة، وكان في ما مضى يتوسّطهما، ففي ذلك عبرة.

إن نذر العفّة يخلّص الإنسان من كل التصاق بالأرض ليحيا على الأرض كملائكة الله في السماء. وهذا أساس كل ما ينتج عن ذلك من فقر وطاعة لاتّباع المسيح. فالعفة إذن نذر بنّاء، لا يُبعدُ الراهبَ عن العالم ومغرياته إلاّ ليحرّر الباطن ويجعل الراهب في خدمة أوسع. ونذر العفّة يتطلب زهداً متواصلاً وجهداً واعياً كي لا ينتصر الجسد على الروح.

فالعفة يُحييها الإيمان بالله والمحبة، وتنمو على جذع العطاء، ولا يضرّها سوى الانكماش على الذات. ولهذا فنذر العفة لا يقتل في الإنسان قلبه، إنما يوسّع نطاقه ويحمله على محبة جمعٍ أكبر، إذ أنه يحرّر دون انهيار، ويُنمي دون كبرياء.

ومتى فهم الراهب فهماً صحيحاً هذا التوجيه الذي له في نذر العفة تألّق وجهه وتألّقت حياته نوراً ساطعاً، وعاش في الفرح الذي لا يضيع، وفي الأمانة التي لا تفسد، وصارت معاطاته مع الناس معاطاة الخير والحنان والعطف والسهر، معاطاة الذي يفهم وضعه وينخرط فيه بمسؤولية كبيرة واعية، ويتحمّل ما ينتج عنه.

---

(١) العدد ٤٣.

(٢) رقم ١٢.

«وبما أن المحافظة على العفة الكاملة تنال في الطبيعة البشرية أعمق ما فيها من الأميال، فعلى من يطلب الدخول في الحياة الرهبانية، ألاّ يتقدّم وألاّ يقبل إلى نذر العفة، إلاّ بعد أن يُمتحن امتحاناً كافياً حقاً، وينضج نضوجاً نفسانياً وعاطفياً واجباً ـ وليُحَذّر ليس فقط من الأخطار التي تعترض العفّة، ولكن ليُعلَّم كيف أنّ التبتل المكرّس لله يؤول أيضاً إلى خير الشخصية الكاملة»[1].

أما نذر الفقر، فإنه يهدف إلى الغاية نفسها ـ والنفوس الفقيرة إلى الله هي التي يحتاج إليها العالم اليوم. فالراهب في فقره يكرّس الأرضيات كلها، فتصير أمامه وسيلة للتقدم الروحي، لا حاجزاً في سيره إلى الغاية. فيصير الراهب إذ ذاك في فقره برهاناً حياً عن وجود الروح، وعمّا هناك من قيم هجرها عالم اليوم وهو في أعماقه يتوق إليها دون أن يدري. ولهذا يكفي أن يزهد الراهب بما في العالم، وأن يفتقر في حياته إلى ما هو ضروري ليعيش، إنما عليه أن يكوّن لنفسه روح الفقر بهدي من الله ليصير في العالم «مالكاً وكأنه لا يملك»[2].

ويرتبط هذان النذران بنذر الطاعة، حامي الحياة الرهبانية ومنعشها ومميزها.

لا تزال السلطة، خاصة في أيامنا، مصدر حيرة للبعض واعْتِراض للآخرين إنما السلطة من الله وإذا ألحّ على تحليلها المجمع المسكوني الڤاتيكاني الثاني حيثما تكلم على علاقات الأفراد ببعضهم، فإنه ميّزها بالخدمة والتعاون مع الأفراد والأعضاء. فالسلطة وجه الله نريدها ونقبلها عن رضى بعد أن نكون قد تجدّدنا بالإيمان. هكذا تصير الطاعة شركة في الروح، يغيب الوجه البشري

---

(١) راجع «الوثائق المجمعية» نقلها إلى العربية يوسف بشارة. . . ١٩٨٤ ص ٥٨٢ في الكلام عن الفقه.

(٢) ١ كورنتس ١١ : ٣.

عن الأمر المُعطى ليظهر مَنْ باسمه يأمر الرئيس ومَن له يطيع الراهب، إذ ليست الطاعة بين بشر، فإنها تَعْبُر انساناً سكنه الروح إلى إنسان يعمل بوحي الروح القدس.

فإذا ما عاش الراهب على هذا المنوال عبّر عن وحدة تتزايد يوماً بعد يوم بينه وبين الإرادة الإلهية. وهذه الوحدة تصير مصدر اتكال واعٍ وفرح صافٍ ومحبة لا تضعف.

هذه النذور الثلاثة يعيشها الراهب في حياة مشتركة تُعطي دوماً خيوراً لصالح الجميع، وتجعل من الدير بيئة خلّاقة، وحصناً يلجأ إليه الناس في الملمات المادية منها والروحية، ومعيناً يستقون منه ماء حياة وحقيقة وأملاً لتكملة المسيرة الأرضية.

الباب الرابع
الجماعة المسيحية وتطورها عبر التاريخ

الفصل الأول

١ ـ الكنيسة في عهد الرسل

تُعتبر القرون الثلاثة الأولى أهمّ عصر تاريخي مرّت به الكنيسة. فهو عهد التأسيس والانتشار السلمي، وزمن الوحدة الشاملة والمحبة الخالصة، وأيام البطولة والشهادة الرائعة، وعصر الإيمان الحيّ الذي نقل إلى الأجيال التابعة تعاليم السيد المسيح ورسله القدّيسين.

ولقد استندت الجماعة المسيحية في انتشارها الأول إلى حفنة من الرجال البسطاء الأُميّين، إلا أن هؤلاء الرجال كانوا ممتلئين من قوة الروح القدس، مقتنعين تمام الاقتناع بقيامة السيد المسيح، الذي تراءى لهم وأرسلهم للوعظ والتبشير، وعهِد إليهم أن يكونوا له دعاة وشهوداً.

عُرِفت تلك الجماعة، التي جاء وصفها في أسفار العهد الجديد، «بالكنيسة الرسولية»، أي كنيسة الرسل وأجيال المسيحيين الأوائل، وتمتد الحقبة المعنيّة، على وجه التقدير بين سنة ٣٠ وسنة ١٠٠، أي بين العنصرة وتدوين آخِر سفر من أسفار الكتاب المقدس.

١ ـ ١ ـ تأسيس الكنيسة في القدس:

كان المؤمنون الجدد مواظبين على سماع تعليم الرسل، وعلى إقامة «كسر الخبز» أي «القداس الإلهي». وكانوا يعيشون وكأن لهم قلباً واحداً ونفساً واحدة. فالأموال مشتركة بين الجميع، والاغنياء منهم يَبيعون بملء رضاهم

ممتلكاتهم ويُلقون أثمانها عند أقدام الرسل لتوزّع على الفقراء والمحتاجين.

وكان معظم المؤمنين بالمسيح في بادىء الأمر من اليهود، سكّان فلسطين، الناطقين بالآرامية، ثم لم يلبث أن انضم إليهم جماعة أخرى من اليهود المغتربين، الذين عادوا من المهجر واستقرّوا في المدينة المقدسة، وكانوا يتكلّمون اليونانية. ونشأ خلاف بين اليهود المتنصّرين الفلسطينيين واليونانيين، وسببه عدم الإنصاف في توزيع الحسنات على أرامل المغتربين. فعرض الرسل على الجمهور أن يختاروا سبعة من المسيحيين الممتازين بالتقوى ليساعدوهم على تدبير شؤون الكنيسة من الناحية المادية. فاختاروا سبعة رجال أتقياء في مقدمتهم استفانوس ـ فبايعهم الرسل ومنحوهم رتبة الشماسة.

وأقام الرسل بعد ذلك مجلساً للكهنة ليؤازروهم في مهمتهم الروحية. وكانت الكلمة الأولى في تدبير هذه الأمور كلها لبطرس الرسول.

وانطلقت في القدس، وبقيادة يعقوب الرسول، جماعة مسيحية من أصل يهودي. فكثر عديدها في المدينة ثم في نواحي فلسطين. وكان ليعقوب أخي الربّ، نفوذٌ خاص بين اليهود المتنصّرين. فقد بقي وحده في القدس بعد أن تشتّت الرسل. وعكف على سياسة أمورها الروحية والمادية، وكان أسقفها الأول.

١ ـ ٢ ـ اليهود يضطهدون المسيحيين:

نشأت المسيحية في بادىء أمرها في البيئة اليهودية داخل فلسطين وخارجها. فإنّ إيمان اليهود بالإله الواحد، وانتظارهم الشديد لمجيء المسيح، ورغبتهم القوية في التخلّص من عبودية الرومانيين، كلّ ذلك أعدّهم للاستماع إلى تعاليم الديانة الجديدة. وقد رأى فيها الكثيرون تحقيقاً لما وعد الله به شعبه بواسطة الأنبياء فقبلوها واعتنقوها.

إلاّ أن الأغلبية الساحقة رفضت المسيحية وأبَت الدخول فيها. سبب ذلك

أن معظم اليهود كانوا ينتظرون مسيحاً سياسياً يَرُدُّ إلى اسرائيل سطوتها المفقودة وقوّتها الحربية البائدة. فلمّا اطّلعوا على أقوال الديانة الجديدة التي تدعو إلى المحبة والوداعة، ولا تأبه لامتيازات اسرائيل، ولا تُعنى بفرائض الشريعة الخارجية، تصدّوا لها وقاوموها وحاربوها حرباً ضارية.

عرف رؤساء اليهود الذين قتلوا يسوع أن رسله يُنادون بقيامته من بين الأموات ويعلنونه مسيحاً وربّاً. فاستاؤوا وقبضوا عليهم ومنعوهم من الكلام عنه. فأجاب الرسل: «لا يمكننا إلاّ أن نتحدّث عما رأينا وسمعنا»[١]. فألقوهم في السجن، وهدّدوهم بالقتل.

وجدّد الملك هيرودوس اضطهاده للمسيحيين سنة ٤٢ رغبةً منه في إرضاء اليهود، فقتل يعقوب بن زبدى بالسيف، وألقى بطرس في السجن، وفي نيّته أن يقتله بعد عيد الفصح. وظهر الملاك لبطرس في الليل، وأنقذه من السجن، فابتعد عن المدينة.

وبقي اليهود يضايقون الرسل ويطاردونهم، ويثيرون عليهم الفِتَن. فلم تقوَ هذه الاضطهادات على تبديد قوة الروح القدس. ولم تمنع الاشعاعَ الروحي من الانتشار بل كانت للديانة الجديدة فرصة مُؤاتية لتخرج من محيطها الضيّق في القدس وتعمّ أنحاء المعمورة.

١ ـ ٣ ـ انتشار الجماعة المسيحية في فلسطين وسورية:

لم تنتشر المسيحية خارج القدس انتشاراً واسعاً منظّماً إلاّ بعد الاضطهاد الذي حلّ باستفانوس أوّل الشهداء حيث قُتل رجماً بالحجارة وهو يقول: «يا ربّ، لا تحسُب عليهم هذه الخطيئة»[٢]، حصل ذلك بعد أربع أو خمس سنوات من قيامة السيد المسيح.

---

(١) أعمال الرسل.

(٢) أعمال الرسل ٧ : ٦٠.

ويسرد لنا كتاب «أعمال الرسل» قصة فيلبُّس الشماس في نواحي السامرة ونابلس. ويطلعنا على ما أتى به القديس بطرس من أعمال في مدن السامرة واللدّ ويافا. ويخبرنا كيف كان يتفقد شؤون الجماعات المسيحية الناشئة وينظمها. فلما حلّت السنة الأربعون، كانت المسيحية قد تسرّبت إلى جميع أرجاء اليهودية والسامرة والجليل وسورية.

وامتدّت بشارة الانجيل إلى مدن فينيقية وقبرص. وبلغت مدينة انطاكية عاصمة سورية. فأصبحت هذه المدينة الواسعة مقرّاً هاماً للديانة المسيحية - ففيها حمل المؤمنون لقب «المسيحيين». وفيها ابتدأوا يبشرّون الوثنيين أيضاً بالمسيح. ولما كانت القدس مركز التبشير بالنسبة إلى العالم اليهودي، كذلك أصبحت انطاكية نقطة الانطلاق بالنسبة إلى العالم الوثني.

١ - ٤ - انتشار الجماعة المسيحية في العالم الروماني الوثني:

يرجع الفضل إلى القديس بولس في دعوة الوثنيين إلى النصرانية دعوة مباشرة. وُلد القديس بولس في طرسوس، قرب مدينة أدنة في تركيا الحالية، وكان مولده في مطلع انتشار المسيحية. وقد تربّى تربية يهودية حسب سُنَن الفرّيسيين وآرائهم المتعصِّبة. ولمّا شبّ أصبح من ألدّ أعداء المسيحيين، وأخذ على عاتقه قضية إبادة الدين الجديد. وتسلّم من المحفل بالقدس صلاحيات واسعة تخوّله حقّ القبض على زعماء اليهود المتنصّرين في دمشق، والعودة بهم إلى المدينة المقدسة وهم مكبّلون بالسلاسل.

وتراءى له الرب يسوع في طريق دمشق(١)، وحوّل قلبه تحويلاً تاماً - فأضحى بولس واحداً من الرسل - فاتخذ مدينة انطاكية مقرّاً له. وقام برحلات تبشيرية ثلاث. الأولى بصحبة برنابا، إلى قبرص. ثم إلى مدن آسية الصغرى الجنوبية. والثانية إلى مكدونية واليونان. والثالثة إلى مدينة أفَسُس، وسافر

---

(١) راجع أعمال الرسل - من الفصل التاسع وما بعد.

أخيراً إلى رومة عاصمة الأمبراطورية. وكان في رومة جالية مسيحية هامة كان القديس بطرس قد نظّم أمورها.

وكان من عادة بولس أن يوجه البشارة إلى اليهود، وعندما يشعر بإعراضهم عنه، يتركهم، ويتوجّه إلى الوثنيين، فيحدّثهم عن ملكوت الله والسيد المسيح. فدُعي «رسول الأمم» أي رسول الوثنيين.

ولقد قامت، في أعقاب ذلك أولى الأزمات التي واجهت الكنيسة، إذْ طُرِح السؤال: هل ينبغي للوثنيين المهتدين أن يصبحوا أولاً يهودَ، ويخضعوا للشريعة اليهودية قبل أن يُسمح لهم باعتناق المسيحية؟ وكان موقف بولس، وقد تبنّاه بطرس ويعقوب، أن الله أقام يسوع من الأموات، فافسح في المجال أمام زمن جديد للخلاص، وعليه، فلم يعُد المسيحيون مضطرّين إلى اتباع الشريعة اليهودية.

وهكذا تكوّنت جماعات صغيرة من المؤمنين توزّعت في مدن الأمبراطورية من سورية إلى مصر. فالأناضول، فاليونان، فإيطاليا. ويشير التقليد أن بطرس اعتُبِر رئيساً لجماعة الرسل، في القدس أوّلاً، ثم في انطاكية، وأخيراً في رومة حيث أُعدِم في أيام نيرون الظالم.

١ ـ ٥ ـ عصر الاضطهاد:

أوّل من اضطهد المسيحيين هو نيرون الملك سنة ٦٤. أصدر مرسوماً منع به اعتناق المسيحية، وبقي هذا المرسوم ساري المفعول مدة طويلة، وإنْ لم يلاحق الأباطرة تطبيقه دوماً.

يخبرنا المؤرّخ الروماني «تاسيتوس» عن سبب ذلك، فقد نشب في رومة حريق هائل قضى على معظم منازل الأحياء الفقيرة، فنسب الناس هذا الحريق إلى نيرون نفسه، فخاف أن ينقلب الشعب عليه. فألقى المسؤولية على المسيحيين. وعذبهم في المسارح والملاعب عذابات وحشيّة مُريعة.

وقد اختار نيرون ضحاياه بين المسيحيين لأسباب نذكر منها:

أولاً: ـ رغبته في إرضاء اليهود الذين كانوا يكرهون المسيحيين كراهية عميقة. فقد اتصلوا بعشيقة نيرون بُوبِّيه اليهودية، وحرّضوها عليهم. فكان لها اليد الطولى في حَمْل العاهل على اضطهاد المسيحيين.

ثانياً: تخوّف الوثنيين من المسيحيين، الذين كانت تحيط بهم هالة من الأسرار. وهذا ما حدا بالوثنيين على افتراء الكذب عليهم، فنسبوا إليهم أعمال الكفر والفِسق والظلم، وتغلغلت هذه الأكاذيب في عقول الجماهير، فاعتبرهم الناس أعداء الآلهة والبشر، وعلّة الشرور كلّها من زلازل وحروب وفيضانات.

ولم ينحصر اضطهاد نيرون في رومة وحدها، بل امتدّ إلى نواحٍ أخرى من الأمبراطورية الرومانية، فبلغ ولاية آسية. وقد ذهب ضحية هذا الملك الطاغية القديسان الرسولان بطرس وبولس.

ودام هذا الاضطهاد الأليم رسمياً ثلاثة قرون ولم تطبّق أساليبه دوماً بالعنف نفسه. كما لم يشمل في الوقت عينه جميع أرجاء الأمبراطورية الرومانية. فقد اتبع الحكام تجاه المسيحيين سياسة دينية اختلفت باختلاف الأزمنة والأقطار والأحداث والمؤثرات الداخلية.

الفصل الثاني

٢ ـ نشأة الفكر المسيحي وتطوّره حتى القرن السابع الميلادي

---

٢ ـ ١ ـ تحديد العقيدة المتعلقة بالمسيح في القرون الثلاثة الأولى:

اكتفى الكتبة المسيحيون الأوّلون باتباع طريقة الرسل، فعرضوا على الناس التعليم الديني الموروث بأسلوب بسيط، أودَعُوه مؤلّفات وجيزة أو رسائل شخصية، فأُطلِق عليهم اسم «الآباء الرسوليين».

وفي مطلع القرن الثاني، اعتنق الديانة المسيحية فئة من الوثنيين المثقّفين، فسخّروا أقلامهم ومواهبهم للدفاع عن الديانة المضطهدة، وتنوير الوثنيين أصحاب النوايا الحسنة، فسمّوا «الآباء المدافعين».

ولم يكن دوماً لدخول هؤلاء الوثنيين في الكنيسة النتائج الطيبّة، فقد كانت ديانة الكثيرين منهم سطحية، إذْ لم يفهموا المعتقد المسيحي فهماً صحيحاً، فنشأت عن تآليفهم بدعٌ كثيرة أرغمت بعض الآباء على الدفاع عن صحة العقيدة المسيحية وسلامتها، فحملوا لقب «الآباء الجدليين».

ورأى بعض المسيحيين المثقفين أن أنجع وسيلة لمحاربة البدع هي سبْكُ الحقائق المسيحية في قوالب علمية تستند إلى معطيات الفلسفة اليونانية. فأكبّوا على دراسة الدين المسيحي، وأخرجوا للناس «اللاهوت العلمي» الذي ازدهر أثناء القرن الثالث بين علماء مدرستي الاسكندرية وانطاكية.

وكان قد تأثرّ بعض المسيحيين الأوائل بالأفكار الغنوصية ـ فأنكروا

انسانية يسوع، وكان الغنوصيّون يعدّونه ملاكاً حمل معه معرفة سرّية لله. وإلى جانب هؤلاء قام الظاهريون، فقالوا بأن يسوع «ظهر» فقط بمظهر البشر، ولم يكن له جسم بشري، ولم يمُتْ على الصليب. أمّا الكنائس المسيحية فقد شجبت في القرن الثاني تعاليم الغنوصيّين والظاهريين، وأكّدت على حقيقة الإنسانية في يسوع.

٢ ـ ٢ ـ يسوع المسيح الإله والإنسان محور الفكر المسيحي في القرن الرابع:

رأينا في الباب الثاني أن العهد الجديد يرى في يسوع انساناً حُبِل به من الروح القدس في أحشاء مريم العذراء. وُلد وترعرع وعلّم وصنع المعجزات ثم صُلب ومات وقام. وتعلن جميع أسفار العهد الجديد أن هذا الإنسان هو نفسه المسيح المنتظر وابن البشر الذي أرسله الله في ملء الأزمنة لينشىء ملكوت الله. وتشهد أن هذا الإنسان الذي عاش في الزمن هو ابن الله وكلمة الله الكائن منذ الأزل مع الله.

فيسوع إذاً هو إله وإنسان في آن واحد. ولكن كيف يتحد الإنسان والإله في شخص واحد؟ هذا هو السؤال الجوهري الذي حاول آباء الكنيسة الإجابة عليه منذ القرون المسيحية الأولى. فكتبوا مقالات كثيرة، وعلّموا في جميع كنائس الشرق والغرب. وتبيّن للبعض أن تعاليم البعض الآخر حول المسيح يسوع قد حادت عن الإيمان القويم. فاتهموهم بالهرطقة.

ولحسم الخلافات القائمة بين هؤلاء وأولئك، عُقِدت المجامع المسكونية، وهي مؤتمرات دينية يجتمع فيها أساقفة من كنائس المسكونة كلها في الشرق والغرب لتحديد عقائد الإيمان المسيحي. وكان كل مجمع مسكوني يُصدر وثائق يعلن فيها إيمان الكنيسة القويم وعقائدها الثابتة، ويرشق بالحُرْم تعاليم المبتدعين والهراطقة.

لذلك يمكننا القول إن عقائد الإيمان التي أعلنتها المجامع المسكونية الأولى كانت كلُّها، في صياغتها وتعابيرها، موجهة ضدّ البِدع ـ فبينما اقتصر

العهد الجديد على إظهار يسوع يتصرّف في حياته كإنسان وإله، أوضحت المجامع المسكونية كيف يتحد العنصران الإنساني والإلهي في شخص يسوع الواحد، فادخلت في العقائد الإيمانية الفاظاً فلسفية استقتها من الفلسفة اليونانية السائدة آنذاك، كالأقنوم والشخص والطبيعة والجوهر. وقالت إن المسيح هو شخص واحد في طبيعتين، طبيعة إلهية وطبيعة إنسانية.

إلاّ أن تلك الألفاظ لم يكن لها المعنى ذاته في جميع المدارس الفلسفية المنتشرة في أنحاء العالم المسيحي. وقد حدث مراراً أن اتهمت الكنائس بعضها بعضاً بالهرطقة، مع أن الخلاف بينها لم يكن على الإيمان بل على الألفاظ والتعابير. إلى جانب هذا الاختلاف في الألفاظ، لا شك أنه كانت هناك بدَع حقيقية وتيارات فكرية خاطئة حرمتها المجامع المسكونية في إعلانها عقائد الإيمان القويم.

فما هو إيمان المجامع المسكونية في ما يختص بيسوع المسيح؟ وكيف نشأ وتطوّر فكر الآباء على أثر ذلك؟

٢ ـ ٣ ـ الجدالات حول طبيعة المسيح والمجامع الأولى:

٢ ـ ٣ ـ ١ ـ البدعة الآريانيّة ومجمع نيقية سنة ٣٢٥:

اتخذت «الآريانية» اسمها من الكاهن المبتدع آريوس. كان ليبيّ الأصل، تعلّم في مدرسة انطاكية لدى لوقيانوس الأنطاكي الشهير. ثم انتقل إلى مصر حيث رُسِم كاهناً سنة ٣١٠. وأصبح خادماً لإحدى كنائس الاسكندرية. ولسبب تعاليمه المناقضة للإيمان القويم كفّره من أجلها مجمع عُقِد في الإسكندرية. فلجأ هو إلى فلسطين، ثم انسحب عند صديقه أوزيبوس (Eusèbe)، وهناك ألّف كتاباً عنوانه «المائدة». فيه تعمّد أسلوباً يجمع بين النثر والشعر والأناشيد الدينية الشعبية، ترويجاً لأقواله في أوساط المحترفين وأهل الصناعات. فالتأم في نيقية، وهي مدينة في آسية الصغرى، معروفة اليوم بإزْنيْك، في بلاد الأناضول، المجمع المسكوني الأول وحرم بدعته. ولقد حضره ١١٨ أسقفاً من الشرق

والغرب. فحدّدوا، ردا على آريوس، تساوي «الكلمة» مع الآب في الذات والجوهر، أعني أن المسيح هو إنسان وإله في آن واحد.

هذا ولقد كان مذهب آريوس مكتملاً في مواده وأصوله منذ ظهوره، وهو يقوم في أساسه على إنكار اللاهوت في المسيح وتصوّره إنساناً محضاً مهما كان عظيماً. كان يقول: «إن الله واحد فرد غير مولود ـ لا يشاركه شيء في ذاته تعالى ـ فكل ما كان خارجاً عن الله الأحد، إنما هو مخلوق من لا شيء بإرادة الله ومشيئته. أمّا الكلمة فهو وسط بين الله والعالم. كان ولم يكن زمان، لكنه غير أزلي ولا قديم. بل كانت مدّة لم يكن فيها «الكلمة» موجوداً. «فالكلمة» مخلوق، بل إنه مصنوع ـ وإذا قيل إنه «مولود» فبمعنى أن الله «تبنّاه». ويؤدّي ذلك إلى أن «الكلمة» غير معصوم طبعاً، ولكنّ استقامته حفظته من كل خطأ وذلك ـ فهو دون الله مقاماً، ولو كان معجزة الأكوان خلقاً بلغ من الكمال ما يستحيل معه خلق شيء أكمل منه رتبة وحالاً»(١).

وكان قد تبلّور مذهبه في خطوطه العامة أثر جداله مع اللاهوتي اثناسيوس. ففيما اتفقا على أن كلمة الله تجسّدت واستقرّت في الإنسان يسوع، فإنهما اختلفا في أمر طبيعة الكلمة. فقد اعتبر اثناسيوس أن الكلمة التي تجسّدت في يسوع هي أزلية، وغير مخلوقة، وكائنة مع الله منذ الأبد.

أمّا آريوس فقد أعلن أن كلمة الله ليست أزلية بل مخلوقة في الزمن. خلقها الله قبل خلق العالم. وقال بأن المتجسّد في يسوع ليس الكلمة الأزلية غير المخلوقة، بل مخلوق من المخلوقات. ولا شك أن المسلمين العارفين بعلم الكلام يرون في ذلك الجدال شبهاً بالجدل الذي احتدم لاحقاً بين المتكلّمين المسلمين. فموقف الأشعرية شبيه بموقف اثناسيوس، في حين رأي المعتزلة أقرب إلى رأي آريوس.

---

(١) راجع فريد جبر ـ فلسفة الفكر الديني ـ ج ٢ ـ ص ٢٨٧.

ولما بات الجدال يتسبّب بانقسام المسيحيين، عُقِد مجمع نيقية، نزولاً عند طلب الأمبراطور قسطنطين، للبتّ في الأمر والوقوف على الحقيقة. وشارك في اللقاء العدد الكبير من ساسة المسيحيين. فأقرّ المجمع موقف اثناسيوس وحكم على آريوس وأصدر **قانوناً للإيمان** لا نزال نتلوه اليوم، جاء فيه أن الكلمة الإلهية هي من صميم طبيعة الله وليست مخلوقاً. ولم يعد للآريانية وجود منظّم في الكنيسة.

٢ ـ ٣ ـ ٢ ـ البدعة النسطورية ومجمع أفسس سنة ٤٣١ :

ولد نسطور في مرعش من أعمال سورية على الفرات، ودرس في انطاكية وترهّب فيها. ولم يلبث أن اشتهر بمواعظه. فعُيّن اسقفاً على القسطنطينية سنة ٤٢٨، وأخذ هناك بمقاومة البدع التي كانت منتشرة في العاصمة، خاصة الآريانية، فتفاءل الناس بصدق جهاده في سبيل العقيدة القويمة.

إلاّ أنه، منذ أواخر السنة ذاتها، ظهر بتعليمه الجديد: أن العذراء ليست «والدة الإله» حقاً، وأن المسيح لا يقوم بشخص واحد بل بشخصَيْن ـ شخص بشريّ وشخص إلهيّ. أما الشخص البشري، فولدته مريم، وأما الشخص الإلهي فهو كلمة الله الأزلية.

تناهتْ إلى القديس كيرلُس، رئيس أساقفة الإسكندرية، تعاليم نسطور. فهبّ فوراً لمقاومتها، وعقد مجمع أفسس المسكوني الثالث سنة ٤٣١، الذي شجب تعاليم نسطور، وأعلن أن يسوع هو شخص واحد، ولدته مريم العذراء، فيه استقرّت كلمة الله الأزلية، وبه اتحدت اتحاداً وثيقاً. وهتف الجميع، آباء ومؤمنين بالعذراء أمّاً للمسيح «إلهاً حقاً وإنساناً حقاً».

أمّا نسطور، فعُزِل عن منصبه، ومُنع من نشر آرائه، ونُفي إلى البتراء في شرق الأردن، ثم إلى صحراء مصر. وهناك مات سنة ٤٥١ بعد أن وضع مؤلفه الأخير بعنوان «كتاب هرقليدس الدمشقي».

لقد ظلّ نسطور يعلن أن تعليمه هو عين تعليم الأساقفة المجتمعين في أفسس، وأن الاختلاف إنما هو في التعبير فقط ـ وبقي أنصاره متشبثّين بتعاليمه مدة طويلة، فطردوا من الدولة الرومانية، والتجأوا إلى بلاد فارس. وأصبح مذهبهم فيها المذهب الرسمي للكنيسة الفارسية أو الكلدانية، وقد اتحّد معظمهم اليوم بالكنيسة الكاثوليكية وهم الكلدان ـ وبقي لنسطور بضعة آلاف، هم النساطرة أو الأشوريّون، ويسكنون إيران والعراق.

وقد يوافق الكثيرون من مؤرّخي اللاهوت اليوم على أن تعاليم نسطور لم تكن خاطئة، وأن خلافه مع كيرلُّس لم يكن سوى خلاف على الألفاظ، وأنّ ما نبذه المجمع في البدعة النسطورية ليس بتعاليم نسطور، بل التفسير الذي أعطاه كيرلُّس لتلك التعاليم ـ تعود أسباب هذه الصعوبة إلى اختلاف اللغة بين الشرق اليوناني والغرب اللاتيني، وتعدّد المفاهيم للألفاظ نفسها بين الاسكندرية وانطاكية وغيرها من المدن.

٢ ـ ٣ ـ ٣ ـ بدعة «الطبيعة الواحدة في المسيح» ومجمع خلقيدونيا سنة ٤٥١ :

نشأت هذه البدعة مع «أوطيخا» الذي كان رئيس دير في القسطنطينية يضمّ ثلاث مئة راهب. وكان تقياً ورعاً يهرب من أمجاد العالم ـ ولكنه كان جاهلاً عنيداً، ضيّق الفكر والصدر، خالياً من الثقافة اللاهوتية الأصيلة. فتمسّك بصيغ القديس كيرلُّس العقدية في حرفيتها، وأصبح بعد مجمع أفسس، من أشدّ مناوئي النسطورية تحمسّاً ـ فهب يقاومها بكل قواه، فتطرّف في أقواله ومواعظه، ووقع في نقيضها، فأكدّ أن في المسيح «طبيعة واحدة»، لأن طبيعته الإنسانية قد اضمحلت في طبيعته الإلهية وذابت فيها.

لا شك أن كيرلُّس كان يستعمل تلك العبارة ـ إلاّ أنه كان يعني بلفظة «طبيعة» الشخص الفرد، إذ كان يقول أن يسوع هو «طبيعة واحدة» مكوّنة من عنصرين، عنصر إلهي وعنصر إنساني. أي أن يسوع هو «كائن فرد»، «شخص واحد»، إله وإنسان معاً.

وهنا يتساءل المؤرّخون: عندما كان أوطيخا يقول إن المسيح «طبيعة» واحدة بعد التجسّد، فماذا كان يعني بلفظة «طبيعة»؟ فإذا كان يعني بها «الشخص»، على غرار كيرلُّس، يكون تعليمه قويماً ـ أمّا إذا كان يعني بها خصائص الشخص، فعندئذ يصبح تعليمه خاطئاً ـ لأن الخصائص الإنسانية والخصائص الإلهية في المسيح تبقى كما هي بعد تجسّد الكلمة، وتُنسب إلى شخص واحد.

مهما يكن من أمر أوطيخا ونواياه، فقد بدا أن تعليمه مناقض للإيمان القويم ـ لذلك حرمه المجمع المسكوني الرابع الذي التأم في خلقيدونية سنة ٤٥١ ـ وإذ رفض هذا المجمع تعليم «القائلين بالطبيعة الواحدة» الذين عُرِفوا «بالمونوفيزيين»، أعاد اقراره بتعاليم مجمعيّ نيقيا وافسس في شأن حقيقة طبيعة يسوع البشرية وتجسّد كلمة الله الأزلية فيها. وحرص مجمع خلقيدونيا على ألاّ يَحْصر بتعليمه وحده تحديد علاقة المسيح بالله، بل ترك الباب مفتوحاً لتطوير المفاهيم اللاهوتية في المستقبل.

وأنصار «الطبيعة الواحدة» هم اليوم الأقباط في مصر، والسريان في سورية وكانوا يعرفون قبلاً باليعاقبة، نسبة إلى يعقوب البرادعي أسقف الرُّها. وقد نشأت تلك الكنائس رسمياً في عهد الملك يوستنيانوس الأول في القرن السادس.

كان هذا الملك من مؤيدي مجمع خلقيدونية، ولكن امرأته الملكة تاودورة ناصرت معارضيه فأخذت تؤازر الجماعة المونوفيزية في السرّ والعلانية. واستطاعت بدهائها وسياستها أن تنشر مذهبهم بين الناس، خصوصاً في سورية، وتجعل لهم كنيسة مستقلة عن الكنيسة الرسمية في الدولة.

من أنصار «الطبيعة الواحدة» أيضاً «الكنيسة الأرمنية»، المعروفة بالغريغورية. فهي لم تمثل في مجمع خلقيدونيا ولم تعترف بقرار هذا المجمع.

ومهما يكن من أمر، فإن أنصار «الطبيعة الواحدة» هم، مع قولهم بها، مثل القديس كيرلُّس، يُدينون آراء «أُوطيخا» ويعترفون بأن المسيح إله كامل

وإنسان كامل. فالخلاف محصور إذاً في الألفاظ والمفاهيم الفلسفية لا في المعاني الدينية والعقائدية.

وقد هبّ الكثير من المسيحيين لمعالجة أمر هذه الخلافات وما نتج عنها من شقاق.

ففي العاشر من شهر أيار ١٩٧٣، وقّع الفاتيكان بشخص البابا بولس السادس عن الكاثوليك ورئيس الكنيسة القبطية بشخص البابا شنوده الثالث، اعلاناً مشتركاً ينهي الخلافات اللاهوتية في هذا الشأن بين الكنيستين. والجدير بالذكر أن بياناً مماثلاً وُقّع في الثالث من حزيران ١٩٨٤ بين البابا يوحنا بولس الثاني وبطريرك السريان زكّا عيواص. أما «الحركة المسكونية»، فسوف نتكلّم عنها لاحقاً، إثر المجمع الفاتيكاني الثاني.

٢ ـ ٤ ـ تطوّر فكر الآباء من القرن الرابع إلى القرن السابع الميلاديين:

تلك هي الأطوار التي مرّ بها فكر الآباء منذ وعى ذاته إلى أن أدرك نضجه. ولقد تبين لنا، مما سلف، كيف انطلق هذا الفكر، أساساً، من وحي صريح ونقل مأثور يقتضيان الإيمان بالله، واحداً في ثلاثة أوجه، هم الآب والابن والروح القدس. على أن الابن «تجسّد وصار إنساناً» فكشف للناس عن هذا الأمر الغيبي الذي عرفه المسيحيون بسرّ الثالوث، ثم جاء آريوس، (بعد الذين سبقوه) ونفى اللاهوت عن المسيح «الابن المتجسّد»، فقابله الآباء بصيغة مجمع نيقيا المسكوني، مثبتين أن المسيح «ابن الله المتجسد»، إلهٌ حقاً، «مساوٍ للآب في الذات والجوهر». ولم يلبثوا أن توجهوا بالنظر إلى الروح القدس، فاعلنوا إيمانهم بأنه «المنبثق من الآب والابن إلهاً حقاً هو أيضاً، مساوٍ للآب والابن في الذات والجوهر» أبداً. ولقد أدركوا اجماعهم العفوي على هذا القول في مجمع القسطنطينية المسكوني الثاني سنة ٣٨١. فاستقامت لديهم، بعدئذٍ، عقيدة الثالوث في صيغتها النهائية الشاملة، وهي الإيمان بغيب الله وسرّه على أنه «واحد في ثلاثة أقانيم».

واستقرّ فكر الآباء على هذه الصيغة ردحاً من الزمان، ناظراً بنور الإيمان، إلى غيب الله في ثالوثه، من خلال «الابن المتجسّد»، على أنه الوسيط الوحيد بين الله والناس، بكونه إلهاً وإنساناً في آن واحد. حتى إذا جاء **نسطور**، (بعد من كان قد سبقه هو أيضاً) وجزّأ المسيح «الواحد» مصرّحاً بالفصل فيه بين الله والإنسان، كفّره الآباء في مجمع افسس المسكوني الثالث سنة ٤٣١. لقد ذهب الرجل إلى القول بوحدة معنوية أدبية، تكاد تكون مجازية، ليشرح ما يجمع ناسوت المسيح ولاهوته من صلة وعلاقة. فبيّن الآباء يقتضيه الوحي والسُنّة المسيحية المأثورة من إيمان بأن بين طبيعتي «ابن مريم» البشرية والإلهية وحدة حقيقية، أصيلة، تتناول كلاًّ منهما في ذاته وصميمه بحيث يحقّ لمريم أن تسمّى «أم الله».

لكنهم ما أن استراحوا من همهم هذا حتى فاجأهم **أُوطيخا** بمذهبه المونوفيزي. لقد قام هذا الأخير في وجه نسطور ليردّ عليه، فوقع منه على طرف النقيض، ونفى بشرية «ابن الله المتجسد» بمعنى أنها فنيت بعد تجسّده على أن كثيراً من أنصاره لم ينتهوا إلى هذا الحد في التفريط، فعرفوا «بالمونوفيزية المعتدلة» ـ وقالوا على جانب كبير من اللبس والغموض «بطبيعة الكلمة الإلهي الواحد المتجسّدة». فشمل الآباء بتكفيرهم هؤلاء كلهم في مجمع خلقيدونيا المسكوني الرابع سنة ٤٥١ ـ وخرجوا منه بالصيغة العقدية النهائية في المسيح، وهي أنه «أقنوم واحد في طبيعتَيْه الكاملتين، البشرية والإلهية».

ولئن دلّ ما سلف على شيء، فإنما يدل على أن الآباء أبوا إلاّ أن يتصوروا ناسوت المسيح، بعد أن اثبتوا لاهوته، كاملاً في أصوله وعناصره، جسدية وحسّية وروحية. ولقد عادوا في ذلك دائماً، منذ نشأة الكنيسة، إلى «قاعدة الإيمان»، ليقينهم الحيّ بأن الدين المسيحي قائم عليها في أساسه، بوحيه وسنّته المأثورة. وهذه القاعدة هي أن الله في ذاته محبة ورحمة، أراد أن «يتجسد» ابنه ويشارك الناس في طبيعتهم لكي يمكّنهم، بوساطة هذه الطبيعة، من أن يلّبوا دعوته إلى أن يشاركوه في حياته ويصبحوا بحُكم الروح القدس

وحياة النعمة إخوة حقاً وأبناء الله.

هذا هو الأساس لتلك الحياة الدينية المسيحية الروحية القائمة على التراحم والتواصل بين الناس، لأنهم جميعاً أبناء «الرحمن الرحيم» الواحد. على أن نسقط من هذا المعنى مدلول الرقة والشفقة، لنحتفظ فيه بما ينطوي عليه فقط من ضروب الحنان التي تدفع إليه أواصر القُربى بين ذوي «الرحم» الواحدة. ولطالما أتى الآباء على ذكر هذه الحياة المسيحية في أقوالهم، بل وقفوا لها الكثير الضخم من مؤلفاتهم، يتقدّمهم في هذا العمل يوحنا الذهبي الفم في الشرق، واغسطينوس في الغرب.

الفصل الثالث

٣ ـ من القرن الثامن إلى القرن السادس عشر

٣ ـ ١ ـ الحملة على الأيقونات المقدسة ومجمع نيقية الثاني سنة ٧٨٧ :

قام هذا الجدل في الأمبراطورية البيزنطية في القرنين الثامن والتاسع. وتركز حول استعمال الايقونات أو الصور في الكنائس. فالكنيسة البيزنطية درجت على تزيين معابدها بالتصاوير ولوحات الفسيفساء التي تمثل يسوع ومريم والقدّيسين. كانت تلك التصاوير موضوع إجلال عظيم.

وفي زمن الأمبراطور لاون الثالث في أواسط القرن الثامن، شعر بعض المسيحيين بأنه من غير اللائق اكرام الأيقونات. وسُمّي هؤلاء المعارضون محطّميّ الأيقونات.

وقد اختلف المؤرخون في معرفة أسباب حملتهم هذه. فمنهم من ارتأى أن ملوك الروم قد شنّوا هذه الحملة تقرّباً من العرب المسلمين ومن اليهود أيضاً.

ومنهم من ذكر أن هذه الحملة مظهرٌ من مظاهر بدعة «الطبيعة الواحدة» ـ فإن بعض أنصار الطبيعة الواحدة قالوا بأن ليس جسد المسيح مادّياً مثل جسدنا. وبالتالي لا يمكن رسم صورته. وأخذ بعض الملوك بهذا القول وأمروا بتحطيم الأيقونات لأنها خُدعة لا تمثّل جسد المسيح.

وقال بعض المؤرخين أن الملوك رغبوا في كَسْر شوكة الرهبان، وتحطيم

قوّتهم، والاستيلاء على أموالهم. فحملوا على الأيقونات لأنّ الرهبان كانوا أشدّ الناس تعلّقاً بها واكراماً لها. ويُرجّح هذا السبب الأخير، لأنه يتماشى والأحوال السياسية المضطربة آنذاك في الدولة البيزنطية.

ومهما يكن من سبب، فقد تعدّى الملوك على حقوق الله، وأهانوا كرامة أوليائه القديسين. لأن إكرام الصور لا يعود إلى الألواح والألوان بل إلى الشخص الكريم الذي تمثله الصورة.

وانتهت المعركة الطويلة الدامية سنة ٨٤٢ عندما أعلنت الأمبراطورة ثيودورا ضرورة إكرام الأيقونات الإكرام اللائق في جميع أرجاء الأمبراطورية البيزنطية ـ وعُقد مجمع ثانٍ في نيقية عام ٧٨٧ ـ فقرّر أن اكرام الصور جائز ما دام المؤمن يعي أنه لا يكرّم الصورة في ذاتها، بل الشخص المرسوم فيها. وإن العبادة لا تكون إلاّ لله عزّ وجلّ.

٣ ـ ٢ ـ الانشقاق بين الشرق والغرب:

تحدثنا عن الانشقاق الداخلي الذي حدث في الشرق أبان القرن السادس، بين مناصري مقرّرات مجمع خلقيدونيا ومناوئيها. وتدلّ كلمة «انشقاق» على انقسام، لا علاقة له بالعقيدة، سببه الاختلاف في التعابير اللاهوتية عن طبيعة المسيح. ولم تتأصل هذه الاختلافات اللاهوتية الدقيقة في عقول العامة إلاّ بفضل ما أُثير حولها من نعرات قومية وطنية هدفها مقاومة دولة الروم المستعمِرة. إلاّ أن أهمّ الانشقاقات في تاريخ المسيحية هو الذي حصل بين كنيستي القسطنطينية وروما، وقد عُرِف في بعض الأحيان «بالانشقاق بين الشرق والغرب».

فلقد قالت الكنيسة الرومانية بأن الذين يرعون الكنائس ويسُوسُونها هم أساقفة العالم عاملين معاً في جسم واحد يُشرف عليه اسقف رومة. أما نظرة كنيسة القسطنطينية فهي أن ثمة خمسة مراكز للمسيحية تتساوى في السلطة وهي: أورشليم، وانطاكية، ورومة، والاسكندرية، والقسطنطينية.

وعلى الرغم من الاختلاف في مفهوم السلطة، ظلّ المسيحيون التابعون لروما والقسطنطينية متحدين حتى القرن التاسع عندما حصل أوّل انقسام مؤقت في زمن فوتيوس بطريرك القسطنطينية. وفي القرون اللاحقة تصالحت الكنيستان لفترات معينة كانت تعقبها الانقسامات، إلى أن تمّ الانشقاق الأخير بين رومة والقسطنطينية سنة ١٠٤٥.

لقد هُدِّدت إذن وحدة الكنيسة بالخطر لأول مرة في القرن التاسع يوم نشبت المخاصمات بين فوتيوس والكرسي الرسولي. فإن المناخ الفكري الملتزم حينذاك أثرّ في النزاعات التي كانت، منذ عهد طويل، تميل بالكنيسة الشرقية إلى الانشقاق، فتفاقمت.

وكان فوتيوس من أشهر أدباء بيزنطية عندما أراده الأمبراطور بطريركاً على القسطنطينية، فشغل هذا المنصب مرتين من غير أن يستطيع الحصول على موافقة رومة. فسعى وطلب ووعد وأوعد. وكان ذلك كله عبثاً لأن البطريرك المعزول، حينئذٍ، القديس اغناطيوس، بقي مصرّاً على ألاّ يستقيل.

علاوة على أن تصرّفات فوتيوس بيّنت أنه لم يكن أهلاً للمنصب، فلم يعترف به بابا رومة البتة. وهذا هو الذي أدّى بفوتيوس إلى أن يستخدم امكاناته وعبقريته لدكّ الكرسي الرسولي.

في هذه السنوات وضع فوتيوس كتاباً عن الروح القدس هاجم فيه الغرب لكونه أضاف وحده لفظة إلى قانون إيمان حظّرت المجامع المسكونية إدخال أي تعديلٍ عليه. وانتقد من ثم التعديل ذاته. وهذه اللفظة هي «**والابن**» أُضيفت بعد مقطع: «وبالروح القدس، الرب المحيي، المنبثق من الآب «**والابن**» - ويبدو أن تلك اللفظة أُضيفَت أولاً في اسبانية في أواخر القرن السادس، تأكيداً لألوهية الابن ضدّ الهراطقة المتشرّبين الآريانية الرافضين تلك الألوهية. فالقول بأن الروح القدس منبثق من الآب والابن يؤكّد وحدة الابن مع الآب في الجوهر. وقد قبل الغرب إضافة تلك اللفظة لأنها تنسجم مع طريقة تعبيره عن سرّ الثالوث الأقدس وعن وحدة الألوهية، منذ اغوسطينوس في القرن الرابع. ومع ذلك فقد

تردّد في إضافة عبارة يرفضها الشرق في قانون إيمان صاغهُ الشرق والغرب معاً في المجمع المسكوني الأول والثاني.

ولم يكن موضوع انبثاق الروح القدس السبب الرئيس في الخلاف. فقد كانت هناك أسباب أخرى سياسية - إلاّ أن عنصراً عقائدياً دخل في الانشقاق الأخير - قوامُه استعمال عبارة «والابن» في قانون الإيمان. فالكاثوليك، وكذلك البروتستانت، يستعملون هذه العبارة للدلالة على إيمانهم بأن الروح القدس منبثق من الله الآب ومن يسوع الابن العاملَيْن معاً. أمّا الارثوذكس فإنهم يتمسّكون بالصيغة الأصلية ولا يستعملون عبارة «الابن». فيقولون بأن الروح القدس منبثق من الله الآب وحسب. وعلى الرغم من أن تلك المسألة كانت موضوع نقاش محتدم بين المسيحيين الشرقيين والغربيين في العصور المتقدمة، فإنها في الحقيقة ليست سبباً هاماً للخلاف. فالكلُّ متفقون اليوم على أن موضوع انبثاق الروح القدس لا يشكل عقبة في طريق الوحدة المسيحية - والمشكلة لا تعني في الواقع إلاّ علماء اللاهوت.

وفي العقود الأخيرة، نشط السعي إلى الوحدة بين كنيستي القسطنطينية ورومة. فقد زار الباباوات يوحنا الثالث والعشرون وبولس السادس ويوحنا بولس الثاني البطريركين المسكونيّيْن اثيناغوراس وديمِتريوس في اسطنبول. وردّ هذان الزيارة فذهبا إلى روما. وأُنشِئت لجان للتقارب والتفاهم بحيث يمكن اعادة الوحدة، ومساعدة المسيحيين على النمو في الحياة المسيحية التي هي اتحاد بحياة الله.

٣ - ٣ - حركة الإصلاح والإصلاح المضاد:

الإصلاح هو حركة التجديد الإنجيلي التي قامت في القرن السادس عشر لأسباب شتى. كان هدفها تجديد الكنيسة - لكنها أدّت إلى قيام كنائس منفصلة عن الكنيسة الكاثوليكية. وهي الكنائس البروتستانتية اللوثريّة والمشيخية والكنيسة الانكليكانية.

إن موضوع النعمة هو الموضوع الرئيس الذي قسم الكنيسة الغربية إلى

كاثوليكية وبروتستانتية. دار النقاش حول الدور الذي يجب أن يعطى لنعمة الله من جهة، ولأعمال الإنسان من جهة أخرى، في «تبرير الخاطىء أمام الله» وحصول الإنسان على الخلاص.

ولقد اعتبر المصلحون البروتستانت أن طاعتهم للبابا وبقاءهم في الكنيسة الكاثوليكية هما رهن بقبول البابا نظرتهم في هذا الموضوع، إلاّ أن الكنيسة الكاثوليكية، في المجمع التريدنتيني (١٥٤٧)، رفضت النظرة البروتستانتيّة وحرمت اتباعها. فما هي بالاختصار تعاليم البروتستانتية وردّ المجمع التريدنْتيني في موضوع النعمة!

٣ ـ ٣ ـ ١ ـ مفهوم النعمة والتبرير والخلاص وحركة الإصلاح:

أبرز ما قال به لوثر هو أن الخلاص يتمّ بالإيمان وحده، وأن الخطيئة الأصلية أفسدت بطريقة جذرية طبيعة الإنسان ـ ومن ثم لا وجود للحرية التي تتيح للإنسان تتميم أعمال برّ وصلاح. فالإنسان خاطىء في كيانه وفي جميع أعماله. نعمة الله هي التي تبرّره وتعمل فيه كل عمل صالح يقود إلى الحياة الأبدية. فالشرط الكافي هو الإيمان. والإيمان ليس اعتناقاً فكريّاً لحقائق عقائدية، بل هو عمل إرادة به يثق الإنسان برحمة الله الذي ينحني على الإنسان، ويغفر له خطاياه.

ويقول أيضاً أن التبرير الذي يحصل عليه المؤمن، لا ينفذ إلى صميم طبيعته الإنسانية. بل يبقى عرضيّاً وخارجياً. يبقى الإنسان المبرَّر خاطئاً. إلاّ أن خطيئته لا تُحسَب عليه. إنه، حسب تعبير لوثر «خاطىء وبارٌّ في آن معاً».

وعليه، فالأعمال لا تقود إذاً إلى التبرير ـ فالإيمان وحده يبرّر الإنسان، إلاّ أن الإنسان يجب أن لا يكتفي بالإيمان، بل أن يقرن الإيمان بالعمل.

فالأعمال هي ثمار الإيمان، وإنْ لم تكن هي التي تبرّر الإنسان. إلاّ أن الله قد أوصى بها. ولا بدّ للمؤمن من أن يُظهِر إيمانه بحياة جديدة في تتميم جميع وصايا الله وجميع تعاليم المسيح.

أما الخلاص الأبدي، فلا يحصل عليه المؤمن بما يقوم به من أعمال صالحة. فالإنسان، مهما قام بجهد ومهما صنع من أعمال صالحة، ومهما بلغ من كمال وقداسة، فإنه يبقى خاطئاً. ولن يستحق بأعماله وبحياته الحياة الأبدية. فالخلاص هو نعمة مجانية استحقّها لنا «المسيح وحده» بموته الفدائي وقيامته.

«النعمة وحدها»، «المسيح وحده»، «الإيمان وحده» ـ تلك هي العبارات الثلاث التي توجز فكرة المصلحين في النعمة والتبرير والخلاص الأبدي.

٣ ـ ٣ ـ ٢ ـ الأوضاع الدينية العامة في مطلع القرن السادس عشر، وثورة الراهب لوثر:

تردّت الحالة الدينية في مطلع القرن السادس عشر. وأهمل رجال الدين واجباتهم الروحية. وتناسى الباباوات أن رعاية النفوس هي أهمّ من المحافظة على الممتلكات المادية. فصارت الأوضاع الدينية تدعو إلى الإصلاح. فهبّ الراهب لوثر منادياً به. ولكنه رأى الأمور من جانب واحد. وتشبث برأيه فانشقّ عن الكنيسة وحاربها. وأسس كنيسة جديدة دُعيت «الكنيسة البروتستانتية» أو بالأحرى مجموعة الكنائس البروتستانتية.

وُلِد لوثر في المانيا سنة ١٤٨٣ ـ فلما شبّ داخل الدير ـ وقبل فيه سرّ الكهنوت ـ وأصبح استاذاً في جامعة وتمبرغ.

كان لوثر رجلاً عبقرياً، امتاز بقوة تفكيره وحسن بيانه. ولكنه كان سوداوي المزاج حمله طبعه على الاقتناع بأن الطبيعة البشرية فاسدة. فلا يتمكن الإنسان من نيل الخلاص الأبدي إلاّ بواسطة الإيمان وحده.

وقادته الظروف إلى مقاومة الكنيسة. وقد أراد البابا لاون العاشر أن يبني كنيسة القديس بطرس، فمنح المتبرّعين لبنائها غفراناً كاملاً شرطة أن تكون نفسهم في حال النعمة المبرّرة. فناهض لوثر قضية الغفرانات، وتطرّق إلى قضايا أخرى. منها رفض الاعتقاد بأنّ سرّ القربان المقدس هو ذبيحة. ورفض

الرهبانيات والنذور الرهبانية. ورفض بعض ممارسات الكاثوليك، كالحج والصوم والاعتراف بالخطايا. وقال أيضاً أن الكتاب المقدس هو ينبوع الإيمان وحده. ويحقّ لكل إنسان أن يفسّره تفسيراً خاصاً حسب الهام الروح القدس.

٣ ـ ٣ ـ ٣ ـ الإصلاح الكاثوليكي المضادّ ـ ومجمع التريدنتيني:

اضطرّت الكنيسة الكاثوليكية إلى الاعتراف بصواب العديد من التُهم التي وجهها إليها المصلحون، ووجوب الكفّ عن التجاوزات دون إبطاء. فانطلقت حركة تسعى إلى اصلاح الكنيسة الكاثوليكية «من الداخل» سُميت «الاصلاح المضادّ». وكانت الخطوة الأولى في هذه الحركة دعوة وجهها البابا لعقد مجمع إصلاح، عُرف بالمجمع التريدنتيني (نسبة «إلى مدينة ترانت التي استضافته). ولم يشترك فيه لا الارثوذكس ولا البروتستانت.

ووضع هذا المجمع حدّاً لأغلبية التجاوزات التي ندّد بها المصلحون كما أنه أعلن مجدداً التعليم الكاثوليكي التقليدي. وسعى الجميع إلى اصلاح الكنيسة من الداخل، بالأمانة إلى سلطة البابا لا بالخروج عنها.

٣ ـ ٣ ـ ٤ ـ مفهوم النعمة والتبرير والخلاص حسب المجمع التريدنتيني:

أعلن المجمع التريدنتيني أن ليس للكتاب المقدس تفسير آخر غير التفسير الذي تقدّمه لنا الكنيسة المقدسة. وأن الله هو الذي يبرر الخاطىء شريطة أن يكون نادماً. وأن البرّ الذي يحصل عليه الإنسان ينمو بالأعمال الصالحة. وأن المسيح، بموته، برّرنا. والتبرير ليس مجرّد غفران للخطايا، بل تجديد الإنسان الداخلي بتقبّل النعمة. فالإنسان الخاطىء يُصبح باراً في صميم كيانه، ووراثاً للحياة الأبدية. باختصار، إن يسوع هو الذي يمنح دوماً قوته للمبررين، «كالرأس للأعضاء» و «وكالكرمة للأغصان». وهذه القوة تسبق وتصحب وتتبع دوماً أعمالهم الصالحة، وبدونها لا يمكن أن تكون هذه الأعمال مرضيّة أمام الله ـ إن محبة الله للبشر عظيمة إلى حدّ أنها تجعل من مواهبة استحقاقات لهم.

٣ ـ ٣ ـ ٥ ـ ماذا بقي اليوم من هذا النقاش؟ :

يُعتبر اليوم النقاش الذي جرى بين الكاثوليك والمصلحين في القرن السادس عشر أمراً عفّاه الزمن. ويمكننا اليوم أن نرى بوضوح كيف كان كل فريق يؤكد بشدّة ناحية معينة من العقيدة الواحدة. وفي بداية هذا القرن، كان المؤتمر الأول للجمعيات الإرسالية الإنجيلية، نقطة الانطلاق لنشأة «مجلس الكنائس العالمي»، فيه تتلاقى الكنائس للتعاون ولدراسة السُبل للوصول إلى الوحدة. وقد بدأ عهد جديد من الحوار بين الكنيسة الكاثوليكية والكنيسة الإنجيلية.

الفصل الرابع

٤ ـ المجمع الڤاتيكاني الثاني ١٩٦٢ ـ ١٩٦٥

آخر المجامع المسكونية في الكنيسة انعقد بدعوة من البابا يوحنا الثالث والعشرين، والهدف من ورائه تجديد الكنيسة الكاثوليكية، بمقتضى حاجات العصر الحديث. كان للانفتاح والحوار، حوار مع الفكر المعاصر، حوار مع العالم، حوار مع سائر المسيحيين. حوار مع سائر الديانات، حوار مع كل البشر حتى غير المؤمنين. كان له أبعاد لاهوتية ومسكونية ورعائية، جزيلة الأهمية ـ شارك فيه أساقفة كاثوليك من جميع المناطق، وحضر إلى جانبهم مراقِبون من الكنائس الأرثوذكسيّة والبروتستانتية، فضلاً عن ضيوف ينتمون إلى الإسلام واليهودية وديانات أخرى.

٤ ـ ١ ـ أعمال المجمع:

صدر عن هذا المجمع ست عشرة وثيقة كانت الغاية منها تجديد سائر مظاهر الإيمان المسيحي وممارساته ـ وهذه هي قائمة النصوص النهائية التي صدرت عن المجمع:

أ ـ الدساتير العقائدية والرعائية:

ـ دستور عقائدي «في الكنيسة»، يُعلن أنها شعب الله «ونور الأمم».

ـ دستور عقائدي «في الوحي الإلهي»، ومصدره الكتاب المقدس والتقليد الكنسي.

ـ دستور عقائدي «في الليثوجيّا»، أي أحكام الصلاة في المسيحية.

ـ دستور رِعَويّ «عن الكنيسة في عالم اليوم»، تشاطِرُه فرحه وآماله.

ب ـ القرارات المسلكية:

ـ قرار مجمعي في مهمة الأساقفة الراعوية في الكنيسة.

ـ قرار مجمعي في حياة الكهنة وخدمتهم الراعوية في الكنيسة.

ـ قرار مجمعي في التنشئة الكهنوتية.

ـ قرار مجمعي في تجديد الحياة الرهبانية وملائمتها.

ـ قرار مجمعي في رسالة العلمانيين.

ـ قرار مجمعي في نشاط الكنيسة الإرسالي.

ـ قرار مجمعي في الكنائس الشرقية الكاثوليكية.

ـ قرار مجمعي في الحركة المسكونية.

ـ قرار مجمعي في وسائل الاتصالات الاجتماعية.

ج ـ البيانات:

ـ بيان في التربية المسيحية.

ـ بيان في علاقة الكنيسة بالأديان غير المسيحية.

ـ بيان في الحرية الدينية.

وأما قيمة هذه الوثائق من الناحية الإيمانية فمتفاوتة ـ كما تدل عليها العناوين الرئيسية الثلاثة. فالدستور غير القرار والقرار غير البيان. ذلك بأن الدستور يحمل سمة الديمومة. فيما القرار له صفة عملية وأحكامه مرتبطة بظروف الزمان والمكان وفقاً للمبدأ الفقهي العام: تتبدّل الأحكام بتبدّل الأزمان. وأمّا البيان فإعلان موقف من موضوع ما، فهو رهنٌ بمناسباته التاريخية.

٤ ـ ٢ ـ أهمّ تعاليم المجمع:

أ ـ مكانة الكتاب المقدس المميزة في إيمان الكنيسة.

ب ـ كهنوت جميع المسيحيين.

ج ـ الالتزام بمتابعة العمل في سبيل الوحدة المسيحية، أي العمل المسكوني.

د ـ الالتزام الفعال بالنضال من أجل العدالة والسلام وحقوق الإنسان.

هـ ـ إقامة شعائر العبادة باللغات المحلية.

و ـ خلاصُ الله لأتباع سائر الديانات.

ومن ميزات هذا المجمع الظواهر التي صحبت تشريع أعماله.

فالظاهرة الأولى أن التحرّر والتطوّر والتجديد والتوحيد، مع التنوع والتطبع، ظهر في نفوس الآباء ونصوص الأعمال. فلم تكن قرارات المجمع حرفاً ميتاً، بل كانت روحاً حيّاً مُحيياً، أصبح يشعّ في حياة الكنيسة ونشاطها ـ والظاهرة الثانية أن المجمع باشراك جميع القوميات والثقافات فيه، أعطى أروع صورة عن الانفتاح الذي دعا إليه والحوار في سبيل الوحدة المسيحية والإنسانية.

٤ ـ ٣ ـ انجازات المجمع في سبيل الوحدة والحوار والمصالحة:

ـ مع سائر المسيحيين:

وقد جسّد قداسة البابا بأعماله أهداف المجمع في التجديد والتوحيد. ففي سفره إلى القدس، ومعانقته في مهد المسيحية، أخاه قداسة البطريرك المسكوني، زعيم الأرثوذكسية، فتح النفوس والعقول والقلوب للحوار المسيحي الحقيقي. وفي إعلان بُطلان الحُرم القائم بين الارثوذكسية والكثلكة منذ عهد الانشقاق سنة ١٠٥٤، في آنٍ واحد في رومة وفي القسطنطينية، زال

الحاجز الموهوم الذي كان يمنع التفاهم. وفي اشتراك البابا بنفسه مع جميع المراقبين، في صلاة واحدة بكنيسة القديس بولس برومة، أعلن قيام للوحدة الأساسية بين جميع المسيحيين. وفي إنشاء أمانة خاصة للوحدة المسيحية تبنّت الكنيسة الحركة المسكونية.

مع الإسلام:

وكان أيضاً حجّ البابا إلى الأماكن المقدسة انفتاحاً على الإسلام وما فيه من جمال التوحيد والإيمان بالله. وكان اعتراف المجمع المسكوني، لأول مرة في تاريخ المسيحية، رسمياً، بالقيم الإسلامية وأركانها من توحيد وصلاة وصوم وزكاة، ومن اعتراف بالمسيح وأمه على وجه ما، تكريساً لذلك. ففي البيان المتعلّق «بعلاقة الكنيسة بالديانات غير المسيحية»، وفي الفصل الخاص بالإسلام، جاء ما يمكن تلخيصه بما يلي:

ـ تنظر الكنيسة بعين الاعتبار إلى المسلمين وتوليهم كل الاحترام.

ـ المسلمون والمسيحيون يعبدون الإله الواحد، الخالق السماء والأرض، القدير، الرحيم، المكلّم البشر.

ـ المسلمون والمسيحيون على السواء يجتهدون في أن يخضعوا لأوامر الله تعالى.

ـ كلا الفريقين يستند في إيمانه إلى إيمان إبراهيم.

ـ المسلمون يجلّون يسوع نبيّاً ويكرّمون مريم العذراء.

ـ المسلمون يقدّرون الحياة الأخلاقية، ويعبدون الله لا سيما بالصلاة والصوم والزكاة.

ـ المسلمون والمسيحيون ينتظرون يوم الدين وقيامة الأموات.

هذا، وينتهي التصريح حول الإسلام بهذا الكلام: «ولئن نشأت، على مرّ

القرون، منازعات وعداوات كثيرة بين المسيحيين والمسلمين، فالمجمع يحضّ الجميع أن يتناسوا الماضي وينصرفوا بإخلاص إلى التفاهم، ويصونوا ويعزّزوا معاً السلام والحرية والعدالة الاجتماعية والقيم الأخلاقية لصالح جميع الناس».

وتجسّد الحوار الإسلامي المسيحي في إنشاء أمانة خاصة بالحوار مع الإسلام في الڤاتيكان ـ هدفها تعزيز العلاقات والاحترام المتبادل والتفاهم عن طريق المحاضرات الأكاديمية والدراسات والمشاريع المشتركة في ميادين الشؤون الاجتماعية، وقضايا التنمية والأخلاق.

ـ مع البوذيين:

وكان سفر البابا إلى الهند بمناسبة المجمع القرباني هناك، لقاء مع البوذيّة وتقديراً لما فيها من إيمان بالله، مع ما يشعر به من حلولية ـ وما تصريح المجمع «في موقف الكنيسة من الأديان غير المسيحية» سوى دعوة لأهل التوحيد الإنجيلي والتوراتي والقرآني والبوذي، مع ما بينهم من فوارق، لتوحيد جهودهم في حماية التوحيد من الإلحاد. وتجسّدت أيضاً هذه الأهداف في إنشاء أمانة خاصة بالعلاقات مع غير المسيحيين.

مع الأمم المتحدة:

وأخيراً، كان سفر البابا إلى الأمم المتحدة، يدعو من على منبرها ممثلي جميع الأمم إلى السلام، إلى حلّ المشاكل الدولية بالمفاوضة وروح الوئام، وإلى حق الشعوب المتخلّفة أو المحرومة على الشعوب والدول الغنيّة، لأنه «في أموالهم حقٌّ معلوم للسائل والمحروم»، ظاهرة تطوّع المسيحية لخدمة الإنسانية، أياً كانت أديانها وثقافاتها، بل حتى نوع الحادها ـ وجاء على هامشها إنشاء أمانة خاصة بغير المؤمنين لنشر الإيمان على الأرض لسلام الإنسان وسعادته.

هذا هو المجمع المسكوني الڤاتيكاني الثاني كما يبدو في مطلع عهد جديد لم تعهد له البشرية مثيلاً. وضع حداً للعهد القسطنطيني في امتزاج الدين

بالدولة. وحدّاً لعهد الانكماش الذي ساد في الغرب منذ القرن السادس عشر، وفتح الكثلكة على سائر الطوائف المسيحية باحتضان الحركة المسكونية. وفتح المسيحية على العالم كله تتفاعل معه في كل الميادين لخير البشرية ـ وسيكون لهذا المجمع ذكره المجيد في تاريخ الكنيسة والمسيحية والبشرية، مع ما يشوب أعمال الإنسان، أياً كان، من ظلال، لا تُخفي آيات الجمال والكمال.

الفصل الخامس

٥ ـ الطوائف المسيحية في العالم العربي والحركة المسكونية المعاصرة

إن الفتح العربي وجد المسيحيين منقسمين إلى طوائف، فاعترف بها وأقرّها وسمح لها بأن تدوم حتى اليوم.

وعرف المؤرخون ثلاثة مذاهب للنصارى: مذهب النساطرة القائلين بشخصين وطبيعتين في المسيح. ومذهب الملكيّين، وقد تفرّع عنهم الموارنة، القائلين بشخص واحد وطبيعتين. ومذهب اليعاقبة، من سريان وأقباط وأرمن، القائلين بشخص واحد وطبيعة واحدة.

وقد رأينا نشأة كل من هذه المذاهب الدينية، وقد نستعرض تاريخ كل منها باختصار.

٥ ـ ١ ـ النساطرة المعروفون اليوم بالكلدان والأشوريين:

الكنيسة النسطورية هي كنيسة ما بين النهريْن السريانية الشرقية. قطعت العلاقات مع كنائس العالم الروماني في القرن الخامس. لم تعترف بمجمع أفسس (٤٣١) الذي حرم نسطور.

كان النساطرة يعيشون في ظل مملكة فارس غير المسيحية ـ وخسرت النسطورية في بادىء الأمر العديد من أبنائها، وقد اعتنقوا الإسلام. خصوصاً في اليمن وعُمان وجنوب إيران. فشعر البطاركة بخطورة الحال، فقاموا بإصلاحات داخلية في الأديرة، وعكفوا على تثقيف الشعب وتعليمه مبادىء

الدين المسيحي. فانتعشت الكنيسة النسطورية واكتسبت حيوية فعالة. وازدهرت ازدهاراً فكرياً لم تعهده من قبل. فلما قامت الدولة العباسية في العراق، عظمُت أهمية النساطرة لتقربهم من حاشية الخليفة ورجال البلاط.

وأشهر بطاركتهم في ذلك العصر البطريرك تيموثاوس (٧٨٠ ـ ٨٢٣) الذي نقل مقرّ البطريركية من المدائن إلى بغداد. وكان رجل إدارة وتنظيم، وعلم وتأليف. فاهتم بالإرساليات التبشيرية في مختلف الأقطار. فامتدّت الكنيسة النسطورية في عهده غرباً إلى دمشق والقدس وحلب، وشرقاً إلى الهند وبلاد المغول. وكانت النصرانية قد دخلت أراضي الصين في القرن السابع، وبقيت مزدهرة حتى القرن الرابع عشر. من أشهر الكتاب النساطرة في ذلك العهد عماد البصري، وابن الطيّب وإيليا النِصّيبيي.

وفي القرن الخامس عشر، انضم بعض النساطرة إلى الكنيسة الرومانية بمناسبة انعقاد مجمع فلورنسة سنة ١٤٤٢ ـ فتلّقبوا «بالكلدان»، وعُرفت كنيستهم منذ ذاك الحين بالكنيسة الكلدانية.

وللكنيسة الكلدانية حالياً ١١ أبرشية، سبعُ في العراق واثنتان في إيران وواحدة في سورية (حلب) وواحدة في لبنان (بيروت)، ونائب بطريركي في القدس ومصر واسطنبول. ومقرّ الكرسي البطريركي بغداد. يرأسه حالياً البطريرك روفائيل الأوّل بيداويد، بطريرك بابل للكلدان.

وللطائفة الرهبانية الانطونية، ورهبانيتان نسائيتان هما: «الحبل بلا دنس» و «الكاترينات»، ومدرستان اكليريكيتان في الموصل، وواحدة صغرى في طهران. ويربو عدد أبناء الطائفة على ٢٠٠ ألف نسمة.

أما النساطرة الذين كانوا متمركزين في جبال كردستان شرقي تركية، منذ القرن السابع عشر، فقد اضطروا في نهاية الحرب العالمية الأولى إلى ترك مناطقهم لتورّطهم مع الروس ضدّ الأتراك، فلجأوا آخر الأمر إلى العراق.

وكانوا قد تخلّصوا من اسمهم القديم «النساطرة» ـ فأُطلق عليهم اسم

الأشوريين ليتميزوا عن الكلدان الكاثوليك. واتخذوا مؤخراً اسماً رسمياً لكنيستهم هو «كنيسة الشرق الأشورية».

أما البطريرك الحالي فهو مار دنحا الرابع، انتُخب عام ١٩٦٧، ومقرّه في طهران. وهو يحاول أن يوحّد شعبه المنتشر في العراق وإيران وسورية وجنوب الهند وبلاد الاغتراب، وأن يفتح كنيسته على سائر الكنائس، وقد اشترك في حفلة تنصيب البابا يوحنا بولس الثاني. وزار رسمياً رومة في سنة ١٩٨٤.

٥ ـ ٢ ـ الملَكّيون والروم:

اسمٌ اطلقه «أنصار الطبيعة الواحدة» أي «المونوفيزيون» على مسيحيي سورية ومصر الذين حافظوا على الإيمان القويم الذي كان عليه الأمبراطور البيزنطي، أي على العقيدة المقرّرة في مجمع خلقيدونيا.

كان الملكيّون أقلّية ضئيلة في مصر، أما في فلسطين وسورية الغربية والجنوبية فكانوا أوفر النصارى عدداً. وظلّت حركتهم الفكرية منتعشة. واشتهر بينهم القديس يوحنا الدمشقي. وقد فاوض جدُّه المنصور العرب وسلّم إليهم مفاتيح دمشق. وترهّب يوحنا في دير القديس سابا قرب القدس. وله تآليف كثيرة قيمّة. وهو آخر الآباء اليونان. توفي في أواسط القرن الثامن، واشتهر بعده تاودوروس أبو قرّة أسقف حرّان. وقد وضع تآليف كثيرة بالعربية. وناقش اليعاقبة وعُلماء المسلمين. كما اشتهر أيضاً العالِم الفيلسوف قسطا بن لوقا، وسعيد ابن البطريق، بطريرك الاسكندرية وله تآليف لاهوتية وتاريخ عام. والمؤرخ يحيى بن سعيد الانطاكي، وسليمان الغزيّ وهو صاحب ديوان شعر ديني ومقالات لاهوتية.

وفي أواخر القرن العاشر، سقطت انطاكية وما جاورها من القرى والأرياف في شمالي غربي سورية في أيدي البيزنطيين. فنصّب أباطرة الروم عليها عدة بطاركة من الاكليروس القسطنطيني، فازداد تأثير الطقس البيزنطي ـ

وطغى على الطقس الانطاكي. وقضى عليه قضاءً تاماً لدى الملكيين، فانتحلوا الطقس البيزنطي.

وكانت انطاكية آنذاك مركزاً ثقافياً هاماً، فاشتهر عبد الله بن الفضل الانطاكي الذي نقل الكتاب المقدس إلى العربية. كما ترجم عدداً كبيراً من تآليف الآباء القديسين. ووضع مصنّفات جليلة في الفلسفة والدين. وكلّها بالعربية.

وحافظ الملكيون على معظم أديرتهم ـ وأهمها دير القديس سابا بالقرب من القدس. ودير جبل سينا ودير القديس سمعان العجائبي بجوار انطاكية، كما أنهم ساهموا، قدر المستطاع، في معالجة الشؤون الكنسيّة العامة. فأرسلوا موفديهم إلى المجامع المسكونية، وبقي الملكيون وحدهم في البلاد العربية على إتصال ديني برومة والقسطنطينية. وقد أوفد الخلفاء بعض بطاركتهم إلى البلاط البيزنطي في مهام سياسية. وكان للبطريرك الانطاكي السلطة العليا على بلاد الكرج والجاليات الملكية في الأراضي الفارسية.

أما اليوم، فإن كلمة «ملكيّون» تدلّ على الروم الكاثوليك فقط، وهم ينتمون إلى بطريركيّات انطاكية وأورشليم والاسكندرية الثلاث. ولهم ثلاث أبرشيّات متعلّقة مباشرة بالبطريرك: أبرشية دمشق في سورية، وأبرشية القدس جنوبي فلسطين، وأبرشية مصر.

وهنالك ثلاث عشرة أبرشية في الشرق عائدة للأساقفة المحليين ـ أربع منها في سورية: حلب وحمص وحوران واللاذقية. وسبعٌ في لبنان: بيروت وصيدا وزحلة وبعلبك وصور وطرابلس ومرجعيون. وأبرشية حيفا والناصرة شمالي فلسطين، وأبرشية عمان في المملكة الأردنية، وستٌّ في بلاد الاغتراب نشأت كلُّها في عهد البطريرك الحالي مكسيموس الخامس حكيم، الذي كرّس الكثير من وقته لزيارة جالياتهم خارج الشرق. وهي الولايات المتحدة والبرازيل وكندا وأوستراليا والمكسيك وفنزويلا. وللروم الكاثوليك أيضاً نيابات بطريركية

في كل من بغداد والكويت والخرطوم واسطنبول، وهي متعلقة مباشرة بالبطريرك. وثمة مراكز رعوية في الاغتراب أيضاً: في الأرجنتين وباريس ومرسيليا وبروكسيل ورومة. ولهم أربع جمعيات رهبانية للرجال، وخمس رهبنات للنساء.

ويضمّ الروم الكاثوليك زهاء مليون مؤمن، نصفهم تقريباً خارج الشرق.

٥ ـ ٣ ـ الموارنة:

٥ ـ ٣ ـ ١ ـ الكنيسة المارونية في بداياتها:

تتلمذ للقديس مارون، وهو راهب تنسّك في سورية الشمالية، في آخر القرن الرابع ومطلع القرن الخامس، جماعة من الرهبان في جوار مدينة أفاميا ـ ولمّا توفّي سنة ٤١٠، بنوا بين أفاميا وحمص ديراً كبيراً ورفعوا إلى جانبه كنيسة. ولُقّب الدير «بدير القديس مارون». واشتهر هؤلاء الرهبان بإيمانهم القويم وأمانتهم لمجمع خلقيدونيا.

واتّبعهم خَلق كثير من سكان البلاد، واعتنقوا معتقدهم ـ فتلقّبوا بالموارنة. وكان لهذا الدير في القرن السابع رئيس شهير يُدعى يوحنا مارون. ولمّا كان كرسي انطاكية شاغراً، مُنح رئيس الدير لقب البطريرك ـ واعترف الكرسي الرسولي في رومة بهذا الوضع ابتداء من القرن الثاني عشر.

كان الموارنة يعيشون على ضفاف العاصي ـ فنموا وكثروا وانتشروا في القرنين السادس والسابع في سهول سورية الشمالية. فسكنوا معرّة النعمان وحلب وانطاكية والبلاد المجاورة. لكنهم عانوا من مضايقات اليعاقبة، والملكيّين، لأنهم أبوا، ولا شك أن يؤيدّوا أحد الطرفين ـ فلجأوا إلى وديان لبنان الشمالي، ووادي قاديشا خاصة، في القرن الثامن، فاختلطوا بالسكان الأصليين، وبنوا هناك كنائسهم، ووطّدوا مقرّ بطريركيتهم. ثم انتشروا شيئاً فشيئاً، فاحتلّوا معظم الجبال اللبنانية.

وفي القرن التاسع، في عهد المأمون، ارتحل قوم منهم إلى قبرص، كما عاد بعضهم إلى حلب في القرن الحادي عشر. إلا أن الأغلبية الساحقة بقيت في لبنان.

وقد قضى الموارنة في لبنان حياة منعزلة، فنعموا بقسط وافر من الحرية والاستقلال الداخلي، إلاّ أن قلّة الوثائق التاريخية لا تسمح لنا بأن نطلّع على تفاصيل حياتهم وتطوّر بطريركيتهم حتى مطلع القرن الثاني عشر.

٥ ـ ٣ ـ ٢ ـ الكنيسة المارونية في القرون الأربعة الأخيرة:

ـ من الوجهة القومية:

اكتسب الموارنة في هذا العصر أهمية جديدة كبرى ـ فمن الوجهة القومية، فقد تحرّروا من سلطة الأمراء المتاولة، وخرجوا من عزلتهم في وادي قاديشا، وانتشروا في كسروان وتقوّوا فيه. وحصلت بعض الأُسَر المارونية، كأسرة الخازن مثلاً، على نفوذ واسع لدى الأمير فخر الدين المعني الذي ارتكز على مؤازرة الموارنة. ومن بعده بقي الأمراء المعنيّون ثم الشهابيون يستندون إلى الموارنة لسياسة البلاد اللبنانية. وقد اعتنق النصرانية بعض أمراء أبي اللمع وقسمٌ كبير من بني شهاب. فأصبح الموارنة والدروز ركن القومية اللبنانية الحديثة.

ولما انقرض حكم الأمراء عام ١٨٤٠، أصبحت الكلمة الأولى في تمثيل لبنان للبطريرك الماروني ـ فالتفّت حوله جميع الطوائف اللبنانية ـ وما كانت حوادث ١٨٤٥ و ١٨٦٠ إلاّ أزمتيْن عابرتيْن حرّكتهما الدول الأجنبية الطامعة، حصل لبنان بعدهما على السلام والازدهار في ظلّ نظام المتصرفية الذي قام من سنة ١٨٦٤ حتى سنة ١٩١٤، وفيها نقض جمال باشا العثماني هذا النظام ونكّل باللبنانيين.

وتكوّن لبنان الكبير بعد الحرب العالمية الأولى في ظل الانتداب الفرنسي، ثم نال استقلاله تماماً عام ١٩٤٦. والكيان اللبناني يرتكز اليوم على

التعايش والتوازن القائمين بين مختلف الطوائف، وأهمُها الموارنة، بموجب الميثاق الوطني الذي وضع عام ١٩٤٣.

وجاءت سنوات الحرب اللبنانية الأخيرة (١٩٧٥ ـ ١٩٩٠) لتعصف بالتعايش الذي كان سائداً بين مختلف الطوائف ـ وقد بذل البابا بولس السادس ثم البابا يوحنا بولس الثاني جلّ اهتمامهما لمساعدة لبنان على حلّ مشاكله، وعلى إيجاد صيغة جديدة للتعايش، تتلاءم وما جرى من أحداث، ولا تزال المساعي الطيبة تتابع جهودها ـ وبعد أن سكتت الأسلحة في نهاية العام ١٩٩٠، دعا قداسة البابا إلى عقد سينودس عامّ في لبنان لدراسة ما تتطلّبه الأوضاع الراهنة من انفتاح وتجدد.

ـ من الوجهة الثقافية:

أما من الوجهة الثقافية، فقد كان الموارنة أول من اطلّعوا على الثقافة الغربية. وأوّل من نقلوا إلى الغرب الحضارة الشرقية، فمهدّوا الطريق لحركة المستشرقين. وفي الشرق نفسه، فتحوا المدارس الكثيرة، ونشروا العلم والمعرفة، وكانوا أيضاً في الطليعة. وقد اشتهر في القرن الثامن عشر علماء موارنة، منهم أربعة من أُسرة السمعاني، وهم: يوسف سمعان، واستفانوس، ويوسف لويس، وسمعان السمعاني. وفي حلب اشتهر المطران جرمانوس فرحات.

أما يوسف سمعان السمعاني (ت ١٧٦٨)، مطران صور، فكان لُغوياً قديراً، وترأس المكتبة الفاتيكانية. وجمع مئة وخمسين مخطوطاً وأُلوفاً من قطع النقود القديمة. وله تآليف كثيرة، طُبع منها عشرون مؤلّفاً ـ وأهمها «المكتبة الشرقية» في أربعة أجزاء، تحوي معلومات كثيرة وجليلة الفائدة.

وكان استفانوس (ت ١٧٨٢) رحّالة وعلاّمة. وقد رتّب جداول لعدد وافر من المخطوطات المحفوظة في المكتبة الفلورنتينية، كما نظّم فهارس المخطوطات السريانية في المكتبة الفاتيكانية.

ودرّس يوسف لويس (ت ١٧٨٢) اللغة السريانية في معهد الحكمة، ونشر كتابه «الأحكام الطقسية للكنيسة الجامعة».

أما سمعان السمعاني (ت ١٨٢١) فقد كان استاذ اللغات الشرقية. نشر كتاب «تاريخ العرب قبل الإسلام».

هذا وقد أثارت كتب أسرة السمعاني إعجاب العلماء لما فيها من معلومات قيمة ومعارف تاريخية دقيقة. ولقد اطلعت الغرب على كنوز المعرفة الشرقية وتاريخ طوائفها وطقوسها.

ولا بدّ من ذكر ما كان للمطران جرمانوس فرحات الماروني من فضل عظيم في رفع مستوى الثقافة العربية بين النصارى ـ فقد وضع كتاب قواعد اللغة (بحث المطالب) وألّف قاموساً عربياً. كما ترك ديوان شعر قيّم.

وهكذا قامت النهضة الأدبية في لبنان على أكتاف الموارنة، وانتشرت في أرجاء الشرق كلّه.

ـ من الوجهة الكنسية:

أمّا من الوجهة الكنسية، فقد قوّى الموارنة ارتباطهم بكنيسة رومة في مطلع القرن السادس عشر، واقتبسوا الكثير عن التشريع اللاتيني والطقس الروماني. والكنيسة المارونية هي الكنيسة الشرقية الوحيدة التي انضمت بجملتها إلى الكثلكة، وليس لها فرع ارثوذكسي يقابلها.

٥ ـ ٣ ـ ٣ ـ الأوضاع الحالية:

يرأس الكنيسة المارونية حالياً البطريرك نصر الله صفير. انتُخِب في ١٩ نيسان ١٩٨٦.

وللكنيسة المارونية في الشرق، علاوة على الأبرشية البطريركية ونياباتها، ١٣ أبرشية تقع في لبنان وسورية ومصر وقبرص.

وفي المهجر أبرشيات الولايات المتحدة وكندا والبرازيل وأُوستراليا.

ولها ثلاث رهبانيّات هي اللبنانية المارونية، المريمية المارونية، والانطونية، وجمعية واحدة تدعى جمعية المرسَلين اللبنانيين ـ ويربو عدد الرهبان جميعهم على ٧٠٠ راهب ولهم ١١٦ ديراً.

كما أن لها خمس رهبانيّات نسائية، يقارب عدد أفرادها الـ ٧٠٠ راهبة ـ لهنّ ٨٨ ديراً. وهنّ: راهبات العائلة المقدسة، والانطونيات واللبنانيات، والتريزات، وراهبات القربان المقدس.

ويقدّر عدد أبناء الطائفة المارونية في البلاد العربية بما يقارب المليون نسمة، ويربو عددهم في المهجر على المليون أيضاً.

٥ ـ ٤ ـ السريان:

كان السريان «اليعاقبة» قبل الفتح العربي يميلون إلى العرب بصلات الدم واللغة. فلما دخل العرب البلاد السورية استقبلهم السريان استقبال المخلِّصين من نير البيزنطيين، ومن محاولاتهم الكثيرة لضمهّم إلى الكنيسة الرسمية، فحافظوا بواسطة العرب على بطريركيتهم وأديرتهم.

وامتاز السريان في ذلك العصر بترجماتهم الفلسفية ـ فنقلوها إلى السريانية أوّلاً، ثم إلى العربية، ولعبوا دوراً شبيهاً بدور النساطرة. وأشهر كَتَبَتَهم آنذاك يعقوب أسقف الرُّها، وأبو رائطة التكريتي ويحيى بن عدي وعيسى بن زَرعة. إلاّ أن الانقسامات الداخلية قد أضعفت هذه الطائفة.

ولمّا استولى الروم في القرن العاشر على الرُّها وشمال الجزيرة، ضغطوا على اليعاقبة ليحملوهم على قبول قرارات مجمع خلقيدونيا. وعقدوا معهم عدة اجتماعات. فلم يتوصّلوا إلى نتيجة ما. وهرب البطريرك اليعقوبي ديونوسيوس الرابع، في القرن الحادي عشر، إلى الأراضي العربية تخلُّصاً من مساعي الروم الاتحادية، وجعل ماردين مقرّ البطريركية اليعقوبية.

وفي القرن السابع عشر، تكوّنت الكنيسة السريانية الكاثوليكية، وقد مرّ تاريخها بثلاث مراحل:

الأولى، كان فيها للبطريرك السرياني لقب «بطريرك حلب»، وقد امتدّت هذه الحقبة من أواسط القرن السابع عشر إلى أوائل القرن الثامن عشر.

الثانية، كان فيها الكرسي البطريركي شاغراً، وكان يسوس الطائفة النوّاب البطريركيون، وقد امتدّت من أوائل القرن الثامن عشر إلى أواخره.

الثالثة، أُعيدت البطريركية السريانية فيها إلى الوجود بلقب «البطريركية الانطاكية» وقد اتخذت لها مقراً في مدن مختلفة.

يرأس الكنيسة السريانية حالياً البطريرك اغناطيوس انطون الثاني حايك، بطريرك انطاكية للسريان الكاثوليك.

وللكنيسة السريانية حالياً، علاوة على الأبرشية البطريركية، ستّ أبرشيات في الموصل، وحلب، ودمشق، وبغداد، وحمص وحماه، والجزيرة والفرات. ولها أيضاً ثلاث نيابات بطريركية في القدس ولبنان ومصر.

ولها رهبانية نسائية تلقب راهباتُها بالإفراميات.

وتضمّ الطائفة السريانية الكاثوليكية حوالي ١٠٠ ألف نسمة، يسكنون في العراق وسورية ولبنان ومصر، وما يقارب ١٥ ألف نسمة في المهجر. ولها أكثر من ٥٠ مدرسة.

أما الكنيسة السريانية الأرثوذكسية، فيرأسها حالياً البطريرك عيواص. وقد انتخب في ١٢ تموز ١٩٨٠. وقد امتاز بعلمه وفضيلته. وكان قد مثّل كنيسته كمراقب في المجمع الڤاتيكاني الثاني، وشارك في الحوار المسكوني بين سائر الكنائس. وقد قام بزيارة رسمية لقداسة البابا يوحنا بولس الثاني في حزيران ١٩٨٤، فصدر عقب هذه الزيارة بيان رسمي يوضح التقارب العقائدي بين الكنيستين، ويسمح بالتعاون الرِعائي والاشتراك بالأقداس في بعض الظروف المعيّنة.

وللسريان الارثوذكس في سورية أربع أبرشيّات، هي: دمشق، وحمص

وحماه، وحلب، والجزيرة والفرات. ولهم في لبنان آبرشية بيروت وزحلة وأبرشية جبل لبنان. وفي الأردن أبرشية القدس. وفي العراق أبرشية بغداد والبصرة وأبرشية دير مار متى شرقي شمالي الموصل. ونيابة بطريركية في الموصل. وفي تركية أبرشية طور عبدين، ونيابة بطريركية في اسطنبول ومصر. وفي بلاد الاغتراب لهم خمس أبرشيات: الولايات المتحدة وكندا، والبرازيل، والأرجنتين، والسويد، وهولندا.

وعدد أبناء الطائفة يتراوح بين مئة ومئتي ألف نسمة.

أمّا سريان الهند، وعددهم مليونان، فقسم منهم يعترف بسلطة البطريرك الأنطاكي، والآخر قد أعلن استقلاله ويخضع لكاثوليكوس الهند.

٥ ـ ٥ ـ الأقباط:

كلمة «قبطي» يونانية الأصل ـ معناها: مصريّ. والكنيسة القبطية كنيسة مصر، ذات التراث الرومي الخاصّ بالحضارة المصرية.

استولى الأقباط على معظم كنائس الملكيين بعد الفتح العربي. ودبّ الفساد في الأكليروس ـ فانحطت الثقافة لديهم انحطاطاً سريعاً بعد أن غادر اليونانيون مدينة الاسكندرية.

إلاّ أن الأديرة بقيت آهلة بالرهبان، لا سيما دير السريان في وادي النطّرون. وفي آخر القرن الحادي عشر، قام البطريرك عبد المسيح بعدّة اصلاحات دينية ـ ونقل مقرّ البطريركية القبطية من الاسكندرية إلى القاهرة. واشتهر في ذلك العصر ساويروس ابن المقفّع.

والطقس القبطي صيغة من صيغ الليترجيّة الاسكندرية ـ نمت في الإطار الديريّ خاصة، واستعملت اللغة المصرية القديمة التي كان الشعب قد حافظ عليها. أمّا اليوم، فإنها تستعمل اللغة العربية إلى جانب القُبطية.

واليوم، يؤلّف الأقباط الارثوذكس الكنيسة الكبرى في مصر من ناحية

العدد. فقد ازداد عددها خاصة في القرن الأخير مع ازدياد سكان مصر. فبلغت أربعة أو خمسة ملايين.

للكنيسة القبطيّة ثلاثون اسقفاً ما عدا البطريرك المقيم في القاهرة، بينهم ٢٦ أسقفاً في مصر، واثنان في السودان، وواحد في القدس، وواحد في أثيوبيا.

عرفت الكنيسة القبطية نهضة جديدة مع البطريرك كيرلُس السادس (ت ١٩٧١) عقب فترة طويلة من الاضطرابات. وانتعشت الحياة الرهبانية والحياة الكنسية في مختلف المجالات. فقد فتح كنيسته على الحركة المسكونية، وأوفد مراقبين للمجمع الڤاتيكاني الثاني في رومة.

وتابع البطريرك الحالي شنودا، المنتخب في ٣١ تشرين الأول ١٩٧١، نهضة كنيسته وانفتاحها ـ فزار اسطنبول ودمشق، وأفريقيا الاستوائية وأميركا. وهو أوّل بطريرك قبطي يخرج هكذا من مصر. وفي عام ١٩٧٣، زار قداسة البابا بولس السادس في رومة، فصدر عقب الزيارة بيان مشترك يوضح تقارب الكنيستين من الوجهة العقائدية، وتمّ بينهما تشكيل لجنة حوار مشتركة.

وعلى أثر الاضطرابات الطائفية التي عكّرت أجواء مصر عامي ١٩٨٠ ـ ١٩٨١، أصدر الرئيس أنور السادات قراراً يسحب الاعتراف بالبطريرك شنودا كرئيس أعلى للأقباط. فانزوى البطريرك في أحد أديرة الصحراء. وخفّف الرئيس حسني مبارك من وطأة العزلة المفروضة على البطريرك، إلى أن سُمح له بالعودة إلى القاهرة، وممارسة مهامّه، وذلك في آخر عام ١٩٨٥.

أمّا الكنيسة القبطية الكاثوليكية، فيرأسها حالياً البطريرك استفانوس الثاني غطّاس إثر انتخابه في ٩ حزيران ١٩٨٦ خلفاً للبطريرك سيداروس الذي اشترك بالمجمع الڤاتيكاني الثاني.

وللطائفة القبطية الكاثوليكية في مصر خمس أبرشيات، علاوة على الاسكندرية. وهي أسيوط، والأقصر، وسوهاج، والمنيا، وطنطا. ولها سبعون

كنيسة، ومدرسة اكليريكية، ورهبانية نسائية للقلب الأقدس، تأسست سنة ١٩١١، ورهبانية جديدة للرجال تأسست سنة ١٩٦٠. ويبلغ عدد الأقباط الكاثوليك زهاء مئة ألف نسمة.

٥ ـ ٦ ـ الأرمن:

هم أعضاء الكنيسة الأرمنية، المعروفة بالغريغروية، نسبة إلى مبشرّها القديس غريغوريوس المنوّر في أواخر القرن الثالث. استقلّت في أواخر القرن الرابع. ولم توافق على تعليم المجمع الخلقيدوني.

ولمّا استولى هِرَقْل على أرمينية بعد أن حارب الفرس وكسرهم، حاول أن يفرض على الأرمن قرارات مجمع خلقيدونيا. فتضايقوا كثيراً من حكم البيزنطيين ـ واتجهوا نحو العرب. ودخلت بلادهم منذ عام ٦٥٣ تحت النفوذ العربي، فعاملهم العرب في بادىء الأمر معاملة حسنة. فلمّا قسا عليهم المتوكِّل، ثاروا عليه. فقمع ثورتهم بشدة. ثم اضطر في نهاية الأمر إلى أن يعترف سنة ٨٦٠ لزعيمهم أشوط بكراتوني بلقب ملك.

تقرّب الأرمن من الروم سياسياً، ولكنهم لم يرضوا بالاتحاد الديني. وفي أواسط القرن الحادي عشر، استولى الأمبراطور قسطنطين التاسع على العاصمة الأرمنية، وحاول فرض العقيدة الخلقيدونية، فلم يُفلح فيما بعد، استولى السلاجقة على أرمينية، فهرب الأرمن وتجمعوا في كيليكية، وكوّنوا فيها بعد ذلك مملكة واتصلوا بالفرنج. واشهر كتبتهم في هذا العصر غريغوريوس أسقف نارِيْك صاحب الأناشيد الدينية.

كان للكنيسة الأرمنية فترات حوار لاعادة الشركة مع القسطنطينية، وحتى مع رومة. وكان على كرسيّ أتشميادزين، وما زال، جثليق جميع الأرمن ـ لكن الظروف التاريخية أدّت إلى إقامة جثليق ثانٍ في سيس (كيليكية)، انتقل بعد ذلك إلى لبنان. ومن جهة أخرى، أدّت الظروف التاريخية أيضاً إلى إقامة بطريركيتيْن في أورشليم والقسطنطينية.

والطقس الأرمنيّ هو الليترجية التي أنشأتها الكنيسة الأرمنية في أثناء القرن الخامس على أساس ليترجيّة أورشليم، وعلى أساس بعض العادات السورية، ثم البيزنطية في ما بعد.

وكانت اللغة الكنسية في أرمينية حتى آخر القرن الرابع اليونانية والسريانية. ولم يكُنْ للأرمنية حروف أبجدية لكتابتها. فوضع لها الجاثليق إسحق الكبير في مطلع القرن الخامس حروفاً للكتابة، وساعده على ذلك الراهب مَسروب. وقام كلاهما بحركة ترجمة واسعة النطاق عن اليونانية والسريانية ـ فنقلا إلى الأرمنية الكتاب المقدس وأهمّ تآليف الآباء والكتبة المسيحيين ونصوص الطقوس الكنسية. ووضع الكَتَبة الأرمن كتباً دينية باللغة الأرمنية لمحاربة البدع. وهكذا قدّمت الكنيسة للغة الأرمنية أُولى روائعها الأدبية.

للطائفة الأرمنية الكاثوليكية في الشرق الأوسط الأبرشيات التالية: الأبرشية البطريركية، وأبرشيات حلب، وبغداد، واسطنبول، واصفهان، والقامشلي، والقاهرة. ولها أيضاً نيابة بطريركية في دمشق وفي القدس، ورهبانية المختاريّين، وراهبات الحبل بلا دنس.

وللأرمن في فرنسة منذ عام ١٩٦٠ أسقف تحت سلطته زهاء عشرة آلاف أرمني ـ كما لهم نيابة رسولية في أثينا وأبرشية في الأرجنتين، ونيابتان رسوليّتان في كلّ من أميركا اللاتينية والولايات المتحدة وكندا. وعدد أبناء الطائفة في البلاد العربية والمهجر يربو على ٢٠٠ ألف نسمة.

أما الأرمن الأرثوذكس، فلا بدّ لنا من ذكر أوضاعهم الخاصة، في تركية، ثم في سورية ولبنان، مع العلم أن معظمهم ما زال حالياً في ما كان يُعرف بالاتحاد السوفياتي.

ففي تركية، كان الأرمن قبل الحرب العالمية الأولى ما بين مليون ومليوني نسمة. ففي سنة ١٨٦٣، أصدر السلطان عبد العزيز نظاماً داخلياً يخوّل العلمانيين كثيراً من الحقوق في الأمور الكنسية. أما السلطان عبد الحميد، فقد

قسا على الأرمن، فلما لم ينالوا مطالبهم بالاصلاحات الدستورية، أسّسوا أحزاباً سرية، أهمها حزب انشاك وحزب طاشناك ـ كلاهما يبغي تحرير أرمينية. ولكن أولهما شيوعي والثاني اشتراكي.

وأجرى السلطان عبد الحميد أولى المذابح المنظّمة ما بين ١٨٩٤ و ١٨٩٦ قضت على مئة ألف أرمني. وتجددّت المذابح في أدنا سنة ١٩٠٩ فقضت في مدة أسبوعين على ٢٠ ألف أرمني.

وقرّرت حكومة تركية متابعة القضاء على الأرمن رغم مناصرة حزب الطاشناك لها. فهلك مليون أرمني في ظروف قاسية جداً. ولم يبقَ حالياً إلاّ زهاء ٧٠ ألف أرمني ارثوذكسي، معظمهم في القسطنطينية. وليس لهم إلاّ أسقف واحد وهو البطريرك القسطنطيني الخاضع لجاثليق إشمازين.

أما في سورية ولبنان، فإن معظم الأرمن الذين نجوا من المذابح قد لجأوا إلى حلب، ومنها توزّعوا في نواحي سورية ولبنان، وأقاموا مركز الجاثليق في لبنان، في بلدة انطلياس، شمالي بيروت. ويربو عدد أرمن سورية ولبنان على ٢٠٠ ألف نسمة.

أما زعيمهم الروحي الحالي، فهو الكاثوليكوس كاركين سركيسيان. وقد زار قداسة البابا يوحنا بولس الثاني سنة ١٩٨٣. وأُجري له استقبال حافل، وهو ضليع بالأمور المسكونية. وكان قد مثّل كنيسته كمراقب في المجمع الڤاتيكاني الثاني.

أما مجموع الأرمن في العالم كله فهو حوالي ٣ ملايين ونصف المليون نسمة.

٥ ـ ٧ ـ الحركة المسكونية المعاصِرة:

هي حركة الروح القدس والكنائس كافة تهدف إلى الشفاء من انقساماتها وإلى إعادة المشاركة التامة في الإيمان وأسرار الإيمان «والوحدة» القانونية والمحبة «والشهادة المشتركة».

إن الحركة المسكونية روح جديدة نشِطت في الكنيسة، لمعالجة ما يفصل بين جميع الكنائس، بُغية الوصول إلى الوحدة التي أرادها المسيح بين تلاميذه. فلم تُعْدَم المسيحية، طوال تاريخها، أناساً تألموا للانقسامات داخل جماعة المؤمنين، وحاولوا إعادة اللحمة بين الكنائس. وقد تكلّلت تلك المساعي في القرن العشرين بولادة الحركة المسكونية. وأطلِق عليها هذا الاسم لأنها تبغي توحيد الكنائس في المسكونة كلها.

فالكنيسة الكاثوليكية، وهي أكبر مجموعة مسيحية، تؤلّف كتلة متماسكة منظمة، تخضع لسلطة مركزية واحدة هي كرسيّ رومة.

وهي تضم كنائس الغرب القديمة التي ظلّت أمينة للكرسي الروماني، والكنائس التي تأسست بفضلها في العالم الجديد، وتتبع كلّها الطقس اللاتيني.

وفروع الكنائس الشرقية التي أقرّت بسلطة الحبر الروماني العليا، وارتبطت بالعالم الكاثوليكي مع الاحتفاظ بشيء من الاستقلال الذاتي في مجال التنظيم والعبادة، وهي موزَّعة على عدة أُسر طقسية:

- الأسرة البيزنطية وهم الملكيّون، والأوكرانيون، والرومانيون، والايطالوالبانيون، وقلّة في اليونان وبلغاريا.

- والأسرة الأرمنية.

- والأسرة السريانية، وهم الموارنة والسُريان والكلدان، والملبار والملانكار في جنوب الهند.

- وأخيراً، الأسرة الاسكندرية، وهم الأقباط والأحباش.

أما الكنائس الأرثوذكسية الشرقية، فهي تضم:

- الكنائس الشرقية القديمة غير الخلقيدونية، يعني بطريركية الشرق الأشورية والكنيسة السُريانية وكنيسة الهند المرتبطة بها والكنيسة الأرمنية، والكنيسة القبطية والكنيسة الحبشية.

ـ والكنائس البيزنطية التي تقرّ بالمجامع المسكونية السبعة الأولى، وهي مجموعة كنائس يربطها إيمانٌ واحد وتشريع واحد وليتورجية واحدة، ولكن ليس لها سلطة مركزية واحدة. وإنْ كان للبطريرك القسطنطيني أوّلية شرفيّة، وحق المبادرة لدعوة السينودس الأرثوذكسي العام.

أمّا **المجموعات البروتستانتية**، فهي تضمّ عدة مجموعات مسيحية مختلفة في العقيدة والنظام. إنما يربط بينها مواقف دينية وروحانية مشتركة، منبثقة عن حركة الاصلاح في القرن السادس عشر. وهي تركّز على الكتاب المقدس كمصدر أوحد للإيمان، وعلى عجز الإنسان المطلق أمام الله.

أهمها الكنائس الرسمية القديمة من انكليكانية ولوثرية ومَشْيخيّة. تفرّعت عنها عدة مذاهب وشيع، نظراً لعدم وجود سلطة تعليمية مسؤولة، ولحرية الفرد حسب الهام الروح في تأويل الكتاب المقدس.

هذا، وإنّ **الموقف المسكوني** الهادِف إلى الوحدة، يعود فجرُه إلى سنة ١٩١٠ لدى إقامة مؤتمر إدِنبرو، الذي انبثق عنه سنة ١٩٢٥ «**المؤتمر المسيحي العام حول الحياة والكلمة**». وبعد سنتين انعقد في مدينة لوزان **المؤتمر العالمي الأول حول الإيمان والنظام**، فتدارس أعضاؤه الأسس اللاهوتية التي تُبنى عليها الكنيسة ووحدتُها. وتمّ انعقاد ثانٍ لهذيْن المؤتمرين سنة ١٩٣٧ ـ فجرى الاتفاق على ضرورة دمجهما في هيئة واحدة هي **المجلس العالمي للكنائس** ـ وحُرّر سنة ١٩٣٨ دستور لهذا المجلس. إلاّ أن الحرب العالمية الثانية أرجأت الانطلاقة الفعلية إلى عام ١٩٤٨ ـ واختيرت جنيف لتكون مقرّاً للمجلس بسبب حياد سويسرا في الشؤون السياسية.

وعلى الرغم من أن المبادرات الأولى جاءت من جانب الكنائس البروتستانتية، فالبطريرك الارثوذكسي في اسطنبول وجّه سنة ١٩٢٠ دعوة إلى جميع كنائس المسيح لتعمل على توثيق العلاقات والتعاون بينها. وانتمى الأرثوذكس إلى المجلس العالمي للكنائس منذ بدايته، كما أنشئت في أغلب

بلدان العالم مجالس إقليمية ووطنية للكنائس، منها، على سبيل المثال، **مجلس كنائس الشرق الأوسط**.

أما الكنيسة الكاثوليكية فقد التزمت، في المجمع الڤاتيكاني الثاني، العمل المسكوني التزاماً رسمياً، وانشأ البابا بولس السادس عام ١٩٦٤ أمانة خاصة مهمتها العمل الدؤوب الفعّال في سبيل الوحدة المسيحية الكاملة.

وعليه، فيسعى المسيحيون جميعاً إلى بناء الوحدة بمواقف عملية مصدرها المحبة والصلاة معاً من جهة، وعلى التعاون في مجالات شتّى من جهة أخرى. وهكذا يحاولون تحقيق الوحدة في المحبة على نحو ما أرادها المسيح في عشائه الأخير.

«فالوحدة ليست امتصاص جماعة لأخرى، بل شركة كاملة في الإيمان ضمن احترام تنوّع التقاليد، بمقدار ما هي تعبير عن الإيمان الواحد وتجسّد الانجيل الواحد ضمن مختلف الثقافات»[١].

---

(١) البابا يوحنا بولس الثاني.

الخاتمة

لقد حاولتُ في كتابي هذا أن أقدّم بوجيز الكلام ما يتضمنه الكتاب المقدس في عهديه القديم والجديد، والمبادىء الأساسية في الإيمان المسيحي، والأخلاق المسيحية بما فيها الحياة الرهبانية، إلى جانب حياة الجماعة المسيحية في تطورها عبر التاريخ وكافّة طوائفها في الشرق العربي. وظلّ هدفي طوال العرض أن أجعل سائر أوجه الإيمان المسيحي في متناول الجميع في الشرق العربي، وخاصة في العالم الإسلامي. أما الغاية المحدودة المتواضعة من هذا الكتاب، فلا هي الهدي، ولا هي الجدل، بل ما هو أبسط، أعني المزيد من الفهم لما يؤمن به المسيحيون وللطُرق التي تدعوهم ديانتهم إلى سلوكها. ومطالعة هذا الكتاب لا تفترض معرفة سابقة للمسيحية، ممّا يعني أنه بالحقيقة «**مدخل**».

أريد أن أختم بدعوة إلى التفاؤل والرجاء والفرح، أياً كان ثقل الحياة. وأن أختم كلامي بالدعاء التالي الذي ختم به قداسة البابا يوحنا بولس الثاني كلمته في لقائه الشبّان والشابات المسلمين في الدار البيضاء في المغرب، في ١٩ آب ١٩٨٥ حيث قال:

اللهمّ، إنك أنت خالِقُنا،

إنك الرؤوف الودود وليس لرحمتك حدود

إليك يرفع كل مخلوق الحمد والتسبيح.

اللهمّ، لقد أعطيتنا، نحن البشر، شريعة في ضمائرنا، فعلينا أن نعيش بموجبها.

فإذا سمعنا لما تريد وأطعنا، فقد قمنا بمهمّتنا وواجبنا.

وإذا سلكنا سبلك المستقيمة، فقد أدركنا سلام القلب والطمأنينة.

لك نقدّم خضوعنا وطاعتنا.

إهدنا في جميع خُطانا في ما نسعى إليه على هذه الأرض.

انقذنا من الميول السيّئة التي تنحرف بقلوبنا عن مشيئتك.

ولا تسمحنّ بأن نبرّر المظالم البشرية ونحن نذكر اسمك المجيد بأفواهنا.

اللهمّ، إنك الله الأحد، ولك منّا العبادة.

فلا تسمحنّ أن نبتعد عنك.

اللهمّ، يا ديّان البشر كافة،
ساعدنا فنكون من بين مختاريك في اليوم الأخير.
اللهمّ، يا خالق العدالة والسلام،
أنعم علينا بالفرح الحق والمحبة المخلصة،
وهَبْنا إخاءً دائماً بين الشعوب
وجُدْ علينا اللهمّ بنعمك أبد الدهر. آمين[1].

(١) راجع «وثائق عصرية في سبيل الحوار بين المسيحيين والمسلمين، جماعة من المؤلفين. منشورات المكتبة البولسية ١٩٩٢، ص ١٩٧ ـ ١٩٨.

معجم الألفاظ

آباء الكنيسة: كتّاب مسيحيون قدماء امتازوا بجودة تعليمهم وقداسة حياتهم وموافقة الكنيسة.

أبرشيّة: المنطقة الخاضعة لسلطة مطران.

اتحاد أقنوميّ: اتحاد اللاهوت والناسوت في المسيح، في أقنوم (أو شخص) واحد.

ارثوذكسيّة: كلمة يونانية معناها «استقامة الرأي»، وهي تطلق على الفكر اللاهوتي الموافق لتعليم الرسل.

هي أيضاً لفظ يستعمل في أيامنا للدلالة على الكنائس الشرقية غير المتحدة برومة.

إذائيّة: جدول يوضع فيه جنباً إلى جنب ما ورد في أناجيل متّى ومرقس ولوقا (ويوحنا في بعض الأحيان) من نصوص متشابهة، للمقارنة بينها بمزيد من السهولة.

أسقف: أصل الكلمة يوناني، تعني المُشرِف ـ والأسقف هو الرأس الروحي في الجماعة المسيحية المحلية التي تُعرف بالأبرشية.

إصلاح: حركة التجديد الإنجيلي التي قامت في القرن السادس عشر لأسباب شتى.

أصول العقيدة: عرض نظامي لحقائق الإيمان.

افخارستيّا: كلمة يونانية الأصل تعني الشكر. وهي العمل الأساسي في العبادة المسيحية في الأفخارستيا يتذكر المسيحيون عشاء يسوع الأخير، لا بل يُحيونه مجدّداً.

أقنوم: يؤمن المسيحيون بأن في الله تعالى، الإله الأحد، ثلاثة اقانيم جوهرية أزليّة. والأقنوم حالة في الوجود والعمل. واللفظ يوناني الأصل يعني «الصفة» أو «الشخص».

إلهام: عمل إلهي يحمل بعض المؤلّفين على الكتابة ويوجّههم بلا خطأ في عملهم، لكي ينقلوا إلى البشر ما يريده الله أن يعلّمهم.

انشقاق: انقسام في الجماعة المسيحية لا علاقة له بالاختلاف في العقيدة.

آية: فقرة قصيرة من الكتاب المقدس.

ايقونة: رسم للمسيح أو لشخصيات مذكورة في الكتاب المقدس، أو لقديسين مسيحيين. وليست الأيقونات موضوع عبادة. فتكريمها ما هو إلاّ تكريم الأشخاص الذين تمثّلهم.

بابا: لقب بمعنى «أب» يُطلق في الكنيسة الكاثوليكية على أسقف رومة.

بدعة: إنكار أو رفض متعمّد لإحدى أو لبعض قضايا الإيمان.

بروتستانتية: اسم أُطلق على مجموعة الكنائس المسيحية المنتمية إلى الإصلاح.

بطريرك: لقب يطلق على رؤساء المراكز المسيحية القديمة الخمسة: رومة، الاسكندرية وانطاكيا، أورشليم والقسطنطينية، وهو يعني أن لهؤلاء الرؤساء سلطاناً على كنائس المناطق المجاورة.

تأليه: يرى آباء الكنيسة اليونانية، أن تأليه الطبيعة البشرية هو غاية التجسّد.

تجسّد: اتخاذ كلمة الله الأزلية جسداً في الإنسان يسوع.

تدبير إلهي: لا يجري تاريخ البشرية وفقاً لدوافع قَدَر أعمى، بل هو نتيجة لإرادة الله.

تفسير: محاولة فهم معنى الكتب المقدسة الدقيق من خلال التحليل اللغوي.

تكفير: مصالحة الإنسان مع الله بوساطة موت يسوع على الصليب. ويؤمن المسيحيون بأن يسوع هدم بموته جميع الحواجز التي انشأتها خطيئة البشر، وأسّس عهداً جديداً أبدياً بين الله تعالى والإنسان.

توحيد: مذهب أو دين لا يسلّم إلاّ بإله واحد له يخضع كل شيء.

رسوليّة: صفة الكنيسة في أيام الرسل وتلاميذ يسوع الأوائل، وهي التي صدرت عنها أسفار العهد الجديد، وتمتدّ من سنة موت يسوع (نحو سنة ٣٠) حتى حوالي العام ١٠٠.

جسد المسيح: وحدة المسيحيين العضوية.

جماعة الرسل: الرسل الاثنا عشر، باعتبارهم متضامنين في المسؤولية عن الكنيسة كلّها.

جهاد روحي: عبارة تدل على الجهد البشري، المستعين بالنعمة، والهادف إلى إزالة العقبات الصادرة عن ميولنا الشريرة أو المعرّضة للخطر، والحائلة دون سيادة المحبة فينا والاتحاد بالله.

حَدَث: تستعمل هذه الكلمة في علم اللاهوت، للدلالة على تدخّل الله في التاريخ، ولا سيما بفصح المسيح، أي بموته وقيامته.

خلاص: الانتشال من الهلاك وإعادة السلامة.

رَوْحنة: جعل الشيء روحياً.

سرّ: الأسرار علامات حسيّة وشعائر منظورة تحقق أعمالاً غير منظورة يقوم بها المسيح القائم من الأموات ضمن جماعة المتحدين بالكنيسة.

سينودس: هو الأداة الإدارية الحقيقية، ينعقد ثلاث مرات في السنة، وهو كالبرلمان.

شريعة: هي التوراة، في الكتاب المقدس، أي ما تحتويه أسفار العهد القديم الخمسة الأولى.

طقس: مجمل الصيغ الليترجية الخاصة بكنيسة من الكنائس.

عقيدة: عنصر من عناصر الإيمان المسيحي أوحاه الله وحدّدته الكنيسة.

عهد: عقد حرّ بين طرفين به يتعهد الواحد القيام ببعض الأمور لصالح الآخر. والعهد على جبل سيناء خلق علاقة خاصة بين الله واليهود. أما المسيحيون فيؤمنون بأن يسوع أنشأ عهداً جديداً بين الله والبشرية جمعاء.

ڤاتيكان: مكان إقامة البابا اسقف رومة ومركز إدارته، وهو في مدينة رومة. ويُعرف أيضاً «بالكرسيّ الرسولي الروماني».

فداء: عمل الله تعالى لخلاص البشرية بموت يسوع وقيامته.

قانون الكتب المقدسة: القائمة الرسمية بالأسفار التي يعترف بها المسيحيون جزءاً من الكتاب المقدس. ويكون السفر «قانونياً» لمّا تعتبره الكنائس المسيحية جزءاً أصيلاً صحيحاً من كتابها المقدس.

كاثوليكية: (الكنيسة ال): جماعة المسيحيين الذين يعتبرون أن الكنيسة يسوسها مجموع الأساقفة برئاسة البابا أسقف رومة.

مجمع: اجتماع رسمي لأساقفة وممثليّ كنائس يُعقد لمناقشة مسائل تمت

إلى الإيمان والسلوك. والمجامع المسكونية هي لقاءات تضم أساقفة من العالم أجمع. أما المجامع «المحلية» فهي التي تخصّ بلداً واحداً. وغالباً ما تُعرف بالسينودات. وجميع المسيحيين يقبلون بالمجامع المسكونية السبعة الأولى، في حين يعتبر الكاثوليك دون سواهم أن هناك أربعة عشر مجمعاً لاحقاً لها صفة المسكونية.

نذور رهبانية: نذور الفقر والطاعة والعفّة التي يهب بها أحد المسيحيين لله أمواله وشخصه ونشاطه، في جمعية رهبانية.

وحي: عمل يكشف به الله للبشر تدبيره الخلاصي ويعرِّفهم نفسه.

وديعة الإيمان: الوحي الذي أودعه الله كنيسته ليبلّغ إلى جميع الأجيال. نجده في التقليد، بما فيه الكتاب المقدس أولاً.

المراجع

١ ـ الكتاب المقدس، دار المشرق ـ بيروت ـ ١٩٨٩ .

٢ ـ معجم اللاهوت الكتابي، دار المشرق ـ بيروت ـ ١٩٨٨ .

٣ ـ معجم الإيمان المسيحي، دار المشرق ـ بيروت ـ ١٩٩٤ .

٤ ـ دليل إلى قراءة الكتاب المقدس، دار المشرق ـ بيروت ـ ١٩٨٣ .
ـ تعريب صبحي حموي اليسوعي .

٥ ـ الوثائق المجمعية للمجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني، ١٩٨٤ .
ـ تعريب يوسف بشارة ـ عبده خليفة .

٦ ـ «نؤمن» الجزء الأول، تعريب يوسف ضرغام، الكسليك ـ لبنان ـ ١٩٨٣ .

٧ ـ «نؤمن» الجزء الثاني، تعريب يوسف ضرغام ـ الكسليك ـ لبنان ـ ١٩٨٦ .

٨ ـ مدخل إلى العقيدة المسيحية، دار المشرق ـ بيروت ـ ١٩٩٢ .
ـ تعريب كميل حشيمة اليسوعي .

٩ ـ مجموعة الفكر المسيحي بين الأمس واليوم . منشورات المكتبة البولسية .

١٠ ـ اللاهوت المسيحي والإنسان المعاصر ـ رقم ٢ ـ ٣ ـ ٤ ـ سليم بسترس . منشورات المكتبة البولسية ١٩٨٥ .

١١ ـ المجموعة الكتابية بكاملها.

١٢ ـ منشورات الرابطة الكتابية، دراسات بيبليّة ـ بكاملها ـ ١٩٩١. تنسيق يوسف الفغالي.

١٣ ـ شرح انجيل القديس يوحنا، متّى المسكين ـ ١٩٩٠.

١٤ ـ مجموعة «في خدمة البشارة» ـ السقلاوي ـ بيروت ـ ١٩٨٨.

١٥ ـ فرح الإيمان بهجة الحياة، دار المشرق ـ بيروت ـ ١٩٨٩.

ـ تعريب صبحي حموي.

١٦ ـ تاريخ الكنيسة المسيحية، تعريب الكسندروس جحا ـ ١٩٦٤.

١٧ ـ كنيسة المشرق العربي ـ منشورات النور. ١٩٧٩. جان كوربون.

١٨ ـ فجر المسيحية ـ جرجس المارديني ـ بيروت ـ ١٩٨١.

١٩ ـ تاريخ الكنيسة الشرقية ـ ميشيل يتيم وأغناطيوس ديك ـ ١٩٩١. منشورات المكتبة البولسية.

٢٠ ـ المسيحية والإسلام في لبنان ـ محاضرات الندوة ـ بيروت ـ ١٩٦٥.

٢١ ـ فلسفة الفكر الديني بين الإسلام والمسيحية ـ الجزء الثاني.

ـ تعريب صبحي الصالح وفريد جبر. دار العلم للملايين ـ بيروت ـ ١٩٧٩.

٢٢ ـ وثائق عصرية في سبيل الحوار بين المسيحيين والمسلمين ـ جماعة من المؤلفين ـ منشورات المكتبة البولسية ـ ١٩٩٢.

٢٣ ـ كافّة المجلات ـ كالمسرّة والمجلة الكهنوتية وغيرها . . .

المحتويات

الإهداء ٥
مقدمة المؤلف ٧

الباب الأول
مدخل إلى «الكتاب المقدس»

الفصل الأول: ما هو «الكتاب المقدس» ١٣
الفصل الثاني: الوحي والإلهام في الكتاب المقدس ١٦
الفصل الثالث: العهد القديم والأسفار القانونية: ٢٠
١ ـ التوراة ٢٢
٢ ـ الأسفار النبوية ٢٦
٣ ـ كتب الحكمة ٢٩
٤ ـ العهد القديم مقدمة إلى العهد الجديد ٣٠
الفصل الرابع: العهد الجديد والأسفار القانونية: ٣٢
١ ـ الأناجيل ٣٣
٢ ـ الرسائل ٤١
٣ ـ رؤيا يوحنا ٤٤

الفصل الخامس: الأسفار المنحولة:

١ ـ الأناجيل المنحولة ٤٦
٢ ـ سائر الكتب المنحولة ٥١
٣ ـ قيمة الأسفار المنحولة ٥٢

الفصل السادس: مسألة تأويل النصوص الدينية في الفكر المسيحي ٥٣

١ ـ ليس الوحي إملاءً، والعهد القديم من العهد الجديد بمنزلة «الرمز» من الحقيقة ٥٣
٢ ـ المعنى الظاهر قد يكون حقيقياً ومجازياً، وقد يكون له «معنى اكمل» ٥٤
٣ ـ المعنى الباطن أو الروحي ٥٥
٤ ـ وجوب التمييز بين «المعنى الحاصل» و «المعنى التطبيقي» الزهدي التصوّفي ٥٦

الباب الثاني
أصول العقيدة المسيحية

تمهيد: الإيمان المسيحي مبنيّ على إيمان الرسل ٥٩
الفصل الأول: الإيمان بالله الواحد: ٦١
١ ـ عقيدة مشتركة بين الأديان السماوية ٦٢
٢ ـ الله الواحد رب الكون وسيد التاريخ، تكلّم بالأنبياء، وظهر في شخص يسوع ٦٣
٣ ـ هو خالق السماء والأرض ٦٥
٤ ـ الإيمان بالله الواحد لا يناقض الإيمان بوحدة ثلاثة أوجه في الله ٦٦
٥ ـ الإيمان بالله هو الإيمان بالمحبة ٦٨

الفصل الثاني: الإيمان بالله الآب:

١ ـ الله محبّ للبشر ٧٠
٢ ـ الله ذو الغفران والرحمة ٧١
٣ ـ وهو إله التحرّر وإله الممكنات ٧٢
٤ ـ الله العليم بكل شيء يشمل الإنسان بعنايته ٧٤
٥ ـ الله ديّان البشرية العادل في اليوم الآخر ٧٥
٦ ـ كمال الله الآب في كمال المحبة ٧٧
٧ ـ المحبة صفة واحدة توجز جميع صفات الله ٧٨

الفصل الثالث: سرّ التجسد: «الكلمة صارت بشراً» ٨٠

١ ـ يسوع المسيح ابن الله ٨٢
٢ ـ يسوع الإنسان ابن البشر ٨٣
٣ ـ يسوع الإله ٨٦

الفصل الرابع: سرّ الفداء:

١ ـ مفهوم الخلاص والفداء ٨٩
٢ ـ الخلاص والفداء بيسوع المسيح ٩١

الفصل الخامس: الإيمان بالروح القدس:

١ ـ مفهوم الروح في العهد القديم ٩٨
٢ ـ مفهوم الروح في العهد الجديد ١٠٠

الفصل السادس: الكنيسة والأسرار استمرار المسيح:

١ ـ من هم الحواريون؟ ١٠٤
٢ ـ مفهوم الكنيسة ١٠٦
٣ ـ الكنيسة والأسرار استمرار حضور المسيح على مدى الزمن .. ١٠٨
٤ ـ سرّ العماد ١١١

٥ ـ سرّ القربان المقدس (القداس الإلهي) ١١٣

الباب الثالث
الأخلاق المسيحية

الفصل الأول: الحياة بالروح: ١٢١
١ ـ الدين المسيحي دعوة شاملة لرَوْحنة الإنسان ١٢١
٢ ـ بين الجهاد الروحي والعمل الخُلُقي ١٢٢
٣ ـ «تخلّقوا بأخلاق الله» ١٢٤
٤ ـ مواطن الالتقاء على صعيد الاخلاق بين المسيحية والإسلام .. ١٢٧

الفصل الثاني: الحياة الرهبانية:

١ ـ عودة إلى الحياة المسيحية في القرون الثلاثة الأولى ١٣٠
٢ ـ نشأة الحياة الرهبانية في أواخر القرن الرابع ١٣١
٣ ـ الحياة الرهبانية في بداياتها ١٣١
٤ ـ باسيليوس الكبير ينظّم الحياة الرهبانية ١٣٣
٥ ـ انتشار الحياة الرهبانية ١٣٣
٦ ـ تجديد الحياة الرهبانية المعاصرة وقرار المجمع الڤاتيكاني الثاني ١٣٦

الباب الرابع
الجماعة المسيحية وتطوّرها عبر التاريخ

الفصل الأول: الكنيسة في عهد الرسل ١٤٣
١ ـ تأسيس الكنيسة في القدس ١٤٣
٢ ـ اليهود يضطهدون المسيحيين ١٤٤
٣ ـ انتشار الجماعة المسيحية في فلسطين وسورية ١٤٥
٤ ـ انتشار الجماعة المسيحية في العالم الروماني الوثني ١٤٦
٥ ـ عصر الاضطهاد ١٤٧

الفصل الثاني: نشأة الفكر المسيحي وتطوّره حتى القرن السابع الميلادي

١ ـ تحديد العقيدة المتعلّقة بالمسيح في القرون الثلاثة الأولى ١٤٩
٢ ـ يسوع المسيح الإله والإنسان محور الفكر المسيحي في القرن الرابع ١٥٠
٣ ـ الجدالات حول طبيعة المسيح والمجامع الأولى ١٥١
ـ البدعة الآريانية ومجمع نيقية سنة ٣٢٥ .... ١٥١
ـ البدعة النسطورية ومجمع أفسس سنة ٤٣١ .... ١٥٣
ـ بدعة «الطبيعة الواحدة في المسيح» ومجمع خلقيدونيا سنة ٤٥١ ١٥٤
٤ ـ تطوّر فكر الآباء من القرن الرابع حتى القرن السابع الميلاديين ١٥٦

الفصل الثالث: من القرن الثامن حتى القرن السادس عشر ١٥٩

١ ـ الحملة على الأيقونات المقدسة ومجمع نيقية الثاني سنة ٧٨٧ ١٥٩
٢ ـ الانشقاق بين الشرق والغرب ١٦٠
٣ ـ حركة الإصلاح والاصلاح المضادّ ١٦٢
ـ مفهوم النعمة والتبرير والخلاص وحركة الإصلاح ١٦٣
ـ الأوضاع الدينية العامة في القرن السادس عشر وثورة الراهب لوثر ١٦٤
ـ الإصلاح الكاثوليكي المضادّ ومجمع التريدَنْتيني ١٦٥
ـ مفهوم النعمة والتبرير والخلاص حسب مجمع التريدنتيني ... ١٦٥
ـ ماذا بقي اليوم من هذا النقاش؟ ١٦٦

الفصل الرابع: المجمع الڤاتيكاني الثاني ١٩٦٢ ـ ١٩٦٥ .... ١٦٧

١ ـ أعمال المجمع ١٦٧
٢ ـ أهمّ تعاليم المجمع ١٦٩
٣ ـ انجازات المجمع في سبيل الوحدة والحوار والمصالحة ١٦٩

الفصل الخامس: الطوائف المسيحية في العالم العربي والحركة المسكونية المعاصرة ١٧٣

تمهيد:

١ ـ الكلدان والأشوريون ١٧٣
٢ ـ الملكيّون والروم ١٧٥
٣ ـ الموارنة ١٧٧
٤ ـ السريان ١٨١
٥ ـ الأقباط ١٨٣
٦ ـ الأرمن ١٨٥
٧ ـ الحركة المسكونية المعاصرة ١٨٧

كلمة الختام ١٩١

ـ معجم الألفاظ ١٩٣
ـ المراجع ١٩٩
ـ فهرست المحتويات ٢٠١

VICARIAT APOSTOLIQUE DES LATINS

B.P. 11-4224 – Tél.: 460212

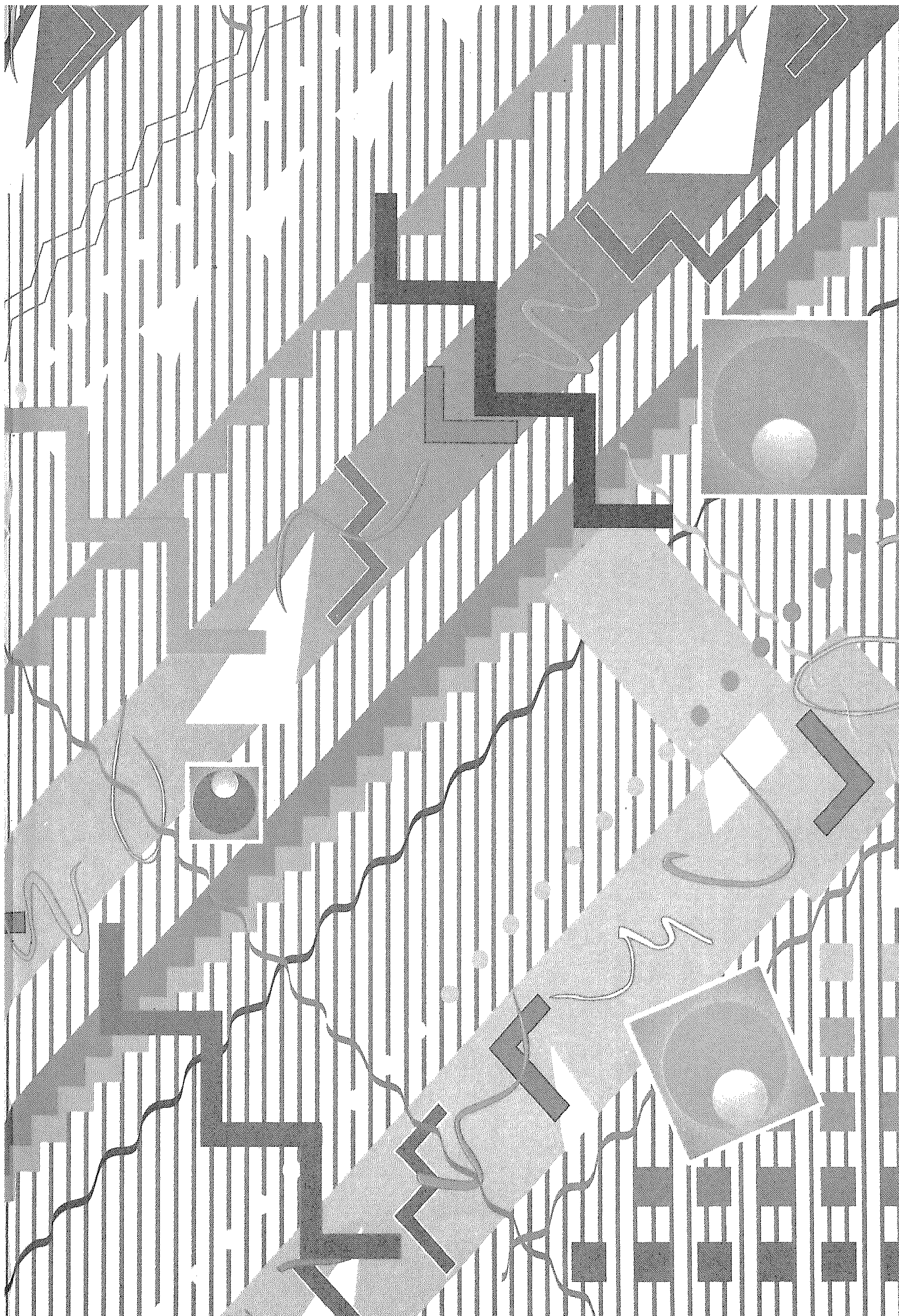
Beyrouth – Liban

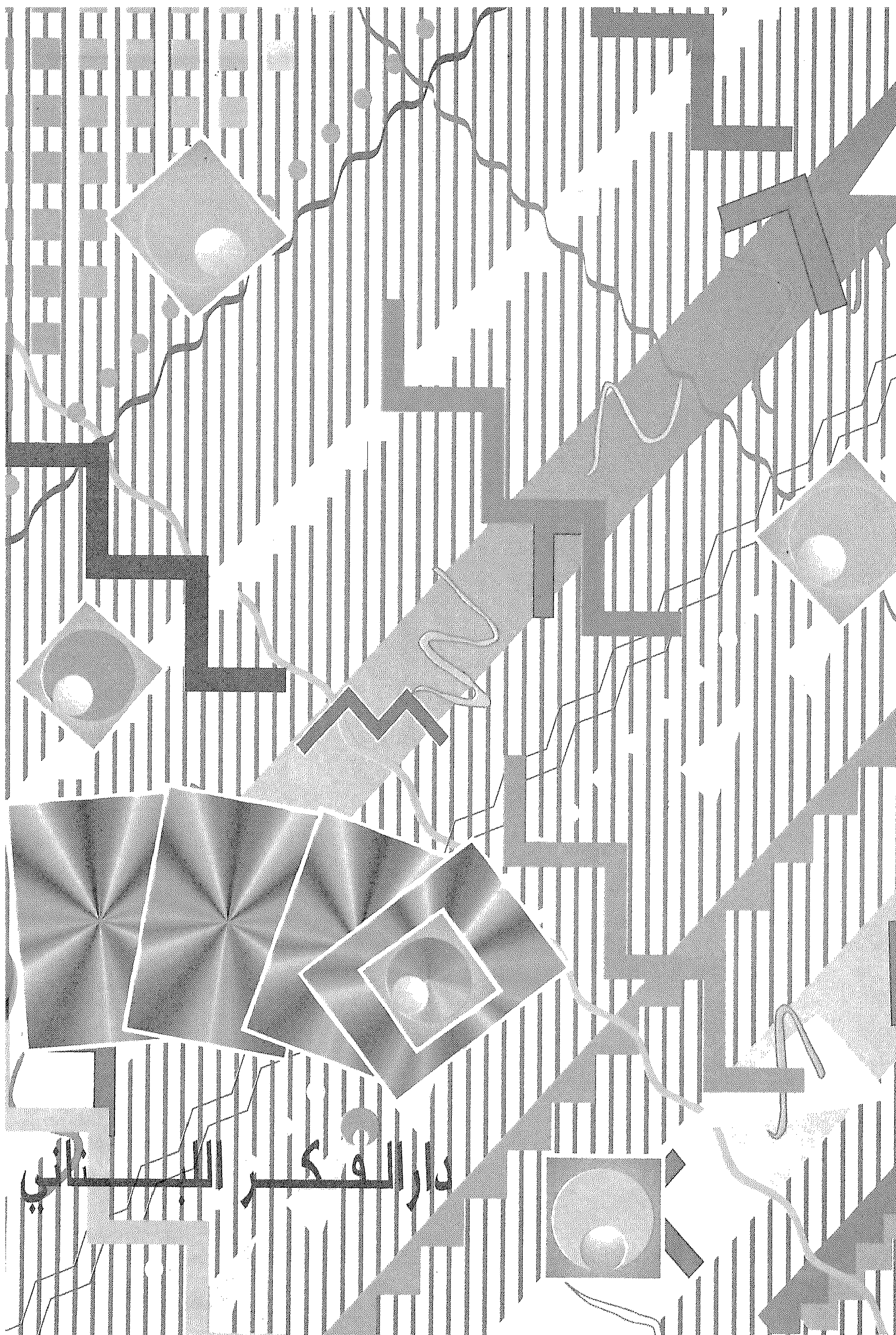
النيابة الرسولية اللاتينية

ص.ب ١١-٤٢٢٤ - تلفون: ٤٦٠٢١٢

بيروت - لبنان






دار الفكر اللبناني

تقدم دار الفكر اللبناني للقارىء العربي موسوعة الأديان السماوية والوضعية في أجزائها السبعة، وذلك للتعريف بصورة موضوعية بالديانات السماوية المتلقاة وحياً وهي اليهودية والمسيحية والإسلام، وللإحاطة بالديانات والمعتقدات الوضعية، الحيّة والقديمة والتي نشأت وعُرِفت في الشرق مهد الديانات والحضارات.

إن إعادة الاعتبار للمسألة الدينية والاعتقادية على مختلف المستويات، وفي نهاية القرن العشرين، لأمر بالغ الأهمية، سيّما وأن الدراسات المقارنة للأديان والمعتقدات بلغت ذروتها. إن المثقفين اليوم منكبون على نوع من الدراسات كهذا، ومنكبون أيضاً على دراسة الأديان ليس فقط عن طريق المقارنة بينها، بل أيضاً عن طريق دراستها من حيث طبيعتها الخاصة.

أضف إلى ذلك أن ظهور ما يُسمّى بعلوم الأنتروبولوجيا والأثنولوجيا والأركيولوجيا وغيرها، وإسهامات هذه العلوم في كشف وتفسير وفهم بعض خفايا السلوك البشري اليوم، أدى إلى إعادة الاهتمام بالمسألة الدينية حتى في المجتمعات الأكثر علمانية.

إنّ ما تقدمه هذه الموسوعة هو قراءة تاريخية موضوعية لمختلف الديانات والمعتقدات التي كانت سائدة ولا تزال، وذلك مواكبة منها للمستجدات المطروحة. وهي تحرص كل الحرص على أن تبتعد عن التقويمات والتحليلات، متوخية الدقة والأمانة في عرضها وتعريفها لما تقدمه.

موسوعة الأديان السماوية والوضعية

١ ـ ميثولوجيا وأساطير الشعوب القديمة.
٢ ـ الديانات الوضعية الحية
في الشرقين الأدنى والأقصى
٣ ـ الديانات الوضعية المنقرضة
٤ ـ أديان ومعتقدات العرب قبل الإسلام.
٥ ـ الديانة اليهودية.
٦ ـ الديانة المسيحية.
٧ ـ الديانة الإسلامية.

دار
الفكر اللبناني